

## الكتاب الثاني

# حضارة روما الجمهورية

لنتقل دون إبطاء الى روما .

الشعوب الغربية الاخرى  
قبل الرومان

مها يكن من شأن الاتروسك ( *Etrusque* ) والقرطاجيين والغالين  
فان هذه الشعوب الثلاثة وحضاراتها لم تُفقط الغرب بكليته قبل  
الرومان . وعلى الرغم من تلميحاتنا في سياق البحث ، حول شعوب ايطاليا الوسطى والليغوريين  
والإيبيريين واولئك الليبين الذين ليس اسمهم الحالي « بربر » سوى امتداد خفي لاسمهم القديم  
الواسع الانتشار ، « برابرة » ، وسكان الجبال في جزر المتوسط الكبرى وسلسلة الالب ،  
والجرمانيين الذين اعرض الباطرة عن إخضاعهم بعد مجزرة « جوقات فاروس » والبريطانيين  
الذين أخضعهم حتى محتق الجزيرة البريطانية عند سكوتلندا الجنوبية ، فالشعور بما  
تفتقر اليه اللوحة التي رسمناها عن الغرب في الفصول الثلاثة السابقة لا جدال فيه ولا يختلف  
عليه اثنان .

ولكن كيف لا نراجع امام هذا التقسيم الكبير الذي هو نتيجة محتومة لعرض أكمل وأكثر  
شمولاً ؟ اصف الى ذلك اننا لا نعرف هذه الشعوب معرفة تامة . ولكن بين النواحي العديدة التي  
يجب على مؤرخ الحضارت القديمة ان يعترف يجهلها ، ليس ما يتعلق منها بهذه الحضارات ما يجعله  
حلى الاسف الاشد . واذا كان هناك من فائدة في دراستها ، فان الفائدة الرئيسية ليست في  
الوقوف على ما كانت عليه هذه الشعوب ابان استقلالها او ما كان يمكن ان تبلغه لو انها حافظت  
على هذا الاستقلال . ولكن من شأن تشتتها وتنوعها وصبغتها التي لا تزال مخشوشة ان تظهر  
بالمقارنة عمل الوحدة والتربية الذي قامت به روما خير قيام . غير ان عظمة هذا العمل ظاهرة  
للعيان دونما حاجة الى هذه الايضاحات .

وهكذا فان روما هي المحور ابدأ . ويتضح هنا مرة أخرى ان الكلام  
عن شعوب اخرى يؤدي اليها حتماً . فهي انما تسلط على كل من يريد  
رسم تطور المجتمعات على شواطئ المتوسط او في جواره . وفي كلامنا  
عن الشرق الادنى وعن الغرب على السواء ، قليلة جداً هي الفصول التي اختتمت دون ان تأتي على

روما التي تؤدي اليها  
كافة طرق المصور القديمة

ذكرها ، وبالطرح أحياناً . ولم يكن القصد من ذلك الإنباء بالمستقبل القريب او البعيد بل تفسير نهاية حضارة ما او زوالها او ديومتها جزئياً . والواقع هو ان روما كانت الوريث المباشر او غير المباشر لشعوب لا يحصى لها عدد انصهرت جميع مصائرهما في مصير روما . فبعد تعداد شتى التراكات المادية والادبية التي ضمتها الى تراثها الخاص ، يجدر بنا ان نرصد اليها وننظر اليها كما استطاع ان يكونتها عمل معقد أسهمت فيه الطبيعة والبشر والاحداث .

لن نتوقف عند نشأتها ومطلع عهدها ، فهي مدينة بوجودها وجوهر تنظيمها الاول الى الاغروسك . وقد بقيت دون تميز يذكر حتى بعد زوال وصايتهم عليها : مدينة ذات ملامح ريفية ظاهرة ، شأن العديد غيرها من مدن ايطاليا آنئذ ، كما نرجح . وقد يجدر بنا ، مع ذلك ، ان ندرسها كما وصفناها لو ان لدينا المعلومات الصحيحة عما كانت عليه اذ ذاك . ولكن صورة ماضيها كما نقلها اليها تقليد تحدد بعد ذلك بزمن طويل - اي في القرن الثاني قبل الميلاد ، في خال ان التاريخ المسلم به لتأسيس روما كان متأرجحاً حوالي منتصف القرن الثامن - ، وهي تكاد تكون خالية من الالوان المختلفة التي تفسح المجال للمقارنات المجدية ، مردها الى تفسيرات شوتهنا تشويهاً لا يرتق فتنقه لا بل الى تركيب تحمكي صرف . فمئذ السنة ١٧٢٩ استطاع احد المؤرخين ان يتكلم عن الشكوك التي تحوم حول القرون الاولى من تاريخ روما ؛ ويجدر بنا ، حتى في يومنا هذا ، ان نحفظ هذه المسائل التي لا تزال مطروحة ، لجهود علماء الاجتماع وعلماء الآثار وذوي الاطلاع الواسع .

هنالك شيء آخر يسترعي الانتباه في ما يستهدفه هذا الكتاب . عيننا في الفتح والحضارة  
الدرجة الاولى توسع روما ونموه ووسائله وطرائقه ، وفي الدرجة الثانية ،  
في روما الجمهورية  
وبنوع خاص ، نتائج هذا التوسع .

اما النتائج التي تتناول الشعوب المغلوبة على نفسها والمعلنة خضوعها فليست اذ ذاك بالنتائج الاكثر اهمية لانها لا تزال سلبية . فحتى اوائل العهد المسيحي تقريباً ، واذا ما استثنينا ايطاليا ، نرى ان روما تهدم دون ان تبني شيئاً جديداً متيناً يتناسب مع ما تستولي عليه . وتقتل او اقله تخنق حضارات لا تهتم لاقامة حضارات اخرى مكانها . وتسلب وتفقر وتستثمر دونها اعتبار الى انها تعرض حياة ممتلكاتها للإخطار . وتقتطع دون تعقل من مال اصبح مالها فتستنزفه وتعرض مستقبلها نفسه للخطر . ولن يظهر عملها الايجابي كوصية على العالم ومنظمة له ، وكربية ايضاً في اكثر من منطقة من مناطقه ، الا بعد ذلك ، في عهد الامبراطورية وبفضل الامبراطورية .

ولكن نتائج الانتصارات ، منذ قبل الامبراطورية بزمن بعيد ، قد بدا اثرها على المنتصرين . فاذا ما تلمذوا لبعض المغلوبين ووسعوا ادراكهم لمفهوم الانسان وايقظتهم مشاغل فكرية وجمالية جهلوا حتى ذاك العهد واوجدوا لانفسهم ادباً وفتناً ؛ فان كل ذلك ، على الرغم من عظمة

اهميتها المطلقة ، لا يمثل مع ذلك ، نسبياً ، سوى نتيجة لا قيمة لها . فلا ينجو في الحقيقة اي مظهر من مظاهر حياتهم من ردة الفعل . ويكفي للقضاء على هذه المظاهر ان تدوم الحروب التي تقتلع المواطن من بيئته وتثنيه عن المهام المنتجة . يضاف الى ذلك ، في هذا الافتراض ، اقتناء ونقل ثروات طائلة ، والاتصال بشعوب اعظم تطوراً وبحضارات على قسط كبير من التفخّل ، والسيكولوجيا الجديدة التي كتيها النجاح والسيطرة . فانفجرت من ثم ثورة متعددة الاشكال ، مادية وادبية ، لم ينج منها صقع من الاصقاع . واذا ما بدا التنظيم التقليدي مستمراً هنا او هناك فان واقعاً آخر يتسرب اليه يرسخ اندفاعه بقوة مطردة .

فاتحون يواجهون المعاضل التي اوجدها اثر الفتوحات في ظروف الحياة الفردية والجماعية ، وحضارة مدينة ريفية تصبح قسراً حضارة عاصمة في امبراطورية ، وانتصار النظم الاقتصادية الجديدة والاضطراب الاجتماعي الذي يسببه ، وازمة النظام السياسي القديم الذي مضى زمانه ، وتراخي الانظمة القديمة ، وتعذر وضع غيرها ابان اضطرابات الصراع بين مقاومة قوى الماضي وفورة قوى الحاضر : ذلك هو المشهد الذي تقدمه لنا روما الجمهورية والذي ينطوي معناه الحقيقي على قوة مستقلة عن احداث هي اشبه بالمآسي احياناً . وقد يغري بعضهم ان يطيلوا الكلام في موضوع المعاضل التي اوجدتها الانتصارات للمنتصرين . ولكننا سنقتصر هنا على استنتاج نظري : ان المؤرخ قد يبحث دون جدوى عن حالة اخرى يظهر فيها تضافر العوامل العديدة ، في حضارة ما ، على مثل هذا اللاحاح وهذا الجلاء ، عن طريق الخلل الذي يحدثه انهيار احد هذه العوامل ، شيئاً فشيئاً ، في كافة العوامل الاخرى ، وحتى في ضمير المجتمع .

## الفتح الروماني

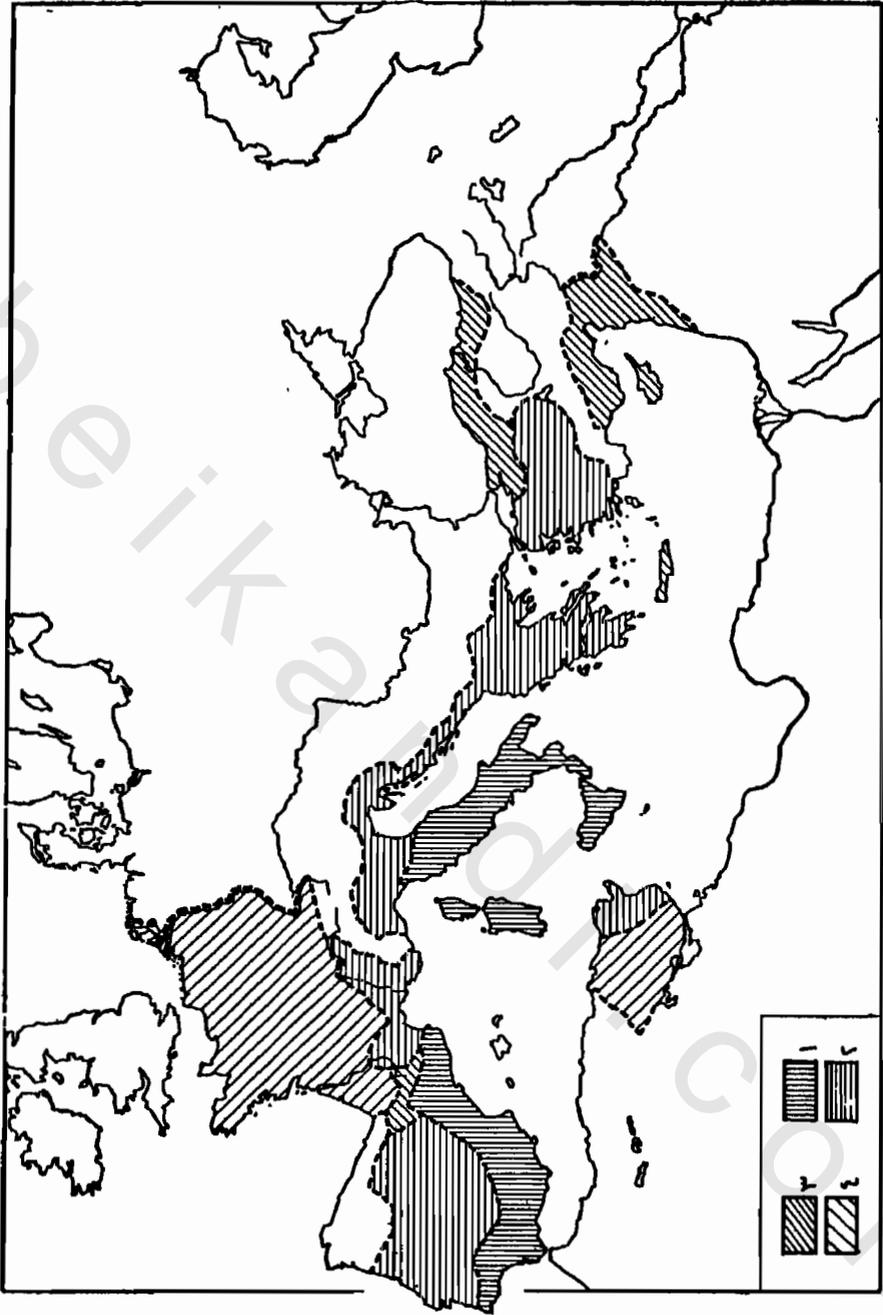
بعد ان حددنا قبلة هذا البحث ، نرى من واجبنا ان يتناول الفتح الروماني في الدرجة الاولى :  
فبدون هذا الفتح يستحيل فهم حضارة روما الجمهورية .

### ١ - التوسع الجمهوري

غير ان اهمية هذا الحدث التاريخي العظيم لا تنحصر في المدينة التي حققت خلق عالم متوسطي هذا الفتح . فهي انما تقرر لقرون عدة مصير العالم المتوسطي . ولعل ابسط ملاحظة ، بهذا الصدد ، تفرضها نظرة الى الخريطة ، تقودنا ايضاً الى ابعاد استنتاج : فان روما قد خلقت هذا العالم بفعل احتلالها اياه .

لم يسبق قط ان قام حتى ذلك العهد في اطار وحدة سياسية لم تدم طويلاً او خارج مثل هذا الاطار ، سوى عالم واحد هو عالم الشرق الادنى الذي تجاذبت مركز الثقل فيه بلاد ما بين النهرين حيناً وبحر ايجه حيناً آخر . ولعل الاسكندر هو الوحيد بين قدامى الفاتحين العظام الذي يغلب على الظن انه وضع تصميماً يقضي ، بعد فتح الامبراطورية الفارسية حتى تركستان والهندوس ، بفتح الغرب المتوسطي حتى جبل طارق . ولكن الوقت قد اعوزه للشروع بتنفيذه . فبقي الغرب من ثم في عزلة متروكا لشعوب متخلفة لا تربط بينها رابطة ، يعيش كل منها لنفسه في نطاقه الاقليمي ، ولا تقوم بينها صلات متبادلة او بعيده سوى تلك التي احتكرت مكاسبها بعض المستعمرات الاجنبية المقيمة هنا او هناك على الشواطئ ، ولا تتأثر سوى تأثر محلي وبطيء بجمية اقل بداءة تنصف بالانكماش ، ولا تسهم اي اسهام بنجاحات الشرق الادنى ومنازعاته .

ولم يضع حداً لهذه العزلة سوى روما . فبعد ان اصبحت سيده ايطاليا ، بين حوضي المتوسط ، لم يكن من سبيل امانها للوقوف موقف اللامبالاة منها . فقامت فيها ، في آن واحد ، بحملة توسعية موازية . فاخضعت البلدان الغربية لملائق عديدة وادخلتها ، في الوقت نفسه ، في



الشكل ٦ - الفتوح الرومانية في عهد الجمهورية

- ١ - مقاطعات خضعت لروما في أواخر القرن الثالث أو الحروب البونيقية الثانية؛ ٢ - فتوح القرن الثاني؛ ٣ - فتوح القرن الأول قبل قنصلية قيصر (٥٩)؛ ٤ - فتوح قام بها قيصر وعرف أوغسطس ان يحافظ عليها.

وحدة اعظم اتساعاً . وهي ، اذ اخضعت لشريعتها هذه الاراضي المختلفة الكثيرة المحرومة حتى ذلك العهد من اي اتصال فيما بينها ، قد اوجدت الظروف الاولى لوحدة متوسطة . وستعهد الامبراطورية فيما بعد تنفيذ هذه الوحدة . وقد اتاحت الجمهورية ، منذ الآن ، بالفتح الذي حققته ، تطور معطية جغرافية الى واقع بشري .

بيد انه يصعب عليها جداً ، في تحقيق عملها العسكري ، الا تسمح بخسارة شيء من عالم الشرق الادنى القديم . فهي لم تنجح في التوسع الى ابعد من نهر الفرات . وهي لم تتوقف راضية عند هذا النهر . فان ذكرى مجد الاسكندر تراود مخيلة اكثر من رئيس بين رؤسائها . وهي لا تجهل خصب بلاد بابل وواقع انتهاء كثير من طرق تجارة الشرق الاقصى اليها . اضعف الى ذلك ان خبرتها قد اتاحت لها تقدير الخطر الذي يمثله ، لملكاتها في سوريا ، قربها من الفلوات والصحاري التي تظهر فيها ، بصورة مفاجئة ، جماعات غفيرة من الفرسان النبالين . بيد ان إرث الملكية السلوقية ، حين وضعت يدها عليه ، كان قد انقص انقاصاً ملحوظاً : فايران قد فقدت بكليتها ، وكذلك بلاد ما بين النهرين حيث اقام الفارتيون ، بينما استعاد سلايو ارمينيا استقلالاً تاماً . وقد اجرت روما عدة محاولات ، منذ عهد باكر ، لتوسيع هذا الارث المصغر . فكان بومبيوس بصيراً واكتفى بالمساومات ، وكان كراسوس مغامراً فقاد جوقاته الى المجزرة في سهل كار ( Carrhes ) . واقدم بعض الاباطرة على المغامرة بدورهم فاحرزوا نجاحات متفاوتة سريعة الزوال . وهكذا لم يستطع الرومان يوماً إعادة وحدة الشرق الادنى المقوضة منذ قبل وصولهم : فقد افتقرت امبراطوريتهم الى اجزاء عريضة جداً من الامبراطورية الفارسية وامبراطورية الاسكندر .

ولكن فتوحات جديدة كثيرة ، ايطاليا ودماتيا وغاليا واسبانيا وافريقيا ، قد عوضت الى حد بعيد ، اقاليم وسكاناً ، عن هذا التخلي الذي قبلت به غير راضية . ولكن نتائج هذا التخلي الحقيقية اكثر من ان تحصى . فبفضله نجحت روما من الاندفاع نحو الشرق البعيد وسهلت عليها المهام الملقاة على عاتقها . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار المشاغل التي سببها لها الفرسان الفارتيون في فلوات ما بين النهرين ، هان علينا تصور تلك التي كان عليها مواجهتها في محاربتها بني جنسهم في فلوات تركستان . وهي لم تحتفظ من الامبراطوريات التي سبقتها سوى بالبلدان اليونانية حقاً وبتلك التي رسخت فيها الحضارة اليونانية بعض الرسوخ : فأفادت فيها من رصيد ثقافي ثابت ومن تيار صاعد . فيتضح من ثم ان فقدان مناطق ما بعد الفرات ، هو الذي اطلق ايديها في الغرب ، وأتاح لها أن تشيد ، عوضاً عن عالم الشرق القديم ، على غرار أسلافها ، عالم البحر المتوسط بكليته .

ان الشكل الجغرافي لهذا العالم لكافي لإعطائه ميزة الجودة . أضف الى ذلك ان هذا العالم سيستمر حتى اليوم الذي سنتنزع منه انتصارات العرب جميع المناطق التي تحيط ببحره ، الداخلي من الجهة الجنوبية .

الفتح الروماني عمل بطيء ان ما يلفت النظر ، اذا ما نظرنا الى حركة هذا التشييد ، هو البطء الذي تسير فيه . وتبدو المضادة عظيمة بينه وبين السرعة النافذة التي اعتمدها اعظم فاتحي الشرق الادنى ، أمثال قوروش الفارسي والاسكندر المقدوني بنوع خاص . فالاندفاع التوسعي الذي نهضت به الشعوب الايرانية ، الميديّة والفارسية ، حتى اذا ما نظرنا الى هذا الاندفاع في مجموعه ، لم يدم سوى قرن وبعض القرن فقط ، منذ احتلال آشور في السنة ٦١٤ حتى سلامين في السنة ٤٨٠ . اما اندفاع المقدونين ، حتى اذا ما ضمنا ملك فيلبوس الى ملك ابنه ، فقد كفاه ست وثلاثون سنة لبلوغ حدوده القصوى . وعلى نقيض ذلك ، فإن التوسع الروماني يتطلب زمناً اطول الى حد بعيد ، إذ ان الحروب الاولى ضد الجيران الايطاليين تبتدىء منذ فجر القرن الخامس ، بُعيد انهيار الملكية الاتروية ، وان ايطاليا نفسها ، عند وفاة قيصر ، في السنة ٤٤ قبل المسيح ، لما يستتب الامر للرومان في شمالها الشرقي بين ايستريا والدانوب .

من الجلي ، ان الخطوات الاولى ، في مثل هذا التطور ، هي في الغالب تلك التي تصطدم بأشدّ العراقيل صعوبة . وليس من المستغرب ، على كل حال ، اذا ما اعتبرنا نقطة الانطلاق روما ، واضطرارها لمحاربة مدن ممانلة لها وسكان جبال الأبنين الوسطى والجنوبية المشهورين بقوة شكيمتهم وتوقفها أحياناً في نجاحاتها بفعل الغزوات الغالية ، كتلك التي خربتها في أوائل القرن الرابع ، ألا تتوصل ، إلا بعد أحداث طويلة ، لإخضاع ما درجوا ، حتى قيصر ، على تسميته بـ « ايطاليا » أو ما يطلق عليه الجغرافيون اسم شبه الجزيرة الايطالية . بيد ان هذا الاخضاع لا يصبح أمراً ناجزاً ، بعد فتح تارنتا *Tarente* في السنة ٢٧٢ ، وفتح آخر مدينة أتروية في السنتين ٢٦٥ - ٢٦٤ ، إلا قبيل النزول الى صقليا في السنة ٢٦٤ : أي ما يناهز القرنين ونصف القرن ، لاحتلال شبه الجزيرة ، في حال ان احدى وعشرين سنة كانت كافية لأن يبسط فيلبوس السيطرة المقدونية على اليونان البلقانية !

وإذا لم يسر التوسع خارج ايطاليا ، فيما بعد ، بمثل هذا البطء ، فإنه لا ينتهي في الغالب الى ضم المناطق الا بعد المواعيد المقررة لهذا الضم . وتؤلف الحروب البونيقية ، في سلسلة الحروب الطويلة التي نشبت ما وراء البحر ، شذوذاً يلفت الانظار ، لأنها تنتهي على الفور الى مكاسب اقليمية : الاولى الى كسب صقليا والثانية الى كسب اسبانيا والثالثة الى كسب اقليم قرطاجنة . ولكن المجازفات في الشرق الهليني تتأخر في اعطاء ثمارها . فقد تدخلت روما في اليونان منذ السنة ٢١٢ ، وهزمت فيها الجيش المقدوني شر هزيمة في السنة ١٩٧ ، وقضت عليه نهائياً في السنة ١٦٨ ، ولم تنشء ولاية مقدونيا ، على الرغم من ذلك ، الا في السنة ١٤٨ . ولا حاجة بنا لأن نقدّم الامثلة الكثيرة ، بل يكفي ان نستشهد بمثل مصر الفريد : فقد بُسطت حماية روما عليها عملياً منذ السنة ١٦٨ ، على الأقل ، وثقلت عليها يوماً بعد يوم كما يتضح من تكرار تدخل الجيوش الرومانية في منازعات البلاد الداخلية ، ولكن ذلك لم يحل دون احتفاظ

الملكية اللاجية باستقلالها النظري وحق العملي أحياناً - فان كليبواترا قد استخدمت انطونيوس بمقدار خدمتها له على الأقل - حتى السنة ٣٠ قبل المسيح .

تتوق هذه الملاحظات في امينتها مجرد التوقيت الزمني . اجل ان تاريخ الفتح  
رجماعي الروماني ينطوي على احداث سريعة ، كبسط السيطرة على غالبية المستقلة التي  
حققتها قيصر في ثماني حملات عسكرية . ولكن مثل هذه الاحداث ، بصرف النظر عن ان  
واحداً منها لا يرتدي طابع الصاعقة الذي ترتديه حملة الاسكندر اذ ضم في ثلاثة عشر سنة  
الامبراطورية الفارسية الواسعة الارجاء الى الملكية المقدونية ، لا تخرج عن كونها استثنائية .  
ويبدو بناء العالم الروماني على الصعيد العسكري ، الذي يمتد عدة قرون قبل الميلاد ، والذي  
سينتامل بعده ايضاً ، وكأنه في الحقيقة عمل اجيال عديدة جداً .

يستدل من ذلك ان هذا البناء لم يكن ، او لم يكن الاجزئياً ، عمل افراد بارزين . اجل ،  
لم تقتصر روما الى مثل هؤلاء . وهي لم يعوزها المجد العسكري الذي يفتقر عندها باسماء معينة  
كما عند غيرها . وتفسر مؤهلات العديد من زعمائها الشهرة التي نعموا بها . لا بل ان بعضهم قد  
لعب دوراً شخصياً حاسماً في توسع الامبراطورية . فقد تصرف بومبيوس في آسيا مثلاً وقيصر  
في غالبية كما طاب لهما التصرف دون ان يستشير احداً : فاخترتا على هواهما من يهاجمان وعقدا  
احلافاً وقررا ضم الاقاليم ، ممارسين بذلك في كماله ، باسم روما ، ودون اغفال اهدافها ، قانون  
الحرب والسلم . بيد ان هذه الحرية لا يمكن ادراكها الا في القرن الاخير من العهد الجمهوري ،  
وهي انما تمثل - وسنعود فيما بعد الى هذا التطور - مظهراً من مظاهر الاضطراب الذي خلقه  
الفتح نفسه في سير نظام الحكم . فلم يكن القواد ، زمناً طويلاً ، قبل ان يتحرروا وريداً وريداً ،  
سوى منفذين تسند اليهم مهمة عسكرية معينة . وهكذا فان اكبر واشهر مؤسسي العظمة  
الرومانية ، كشيبيون الافريقي وبولس اميليوس وشيبيون اميليانوس لم يأخذوا على انفسهم  
امر اعلان الحرب ، واذا هم ابدوا رأيهم ، المسيطر غالباً ، في شروط الصلح المفروض على العدو  
المغلوب على نفسه ، فانهم لا يملون ، مع ذلك ، هذه الشروط دون اشتراك غيرهم في الرأي ،  
اي دون رقابة .

يبدو هذا القول وكأنه حقيقة بديهية ، اذ ان روما ، في ذلك العهد ، كانت جمهورية وكان  
عليها بهذه الصفة ، الا اذا رضيت بالديكتاتورية ، ان تحدد مدة القيادات العسكرية ونطاقها  
الجغرافي وان تتخذ سياستها الخارجية ، ما امكن الاتقاذ ، من القرارات الفردية . ولكن كل  
ظاهر ابتدال يزول اذا ما فكرنا ان تاريخ الانسانية جمعاء لا يقدم لنا اي مثل آخر عن جمهورية  
تتابع طيلة اجيال عدة ، بمثل هذا الثبات وهذه الوحدة في النتائج ، ان لم يكن دائماً في  
الاساليب ، سياسة تؤدي الى فتوحات على مثل هذا الاتساع . ففوق الاحداث الطارئة  
والتحولات الفجائية في الانحاء وانتهازية الغفلات والجهود ، يؤلف هذا الاستمرار في التوسع

وهذا التقدم شبه المتواصل في القوة والسيطرة ميزة الجمهورية الرومانية . وقد يستهويننا اللجوء الى تفسيرات شتى اكتفى بها اكثر من مؤرخ قديم : حظ روما ومصيرها الذي اعدت بموجبه لان تصبغ امبراطورية. ولكن معاصرين كثيرين يمتقدون ان هذه التفسيرات انما تحفي عجزنا عن تبيان تسلسل الاسباب والنتائج تبياناً منطقياً . ويجب الاعتراف بان واحداً لا يستطيع التباهي بايضاح حدث تاريخي على مثل هذا الاتساع كما يجدر الايضاح ، وان المجازفة في الاشارة الى بعض الاسباب العامة التي ادت الى هذا النجاح تقود خصوصاً الى وعي عدم كفايتها . ولكن هل يجب ان يثننا هذا الاعتراف الضروري عن محاولة التحليل ؟

التنظيم التقني  
للسياسة الخارجية

ليس واقع الجمهورية الفاتحة بالظاهرة النادرة : فقد اعطتنا المدن اليونانية اكثر من مثل عن ذلك . ولكن جمهورية تكرس في سبيل الفتح جهوداً بمثل هذا الاستمرار ، رافضة التنازل ابداً عن مكسب حققتة ، وعاندة بنجاح ، باستثناء الهزيمة النكراء التي انزلهاها الفارتيون في « كار » ، في تدارك الهزائم التي تمنى بها ، لشذوذ تاريخي هو اقرب ، في الحقيقة ، الى المغالطة السياسية .

قبل الشروع بتحديد الميزة الحقيقية للنظام الجمهوري في روما ، يجدر بنا ، بغية الاقلال مما يثيره هذا النشاط الذي لا يعرف الكلل من دهشة وحيرة ، ان نلفت النظر دونما ابطاء الى ان السياسة الخارجية لا تقررها في الواقع جمعية المواطنين ، واذا كانت استشارة الجمعية امراً واجباً لاعلان الحرب وفاقاً للانظمة ، واذا كان قرارها نافذاً ، فان الحكام يعرفون كيف يدبرونها . فحين رفض الشعب ، بعيد نهاية الحرب البونيقية الثانية ، ان تملن حرب جديدة على الملك المقدوني ، احوالوا القضية للمناقشة مرة اخرى وحصلوا هذه المرة على اكثرية الاصوات . وليس هذا كل شيء : فبعد الاقتراح على اعلان الحرب ، رأت الجمعية نفسها محرومة من الصلاحيات حتى اليوم الذي دعيت فيه للموافقة دون مناقشة على معاهدة الصلح التي وضعت نصوصها على غير معرفة منها ؛ وليس لدى الشعب في هذه الاثناء سوى وسائل غير مباشرة ، وغير حاسمة على العموم ، كانتخاب القضاة الجدد مثلاً ، للاعراب عن اشمئزازه .

تعود ادارة السياسة الخارجية في الحقيقة الى مجلس الشيوخ ، أي الى هيئة مختصرة انتخبها ابعده من ان يتصف بالديموقراطية . يستقبل هذا المجلس السفراء الأجانب ويملي عليهم الأجوبة التي يتلقونها ؛ ويعين السفراء الرومانيين ويعطيهم التعليمات . ويتدخل في توزيع القيادات على القضاة ، ويحدد أهمية القوى العسكرية او البحرية والمبالغ التي توضع تحت تصرف كل قاض من القضاة . وأثناء العمليات الحربية يتلقى تقاريرهم ويبلغهم مقرراته . يناقش مشاريع المعاهدات ويوقد حلياً ، لأجل تطبيقها ، مفاوضات يشتركون في ذلك مع القائد المنتصر .

ليس من ثم ما يشبه الوضع في كل من الجمعية الشعبية والمجلس في الديموقراطيات اليونانية . فبدلاً من أن تخضع السياسة الخارجية لمقررات ، غالباً ما تكون مرتجلة ، يليها حماس الشعب

ورأسه وهواه، تتعلق هذه السياسة بجهاز يسهل على أعضائه الذين يناهزون الثلاثمائة ان يديروها بطريقة فضلى . ولا ينتمي هؤلاء الى مجلس الشيوخ إلا بعد تلقي تربية معينة . ومن حيث انهم يحتفظون بمصويتهم مدى الحياة ، فانهم يوسعون خبرتهم ويستطيعون السير بموجب فكرة أو تقليد . ولما كانت المعلومات الضرورية تتوفر لديهم ، فإنهم يتمكنون من التوفيق بين المشاريع ووسائل العمل . هذه كلها امتيازات تقنية جلية عن تنظيم الديمقراطية اليونانية ؛ وهي تتيح أن ندرك ادراكاً أفضل أمتن ادارة السياسة الخارجية .

بديهي على كل حال ، ان هذه اللوحة تفتقر الى تصحيح في مراحل العهد الجمهوري المختلفة . ثم ان القوانين أبعد من ان تطبق زمنياً طويلاً تطبيقاً كلياً الانتظام ، ولا تبقى ، على الأخص . قرونًا عديدة دون ان تتطور . ولا يبرز سلطان مجلس الشيوخ المطلق حقاً الا إبان الحروب الحاسمة ضد دول ما وراء البحر الكبرى ، قرطاجة والملوكيات الهلينية في القرنين الثالث والثاني . وقد يحدث في هذه الظروف نفسها ، ان تصرف الآلة ، وعلى الرغم من ان التقليد الذي وصل الينا بصدد العهود القديمة غير جدير بالثقة نفسها ، فان توزيع الكفاءات في السابق لا ينطوي ، على ما نعتقد ، على فروق جوهرية . ولن تحدث تبدلات هامة الا في عهد لاحق ، ابتداء من اواخر القرن الثاني . فتقوم إذ ذاك جمعية المواطنين ، بتأثير قادة حازمين ، حتى في حقل السياسة الخارجية ، بمبادرات يضطر مجلس الشيوخ ان ينحني أمامها . وقد حدث خصوصاً ان استثمر بعض قادة الجيش حظوتهم لدى الشعب او أقله لدى الجنود ، فشققوا عصا الطاعة على مجلس الشيوخ . فسار التوسع الروماني من ثم سيراً أشد اضطراباً لأن من شأن تهوّر الشعب وحرية العمل التي يحصل عليها القادة ان يدفعها بهذا التوسع الى الامام .

المها كان من فاعلية إحكام وسير النظم السياسية لتنسيق وايضاح التوسع ،  
الأسباب العميقة  
فإن المعضلة الحقيقية التي يثيرها هذا التوسع تنحطها كليها . وان ما مهم  
للاستعمار الروماني  
تبيانها في الحقيقة هو الأسباب التي وجّهت الحكام نحو فتح يبدو انهم لم  
يضعوا له حداً حتى اواخر الجمهورية ، لا بل بعدها بقليل أيضاً . والمقصود هنا هو غير الأسباب  
التي أدت الى كل من الحروب المتعاقبة التي جروا إليها روما جراً : وكلما بدت هذه الأسباب  
بوضوح ، بدا أنها مرتبطة الى حدّ بعيد بالمكان والزمان وبعض الرجال . لا بل ان ما  
يستهوينا اكتشافه ، بالنسبة لهذه النزعة المستمرة ، أو بالنسبة لما يجب اطلاق اسم «الاستعمار»  
عليه بعد ان نزرع من هذا التعبير المستلزمات التي أضافها اليه تطور العالم المعاصر ، هو الاسباب  
الدائمة ، بما فيها ، وربما في الدرجة الاولى ، تلك التي لا يعيها الممثلون الزائلون وعياً كاملاً .  
بيد ان المؤرخ يشعر ساعثذ بكثير من التواضع بنقص وراككة ما لديه من وسائل تحليل .

ان بعض التفسيرات التي قد تقنع في حالات اخرى يجب اقصاؤها في الحالة التي تعيننا .  
فستندائنا لا تجيز لنا البتة مثلاً التفكير بضرورة ملحة اوجدتها كثافة السكان ؛ ولا يبدو ان

روما قد لمست وجوب توسيع « نطاقها الحيوي » ، وان تأسيس مستعمراتها الاولى ، وهو متأخر نسبياً على نقيض ما جاء في التقليد ، انما كان استجابة لاهدافها العسكرية قبل ان يكون معالجة لمعضلة تزايد السكان . وليس كذلك ، طيلة القسم الأكبر من هذه القرون الخمسة ، من معضلة اقتصادية او من معضلة اجتماعية من شأنها ان تحمل روما على البحث عن حلها بواسطة الفتح : فلم تبرز مثل هذه الاسباب الا بعد ذلك بزمن ، اي بعد ان اثارها الحروب السابقة . وليس ايضاً من نظام سياسي او اجتماعي يحل في المرتبة الاولى طبقة يؤلف المحارب فيها نموذجاً مثالياً ويتلقى تربية ادبية وطبيعية توجه بالترفضيل الى الحرب : وقد نبحت دون جدوى في عهود روما الاولى ، باستثناء بعض الاشخاص النادرين ، عن بطل الملحمه الهوميروسية الذي ينزع الى المجد وملذات الحياة المادية ، او النبيل المغامر - الذي عرفته اليونان في عهدها القديم ايضاً - المستعد لكل شيء في سبيل ارضاء طموحه الى السلطة . وليس هنالك اخيراً اي اثر للحرب عقائدية : فان روما لم تفرض يوماً لا تنظيمها ولا ديانتها . وقد جاز لها الاعتقاد احياناً ، كجمهورية ، بان الملوك يمتقونها بسبب ذلك ويستهدفونها باحلافهم . ولكن شييون لم يكن كاذباً حين اعلن باسمها انها ليست ساعية لقلب الملكيات . اجل لقد اظهرت ، كجمهورية محافظة ، مزيداً من العداوة المستحکم للنظم الثورية ، ولكنها قد انتهت راضية اكثر من مرة الى الاتفاق معهم ، مكنتية بمحاولة ابقاء العدوى .

بيد ان هذا الاستعمار لا ينجو بالكلية من الاسباب العامة التي خلقت قبله أو بعده ، اسباباً أخرى عديدة . ولن يعترض أحد على ذكر الطمع بينها : فمن حيث أن الشعب الروماني شعب فلاحين فانه قد طمع في أراضي جيرانه لا سيما حين تكون اكثر خصباً او افضل استثماراً . ومن حيث انه استوطن اقليماً ترق فيه بعض الطرق ، فإنه قد صمم على الاحتفاظ بمكاسب حركة التجارة عليها وعلى زيادة هذه المكاسب . وقد صمم ايضاً على الحصول بسهولة على بعض المواد الخام . ولكن لهذا الطمع البدائي حدوده ؛ ويبدو ان مثل روما لا يجوز معه التراجع أمام تفسير لا يخله عادة في المركز اللائق به . فيبدو في الحقيقة ان روما لم تخضع لجاذب المكاسب الفورية خضوعها للخوف الذي اثار في كل زمان حروباً يفترها كل من الخصوم ، بسلامة طوية تامة ، كحروب دفاعية حيث يعتبر وجوده بالذات مهدداً ، وحيث غالباً ما يشكل هذا الوجود ، في الواقع ، الهدف الحقيقي . واننا نلص ، في روما الجمهورية ، هذا الشعور المتزايد والحاد جداً في اليونان - الكلام عن العصور القديمة - بأن سلامة دولة من الدول تترتب للخطر بمجرد قيام دولة أخرى مجاورة اذا ما بذت قواهما متعادلة أو بمجرد احتمال تحالف لا تكون هي أحد اطرافه ، اذ ان حرصها على المحافظة على استقلالها يدعوها الى القضاء على استقلال غيرها . فالحروب ، من ثم ، والفتوحات ، اذا أمنت الحروب النصر ، يستند بعضها الى بعض ، لأن توسع ممتلكاتها يضاعف الواجبات الدفاعية وظروف الصراع .

فيجد الاستعمار في مكاسبه نفسها مبررات لا تقهر لنقل مطامعه باطراد الى آفاق أبعد ، بحيث لا يكون له حدود بالتالي سوى حدود الأرض المأهولة .

الأسباب الثانوية  
ليس من المناسب هنا التبسط في هذا التفسير . واننا نسرع الى القول ، بالإضافة الى ذلك ، انه اذا كان تاريخ الفتوحات الرومانية ، حتى آخر الجمهورية وأبعد من ذلك ، غنياً بالأمثلة الخليقة بتأييد هذا التفسير ، فإن عوامل أخرى تفعل فعلها أيضاً ، مطردة القوة والتنوع ، لاسيما انطلاقاً من القرن الثاني . ولكنها عوامل ثانوية .

فهناك التيه الروماني، وهو راسخ في القدم ، أو غير حديث العهد على كل حال ، ويسفر عن نتائج متنوعة جداً . أجل انه لا يدفع دفعاً مباشراً الى التوسع حين يسهم في الهام ذلك العناد الجروح الذي أعطى عنه الحكام والشعب بكلتيه البراهين الكثيرة في وجه أشد الصعوبات تعقيداً ، أمام الغالين وأمام هنيبعل على السواء . ولكنه بعد ذلك بزمن ، ازداد بفعل الانتصارات المتواصلة العظيمة فأدخل في نفوس الجميع - أو في نفوس الاغلبية ، إذ ان شيبون اميليانوس الذي فكر في انه ليس من قوة دائمة وان وطنه سيرف يوماً من الأيام المصير نفسه ، فبكى على أطلال قرطاجة التي كان قد هدمها - ثقة لا حد لها في مصير روما ، هي الكفيل بنجاح جميع مشاريعها . ولو جاز للمؤرخ نسيان المعنى الخاص الذي ينطوي عليه التعبير في تاريخ اسرائيل ، لأمكن القول ان الشعب الروماني انتهى الى الاعتقاد انه الشعب المختار أيضاً . وان هولس انه الأقوى ، فلا يثير فيه ذلك أية دهشة لأنه يعتبر نفسه أعظم الشعوب عدلاً وفضيلة وتقوى . وهذه كلها افضليات تبرر في نظره الهبات التي تقدمها عليه الآلهة . ولكنها كلها دوافع لإقناعه بأن أي شعب آخر لا يستطيع ولا يجب ان يقف في وجهه . وقد أصبحت روما « المدينة » بالذات ، التي ألقيت على عاتقها رسالة اخضاع العالم والتي تخضعه بالاقتصاص دون شفقة من العصاة بممارسة حق المنتصر بكماله في هدم قرطاجة وكورنثس في السنة ١٤٦ ، ونومانس ( Numance ) في السنة ١٣٣ .

وهناك أيضاً ، في الوقت نفسه ، شهوة الذهب ، والبؤس ، وكلاماً قد زادها أو أوجدها الفتح الذي قلب الاقتصاد والمجتمع . فان رجال الاعمال الجشعين يبتغون استثمار نطاقات جديدة ، والجنود غالباً ما يبتغون حروباً جديدة تؤمن لهم الغنائم والمكافآت . وبفعل مصادر ثروات العدو وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين وأعطيات الحلفاء المتلقين الى القوة والجزى السنوية التي تدفعها المقاطعات ، بلغت أرباح الاستعمار درجة حصلت معها عامة الشعب على قسطها من سخاء الدولة ، وساندت بحماس سياسة تؤمن لها مثل هذا الكسب . وقد تجاوز بعض رجال الدولة أنفسهم من ذوي الشأن هذه الأثنية ، فارتأوا أحياناً ان الحرب والفتح قد يساعدان على معالجة صعوبات داخلية ، اما بخلق عملية إلهاء وإمساك بزيادة الموارد المالية .

وهناك أخيراً انفلات الأطماع الفردية . استحق النصر أبداً للقائد ، إذا كان حاسماً في نظر مجلس الشيوخ ، مجد « موكب النصر » ، وهو احتفال موروث عن الاتروسك ، يرتدي فيه الرئيس المنتصر الحلة البرفرية المطرزة بالذهب ، ويصنع وجهه بلون أحمر ، ويحمل تاجاً ذهبياً ، ويمسك بالصولجان ، ويمثل جوبتير نفسه ، ثم يصعد الى عربة يتقدمها موكب المغانم المستولى عليها ، ويسير وراءها جنوده مدججين بالسلاح حتى معبد جوبتير الكابيتولي . ولكنه عند نهاية الاحتفال يبرهن عن خضوعه للأنظمة الجماعية ، ويعود الى صفوف أمثاله متحلياً بسمعة خادم الدولة الأمين . بيد ان عدوى الأفكار والعادات الهلينية ، من جهة ، والامكانات التي توفرت للرجل الماهر والقوي بفعل انقصاص التوازن الاجتماعي القديم وتخلخل النظام السياسي ، من جهة ثانية ، قد اعطت قوة فائقة للجاذب الذي توحيه القيادات العسكرية الكبرى . فان ما تستطيع ان توفره منذ الآن هو المجد الذي يسحر الجماهير ، وهي الثروات التي يشترى بواسطتها التفاني ويزيد عدد الزين ، وهم الجنود الذين يرون فيه حبيب الالوهة ويقررون له « موكب النصر » قبل ان يبدي مجلس الشيوخ رأيه ، ويتخذون المبادهة - ويعود اول مثل أكيد عن ذلك الى السنة ٢٠٩ - ويعلنونه امبراطوراً في ساحة الوغى ثم يصبحون مستعدين ، بعد انقضاء قرن ، لأن يسيروا وراءه حتى في الحرب الاهلية . فخلق الفتح الظروف المادية والادبية للفوضى الداخلية ودفعت الفوضى بدورها الى الفتح . وأعلنت بعض الحروب ، دوئياً تقييد بالاصول الدستورية ، سعياً وراء النصر ووسعت الامبراطورية سعياً من القائد وراء ربط اسمه باخضاع اقاليم جديدة .

مقاومات سريعة الزوال  
دون جدوى

لم تحدث طفرات الاستعمار هذه دون ان تصادف مقاومة . ولكن المقاومة ، بعد كل حساب ، كانت هزيلة ودون جدوى .

فقد حارب كاطون (Caton) القديم فساد الاخلاق الذي جرّ اليه مثل الشرق اليوناني ، كما حارب تحرر زعماء الجيش واختلاساتهم . ولكن عمله الشخصي ، العسكري او الدبلوماسي ، في اسبانيا واليونان على السواء ، وعناده في محاربة قرطاجة ، يبرهنان ، بما فيه الكفاية ، مع ذلك ، انه لا يذهب من المعلول الى العلة لاقتناع مواطنيه بالاعتدال . وحين ذرف شيبليون اميليانوس ، في السنة ١٤٦ ، الدموع السخية امام اطلال قرطاجة المحترقة ، لم يحمله ذلك قط على كبح غضبه وعنفه ، اذ انه قد برهن بعد ثلاثة عشر سنة عن عزم مماثل لا يعرف للشفقة معنى في حصار وهدم « نومانس » في اسبانيا ، اما التقليد الذي يعزو اليه قوله « ان وضع الشعب الروماني سليم وعظيم » والذي يفترض فيه الحشية من توسع لاحد له لم يبرز الى حين الوجود إلا بعد ذلك بزمن ، حين نزل الامبراطوران الاولان ، اوغسطس (Auguste) ثم طيباريوس (Tibère) ، عند الضرورة الملحة باعتماد سياسة دفاعية فقط .

اتخذ مجلس الشيوخ ، حتى في النصف الاول من القرن الثاني ، تدابير عنيفة حقاً وغريبة عن كل تصميم متلاحم ضد اساءة استثمار رجال المال للفتوحات . ففي السنة ١٦٧ مثلاً ، حينما شعر

بعجزه عن مراقبة سوء تصرفهم في ممتلكات الدولة ، اذا ما ثبتوا اقدامهم فيها ، آثر ان يحظر كل عمل في هذه الممتلكات ، اعني بها مناجم المعادن الثمينة والاملاك الريفية والحرجية التي انتقلت الى روما ، بعد سحق الملك « بيرسا » ( *Persée* ) ، في مقدونيا . ولكن اشمزازه الظاهر من بروز طبقات اجتماعية جديدة لا يمنعه من ان يوعز ، او اقله من ان يقبل بالزاعات العظمية التي تفتح امام مستقبل روما آفاق الامبراطورية المتوسطة . ولسنا نلصق اي اعتبار اقتصادي له وزنه في اسباب الحربين البونيقيتين الاوليين او الحروب ضد الملكيات الاتيفونية والسالوقية . وعلى الرغم من ذلك فان هذه الحروب قد اندلعت واعطت ثماراً طيبة : فقد كسبت روما في الاوليين ، منذ القرن الثالث ، صقليا وسردينيا واسبانيا ، كما أسفرت الحروب الاخيرة ، في ثلاثين سنة ، من السنة ١٩٧ حتى السنة ١٦٨ ، عن بسط سيطرتها على الشرق الايجي .

وقد اعار مجلس الشيوخ نفسه ، من جهة ثانية ، اذنأ اكثر اصغاء الى نداء المصالح . فان رؤوس الاموال الموظفة في افريقيا في ايام جوغورثا *Jugurtha* ولا سيما في الشرق في ايام ميثريدات *Mithridate* ، رومانية كانت ام ايطالية ، اعظم واكثر تفرعاً ايضاً ، حتى بين مجلس الشيوخ ، من ان يقدم هذا الاخير على اهمالها . ولكن اين يقف الدفاع عنها و اين تبتدىء المساعدة المقدمة للمشاريع الجديدة ؟ فقد اصبح محتوماً على التوسع العسكري ، في القرن الأخير من العهد الجمهوري ، وباعتراف مجلس الشيوخ ، ان يخدم اكثر من مرة التوسع الاقتصادي .

وكذلك فان الشكوك الطبيعية التي يثيرها الرجال « المتفوقون » في ارستوقراطية مجلس الشيوخ قلما توصلت الى شل عمل هؤلاء الرجال . فمنذ عهد مبكر ، اي منذ الحرب البونيقية الثانية ، لمست هذه الارستوقراطية الخطر الذي يشكله الزعماء المنتصرون ، المتمتعون بتعلق الجماهير المتحمسة والواثقون من اخلاص جيوشهم ، على الانظمة الجمهورية ، اي عليها هي بالذات . ولكنها لا تتوانى ، حتى بالانتقاص من الشرعية ، في اللجوء الى مواهبهم حين تدعو الحاجة الى ذلك ، سعيدة جداً اذا ما استطاعت اذ ذاك وضع ثقتها في شيبيون اميليانوس مثلاً . وكثيراً ما ترتكب الاخطاء ايضاً ، بفعل الكلل او العمه ، كما حدث لها حين اسندت الى قيصر ، الذي كان لها عليه اكثر من مأخذ ، ادارة غاليا الناربونية ، بالاضافة الى غاليا ما وراء الألب التي اسند الشعب ادارتها اليه لمدة خمس سنوات ، فقد اتاح هذا القرار المفاجيء ، لقيصر ، ان يحصل ، باخضاعه ما تبقى من غاليا ، على كل ما كان مفتقراً اليه حتى ذاك التاريخ ، اي الجهد والثروة والجوقات . اما السياسة التي غالباً ما اعتمدت في الواقع فتقوم على خلق التنافس بين ذوي الطموح ، وعند الحاجة على تسهيل بروز منافس بغية رفعه الى مصف غيره ؛ فان اختيار ت. كوينكتيوس فلامينيوس مثلاً ، في السنة ١٩٩ ، وهو ضل بن ضل قبلاً ، لادارة شؤون الحرب ضد المقدوني فيلبوس الخامس ، وابقائه في اليونان حتى السنة ١٩٤ ، يستجيبان دونما ريب للرغبة في ايجاد منافس مجيد لشيبيون المنتصر على هنيبل في السنة ٢٠٢ . ولكن

مثل هذه المنافسات ، التي لا تخرج لها احياناً سوى الحرب الاهلية ، - ماريوس وسيلا ، وبومبيوس وقيصر مثلاً - تؤدي الى السرعة في التوسع لا الى الحد منه ؛ اما مثل مصر فمثل شاذ اذ ان ضمها ، الناضج منذ زمن بعيد ، لم يتحقق في ايام الجمهورية لان من شأنه ايقاظ المزيد من المطامع وجعل من يحققه على جانب كبير من القوة .

تناقض رومن بديهي ، في مثل هذه الظروف ، ان السياسة الخارجية لروما الجمهورية لا تنطوي ، اذا ما نظرنا اليها في جزئياتها ، على استمرار العظمة الذي توحيه اليها نظرة سطحية . ويبدو مغريباً ان نعزو اليها المخططات العميقة المدروسة والاساليب التي يحسن فيها تعيين مقدار العنف والحيلة . فقد طاب لبوسويه ( Bossuet ) مثلاً التأكيد بأن الرومان « أرادوا ان يخضع لهم كل شيء ، وهدفوا في الحقيقة الى اظلال جيرانهم أولاً والعالم كله ثانياً في فيء شرائعهم » . ويطيب لأكثر من مؤرخ معاصر ، في كلامه عن دبلوماسيتهم التي قد يستهدفها « الخطاب حول التاريخ العام » من زاوية مرتفعة جداً ، والتي يفرض احترام وقائنها على علماء البحث فحصاً أكثر دقة ، ان يفكر بصددها بكلمة « ما كيا فيلية » . ولكنه يصبح من العبث حينذاك تبيان المنعطفات والمنعرجات ، المدهشة في أغلب الاحيان ، التي تصفها ، اذ ان تأثيرات جماعية وفردية كثيرة تفعل فيها فعلها .

والحقيقة هي ان الحكام الرومانيين يخضعون احياناً للاقدام والمجازفة ويستسلمون احياناً أخرى الى كل تراخ مخز . وقد يرتكبون اخطاء جسيمة في التقدير لأنهم لم يحصلوا على نعمة العصمة في إدراك الامور قبل وقوعها من أية عناية إلهية ، وقد يخشون شيئاً تأفهاً او يقللون من أهمية الاخطار التي يسهل اليوم ، بعد ان عرفنا ما صاروا اليه ، تبين نشأتها والظروف المؤاتية ، المهمة ، لازالتها دون كبير جهد . يتوجب عليهم توزيع امكانات عنايتهم بين مصالحهم الشخصية الكثيرة والمخطط العام لسياستهم الداخلية والخارجية والحوادث اليومية التي تعرقها او تهتكها . ويتطورون تطوراً لاواعياً ، من جيل الى آخر ، ولا يتوصلون ابدأ الى تحقيق التضامن الكامل في جيل واحد . فهم بالاختصار رجال كسواهم ، وهم ، اذا حصرنا الكلام عن الهيئة التي تنهض بأثقل مسؤولية واطولها مدى ، جمعية مؤلفة من ٣٠٠ رجل يمتد عملها الى عدة قرون ، ولا يجوز إهمال ما تستلزمه هذه التحديد من انهيار وتناقض وتردد وتقصير .

بيد ان عملهم حقيقة واقعة ، ولن يرضى أي رجل عاقل بنسبته الى المصادفة فحسب . فيجب بالتالي الاقرار بصفات الاداة العسكرية التي توفرت لروما ، وهي في الحقيقة صفات نادرة تحلّي بها بعض القادة وبرزت في بعض العهود .

## ٢ - الشؤون العسكرية

من الاعتبار ان تحقر اعداء روما . فدونما حاجة بنا للعودة الى نشأتها الكوارث العسكرية الوضعية ، يجب علينا التذكير بانها ، حتى بعد ان تجمعت لديها الوسائل

الكثيرة والقوية ، غالباً ما واجهت اعداء لا يستهان بقوتهم .

ولعل من المغالطة الظاهرة القول إن اسهل هذه الحروب الهامة عليها تلك التي واجهت فيها اكثر اعداء امجاداً ، اي الملكيات التي تأسست بعد فتح الاسكندر ؛ فاذا ما ابدى الجيش المقدوني القومي مقاومة تذكر ، اقله في العمليات التي سبقت معركة «سينوسيفال» و«بيدنا» الحاسمتين ، فقد انهارت سلطة السلوقي انطيوخوس الثالث «الكبير» في مغنيزيا بعد حملة لم تكن للجوقات الرومانية سوى مسيرة طويلة انطلاقاً من شواطئ الادرياتيك حتى بلاد ليديا. وفي الواقع فان الجيوش الهلينية التي لم يكن على رأسها قادة من امثال فيلبوس الثاني او الاسكندر قد اصيبت بالجمود منذ قرن ونصف . فقد كانت تعيش على امجاد ماضيها .

بيد ان اعداء آخرين كثيرين ، بفضل نجابة احد القادة او عناد الشعب ، قد صمدوا صموداً طويلاً امام روما وانزلوا بها هزائم مدوية كان من ضرور المعجزة احياناً ان تستعيد قواها بعدها . وليست هزيمة كانا *Canes* سوى اخطر هذه الهزائم بسبب فداحة الخسارة فيها ، التي تقدر ، وفقاً لافضل ما لدينا من مصادر بـ ٧٢٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠٠ اسير من اصل ٨٦٠٠٠ جندي اشتركوا في المعركة تقريباً . وكانت «كانا» ، في اقل من سنتين انتصار هنيئيل الرابع ا واذا ما رجعنا الى تاريخ الجمهورية العسكري واستعرضناه من اوله الى آخره ، يتضح لنا انه يقدم لنا لائحة طويلة من النكبات كان بعضها مخزاي حقيقية كما حدث في اسبانيا امام «السلتيير» في «نومانس» ، وفي افريقيا امام «جوغورثا» ، وفي «اورانج» امام «السمبر» و«التوتونز» .

اما ما يدعو الى الاعجاب ، بقدر ما يدعو اليه التصلب ، فهو المرونة وقابلية التكيف الدائم التي يبرهن عنها هذا التاريخ . فمن النادر ان تبتدىء حرب بانتصارات صاعقة ؛ قد تكون روما غير مستعدة في الوقت اللازم ، وقد تكون تأخرت في نقل قواها الى الساحة القتال او أسندت قيادتها الى قائد ضعيف او أخذت على حين غرة بأساليب عدو او بلاد لم يسبق لها ان خبرتها خبرة كافية . ولكنها بسرعة متفاوتة ، تحسن تنظيم مجهودها وتكتشف الرجل الكفء وتدخل الاصلاح على تسليحها وتبتكر وتعتمد ستراتيجية او خطة جديدة ؛ والفارتيون هم الوحيدون الذين سدوا عليها جميع هذه الابواب - ولم تنجح الامبراطورية نفسها ، بعد الجمهورية ، في فتحها .

ابدى بوليب ، الواسع الاطلاع وذو الاختصاص . والشغف بالفن العسكري ، الملاحظة التالية : «تفوق الرومان على كل شعب آخر في معرفة تغيير عاداتهم واستبدالها بافضل منها» . وقد قصد بذلك الاقتباسات التي كانت في الواقع كثيرة ومتنوعة ؛ كاقباس الترس المحدث على استطالة عن الغالين ، واقباس «البيلوم» عن «السمثيين» ، وهو قطعة حديد ضامرة مثبتة في ساق من الخشب خفيفة الوزن بحيث يستطيع كل جندي ان يحمل منها اثنتين ، ومتوازنة ، على

الرغم من طولها البالغ مترين تقريباً ، بحيث يمكن القاءها باليد على جيش الاعداء ، واقتباس الخنجر القصير ، الصالح للاستعمال حاداً وشفراً ، عن الايبيريين ، واقتباس اسلحة الفرسان ، الرمح ذي الحدين المعدنين والدرع والترس المتين عن الاغريق ، واقتباس الآلات الحربية الثقيلة عن الاغريق ايضاً وعن القرطاجيين . ولما كان الرومان يجهلون في البدء كل شيء عن شؤون البحر ، فقد طلبوا الى مجاريهم ، في اول الحرب البونيقية الاولى ، ان يمثّلوا صناعة مركب كبير من مراكب الاعداء وقع في ايديهم . وقد استخدموا ، على غرار الجيوش القرطاجية والهلمنية ، وحدات من المرتزقة والحلفاء الذين يحتفظون بأسلحتهم واساليبهم القومية في المعركة : فرساناً نوميديين اتاحوا لشبييون التغلب على هنيبعل ، ونبالين كريتيين وبالياريين استخدمهم قيصر حتى في شمالي غاليا ، وفرساناً غاليين ، ثم فرساناً جرمانيين ابان انتفاضة فرسنجيتوريكس *Vercingétorix* الكبرى . لا بل انهم غامروا ، دونما افادة كبرى على كل حال ، بان احضروا الى اليونان وآسيا فيلة حرب تسلموها من قرطاجة المغلوبة على نفسها .

ولكن بوليب قد شدد ايضاً ، في البحث الشهير الذي كرسه للجيش الروماني ، على بعض صفاته المميزة . فامتدح بنوع خاص روح التنظيم التي كانت تتجلى في عمليتي التجنيد والتعبئة ، والحرص على ان لا يتوقف الجيش ، حتى ليلة واحدة ، دون ان يشيّد له معسكر نظامي ويحاط بخندق ومنحدر وحصانك ، واليمين التي يقسمها الجنود في بدء كل حملة ، وقوة النظام التي تميزها العقوبات الصارمة بما فيها القرع والموت ، حتى النصف الاول من القرن الثاني ، والمكافآت ، تيجاناً واوسمة واسلحة شرفية ، التي تبهن للمواطنين ان حاملها قد اتى مأثرة من المآثر . وكما كنا نود في الحقيقة معرفة ما اذا كان كل ذلك ينسب الى الرومان ام يعود الى عادات مشتركة بين شعوب كثيرة من شعوب ايطاليا الوسطى ، ولكن رغبتنا ابعد من ان تلقى اجابة أكيدة .

بيد ان تأكدنا بزيادة بصدد التحسينات التقنية التي تكفي بعض الامثلة عنها للدلالة على ان الرومان لم يقتصروا على الاقتباس من شتى الجهات . فقد استطاعوا مثلاً اكتشاف علاج مؤقت لتلثافي سوء خبرتهم البحرية الذي حال دون قيامهم ببناء سفن خفيفة وسهلة القيادة على الرغم من اقتباسها عن سفن قرطاجة : فابتكروا ، لهذه الغاية ، « الغربان » ، وهي كلاليب كبيرة تؤلف جسراً ضيقاً ، وتجمد سفينة العدو بسقوطها عليها وتحول المعركة البحرية ، بفعل اقتراب السفينتين الواحدة من الاخرى ، الى معركة برية . وهكذا ايضاً فانهم قد مارسوا فن حصار نظامي وثابت كثيراً ما انطوى على اجهزة هائلة للإحاطة بالمدينة المحاصرة ، وليست عمليات حصار قرطاجة ونومانس على يد شبييون اميليانوس وحصار « أليزيا » على يد قيصر سوى اشهر الامثلة المعروفة فقط : فالهجوم النهائي بالتالي ، حتى اذا ما بدا ضرورياً ، لا يقرر الا بصورة مضمونة النتيجة على محاصرين انهكتهم الجماعة . وهكذا ، وبنوع خاص ، فانهم قد كيفوا وحدتهم العسكرية التقليدية ، اي الجوقة .

أداة الانتصارات الحاسمة :  
الجوقة في اوائل القرن الثاني  
بفضل « بوليب » و « تيت - ليف » ، نحسن اليوم معرفة الجوقة في  
اوائل القرن الثاني . المرونة هي صفتها الاولى ؛ ويقوم النجاح الذي  
جعل من الجيش الروماني اول جيش في العالم ، في انه حصل على هذه  
المرونة دونما إضرار بالصلابة .

تبرز هذه المرونة في ضآلة مجموع افراد الجوقة ، - ٤٥٠٠ رجل في ظروف التجنيد العادية ،  
و ٥٣٠٠ عند الحاجة - مما يسهل قيادتها ، في حال ان ليس هناك ما يمنع ضم هذه الوحدة  
الاساسية الى وحدات أخرى .

وتبرز في تنوع الجوقة الداخلي . فهي تؤلف جيشاً صغيراً قادراً على المحاربة مستقلاً عن  
غيره . ويمثل مشاة المهجوم فيها ، ويتراوح عددهم بين ٣٠٠٠ و ٣٨٠٠ رجل ، قوة القتال  
الاولى . ويستخدم المشاة ، المسلحون بأسلحة خفيفة والبالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، في المناوشات  
الاولية ، فيحاولون زعزعة قوة العدو قبل الاصطدام الذي يتوارون عند حصوله . وتضم  
الجوقة اخيراً ٣٠٠ فارس يشكل عددهم الضئيل ضعف الجوقة الوحيد .

وتبرز في تجزئة وحدة المشاة الحقيقية . اجل لا شك انها قد حاربت في البدء مؤلفة كتيبة  
متراسة . ولكنها توزعت الآن الى ثلاثة خطوط . وحل الرمح في أسلحة جنود الصف الثالث  
محل « البيلوم » ، وهؤلاء اقل عدداً من جنود الصفين الآخرين ولكنهم أكبر سناً وافضل تمريناً  
ويلعبون دور الاحتياط .

وتبرز في تقسيم كل من هذه الخطوط الى عشرة افواج وعشرين كتيبة . اجل قد يكون هذا  
التقسيم قديماً ، بيد ان المؤرخين المعاصرين يذهبون اليوم الى التأكيد ان تنظيم الافواج قد تحدد  
نهائياً ابان الحرب البونيقية الثانية . تحتل الافواج مراكزها محتفظة بمسافات معينة بين بعضها في  
الخط الواحد وتنظم في الخطوط الثلاثة مؤلفة ما يشبه رقعة الشطرنج ، فيدخل كل صف المعركة  
في الوقت اللازم ، دونما تشويش ، ويتصرف كل فوج وفقاً لمقتضيات الظروف وينتقل لمساندة  
جيران يبدو عليهم الوهن او لاستثمار شجون ساحة المعركة ونقاط الضعف في جبهة العدو .

وتبرز اخيراً في الفرد نفسه الذي ينتمي الى الجوقة . ويشدد بوليب ، في صفحة شهيرة  
أخرى يفسر فيها تفوق هذه المجموعة الحسنة التوزيع على الكتيبة المقدونية الجامدة ، على سهولة  
الحركة وعلى المبادأة المتروكتين لكل جندي . فانتصارات الجوقة هي في الحقيقة انتصارات  
كل من جنودها ايضاً الذين أفرام تعدد الحروب وتعاقب الحملات بخبرة مباشرة شخصية او  
بخبرة رفاق السلاح . ولم يحقق أي جيش قديم ، في وحداته او في رجاله ، وبالقدر نفسه الذي  
حققه الجيش الجمهوري في القرن الثالث وأوائل القرن الثاني ، ذلك التحالف الوثيق بين الصفات  
المتوسطة في جيش ممتن والصفات نفسها في جيش المواطنين المستعدين للتضحية الكبرى دفاعاً  
عن الوطن وحفاظاً على أمجاده . ولكن هذا التحالف ما كان ليديم ابداً .

أضف الى ذلك انه يجب الاشارة الى بعض النواقص حتى في هذا العهد العظم .

النواقص : الاسطول

من هذه النواقص ما لا تبرز خطورته إلا بين الحين والحين . فلا يخلو من المغالطة مثلاً ان روما قد استولت وحافظت على امبراطورية المتوسط دون ان يكون لديها اسطول حقيقي . فأوجدت هذا الاسطول ، بفضل الحزم الذي تتحلّى به والاستعانة خصوصاً بمدن ايطاليا الجنوبية التي أخضعتها ، حين لمست الحاجة اليه ، في حربها ضد قرطاجة مثلاً . ولكن عليها ، منذ صراعها ضد الملكيات الهلينية ، ان تبحث - وغالباً ما تجد - عن أكثر من عضد في الشرق نفسه ، لدى بعض الحلفاء كأطال او اوفينيوس البرغاموسي وكرودوس بنوع خاص . اضع الى ذلك انها لا تتعهد هذا الاسطول بعد زوال الحاجة التي فرضت بناءه . لذلك فقد تتعرض لمفاجآت مؤلمة كذلك التي دبرها لها ميتريدات بالهجوم الذي شنه في السنة ٨٨ . وكثيراً ما تتغاضى ، حتى بتعريض قومنها للخطر احياناً ، عن تعاطف عمليات جريئة تنهض بها قرصنة تشجع ظهورها الظروف الطبيعية والبشرية في حوض المتوسط الشرقي ، كلما تراخت قوى الامن في الدولة المسيطرة . ولكنها لم تستفد من أية أمثلة . فهي تعلم ان لديها وسائل للمقاومة ، وهي تقاوم فعلاً ، ولكن في فترات متقطعة ، لأنها ترفض بذل جهد مستمر . فهي إنما تتكلم على جيوشها قبل كل شيء آخر ، على الرغم من التأخير الذي اتصفت به بعض اعمالها العسكرية ، ومن اكتفائها ، طيلة ثمانين سنة ، بتحالفها مع مرسيليا للاتصال بممتلكاتها الاسبانية ، ومن ان سيادتها على قناة «اورترانت» قد بدت لها ، طيلة فترة اطول ايضاً ، كافية لاحتلال اليونان البلقانية والسيطرة ، عن طريقها ، على الشرق البعيد . اما الاسكندر فقد كانت له اعذاره الاخرى في إهمال الناحية البحرية في ستراتيجهته وادارته الامبراطوريتين .

القيادة  
ينطوي تنظيم القيادة على سيئات كثيرة ما تكون نتائجها مأموسة . ولسنا نعي هنا صغار الضباط بن فيهم قواد المئة الذين يقودون الكتائب ويقود واحد من اثنين منهم الفوج الذي تؤلف كتيبته جزءاً منه : فكلهم مختارون بين افضل الجنود . ولكن ضمانات الخبرة المماثلة لا تتوفر في كبار الضباط . فالشبان من طبقة الاشراف يخدمون في وحدة الفرسان او في الاركان العامة ، لا في وحدة المشاة ، ومع ذلك فمن بينهم ينتقى كبار الضباط العسكريين الذين ينتخبهم الشعب او يعينهم القائد بمعدل ستة في كل جوقة . والرؤساء بنوع خاص مديونون بقيادتهم لانتخابهم قضاة .

والكلام هنا عن الرؤساء حتى في جيش واحد : فقد قضى التقليد وروح النظام السائد بان يكونوا دائماً اثنين ، كالفنصلين فيما يعيننا ، يستلمان القيادة متناوبة يوماً بعد يوم . هذه كانت الحال حتى في معركة « كانا » في السنة ٢١٦ ولم يستند الا في وقت لاحق ، وبصورة منتظمة ، الى حجة العمليات الحاصلة على جبهات متعددة في آن واحد لتلاني محاذير النظام القاضي باسناد

قيادة كل جيش الى رئيس مستقل ، ومهما يكن من الامر فان هذا الرئيس ، مبدئياً ، يستبدل كل سنة . اجل ان مجلس الشيوخ يسهر ويوجه الانتخابات ويقول كلمته في توزيع القيادات و « يمدد » اكثر من سنة ولاية القاضي الذي يرضى هو عنه ، الخ . ولكن هذه التدابير ليست سوى تدابير مؤقتة . فلما كان غريباً عن المعقول ان يسند هذا المركز اكثر من مرة الى الرجل الواحد ، حتى بعد امد طويل ، اصبح من الواجب اكتشاف قنصلين جديدين ، كل سنتين ، يتحليان بما يجعلها قائدين جيدين ، وهذه لعمرى معجزة تفوق امكانيات اي مجتمع من المجتمعات ، حتى ولو لم يكن للعوامل الأخرى اي ضلع في تعيينهم . ولا مهرب لروما من هذا القياس ذي الحدين : فأمّا تعاقب رؤساء سريعي الزوال ، وقليلي الخبرة غالباً ، وعاجرين تماماً أحياناً ؛ واما خطر الموت الذي يتمثل ، لنظمتها الجمهورية ، ببعض القادة الذين يضطرها إلحاح الظروف لأن تحلّهم مركزاً ممتازاً أو لأن تسمح لهم باحتلاله .

التجنيد وعدد الجنود الحقيقي ليست معضلة عدد الجنود ، والتطور الذي يدخله على التجنيد بأقل خطورة من هذه الظاهرة .

كل شيء في منتهى السهولة نظرياً . فإن القانون المرتكز على ما جرت عليه عادة قديمة في تسريح الجيش أثناء فصل الامطار ، ينصّ على ان كل مواطن ، ابتداء من السابعة عشرة ، يمكن دعوته الى الخدمة للاشتراك في ستة عشر حملة اذا انتمى الى إحدى وحدات المشاة ، وفي عشر حملات اذا انتمى الى إحدى وحدات الفرسان : فيختار القناصل على هوامم - وترتبط كلمة « جوقة » اشتقاقاً بمفهوم الاختيار - الرجال الذين ستألف منهم جيوشهم . أضف الى ذلك ان روما قد احتفظت لنفسها بحق طلب المجندين من جماعات الايطاليين المرتبطين بها وفاقاً لأنظمة مختلفة دون ان يتمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية ؛ وبعد التحاقهم بالجيش ، يولّى عليهم رؤساء من الرومان ، فيحاربون الى جانب الجوقات دونما انضمام فعلي إليها . أجل . هنالك نصوص محدّد ، فيما يتعلق بعددهم ، متطلبات روما المحتملة ؛ ولكن المصلحة العامة ، في حال تعرض ايطاليا لغزو مثلاً ، تسمح لها بتجاوزها . لذلك ، فان مبدأ الخدمة العسكرية الاجبارية ينوء بثقله على كافة الرجال الأحرار في شبه الجزيرة . ففي السنة ٢٢٥ ، أي سبع سنوات قبل اندلاع الحرب البونيقية الثانية ، بلغ مجموع الرجال الممكن تعبئتهم ٧٠٠ ٠٠٠ رجل ، منهم ٢٥٠ ٠٠٠ مواطن روماني تقريباً .

بيد ان هذه الاعداد الضخمة نظرية ، لأن لواقع الواجبات المالية أثره كما في المدن اليونانية ، وللأسباب نفسها : فعلى الجندي ، من جهة ، أن يتحمل نفقات سلاحه الشخصي ، أقله بتسديدها من مرتب أقرّ في عهد باكر وجعل متساوياً لجميع المشاة ؛ ويرى الاغنياء لزاماً عليهم ، من جهة ثانية ، ان يدافعوا عن ممتلكاتهم التي تعرضها الحرب للخطر ، أو انهم يبدون مزيداً من الاندفاع ، كما يسود الاعتقاد ، في الذود عنها . ولذلك فان الفقراء لا يخدّمون

إلا في الاسطول ، حين يكون هنالك اسطول ، باستثناء حالة واحدة ، تقرّ فيها التعبئة العامة التي يوجبها الاضطراب ؛ وقد واجه المسؤولون هذه الحالة ، دون ان يحققوها ، لآخر مرة ، في السنة ٢٢٥ ، حين بلغ الخطر الغاليّ الذروة . اما الآخرون فيقدمون ، بحسب ثروتهم ، مشاة الوحدات الخفيفة ومشاة الخطوط الهجومية ، بينما يؤمن الأثرياء جنود وحدات الفرسان . ولكن لما كان الأثرياء يستطيعون أيضاً الخدمة في الأركان العامة او القيام بوظائف عامة تعفيهم من التجنيد ، فان عدد الفرسان المواطنين يبقى على الدوام ناقصاً . وتقع معظم الاعباء العسكرية ، في الواقع ، كما في اليونان الكلاسيكية أيضاً ، على الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها الفلاحون الملاكون .

ومن البديهي ان هذه الطبقة ليست معيناً لا ينضب .

في الظروف العادية ، تجمع أربع جوقات سنوياً ، أي ١٨٠٠٠ مواطن ، يُضمّ إليها ايطاليون أكثر عدداً بقليل ، لا سيما في وحدات الفرسان . ولكن الحاجة قد ازدادت ابتداء من الحرب البونيقية الثانية . فبلغ عدد الجوقات ، إبان هذه الحرب ، خمساً وعشرين جوقة ؛ وليس من النادر ، بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، وحتى السنة ١٦٧ حيث يؤلف نص « تيت - ليف » آخر مستنداتنا ، ان تجمع أربعة عشر أو خمسة عشر جوقة ، غالباً ما يتجاوز أفرادها الخمسة آلاف رجل ، بينما تزداد نسبة الايطاليين حتى تبلغ ثلثي العدد الإجمالي . ولا يعني ذلك ان القوى التي تشارك في المعارك تتجاوز ، في ساحة القتال ، الأعداد التي توصلت إليها من قبل الملكيات الهلينية في النزاعات التي قامت بينها ، حيث يبلغ الجيش ٧٥٠٠٠ كحدّ أعلى . ولما كانت روما حائزة على النوعية فقد اعتبرت من العبث ان تتفوق على خصومها عددياً ؛ فليس من ريب مثلاً في ان الامبراطورية الفارسية كانت قد جمعت كتلاً تتجاوز هذه الأعداد تجاوزاً بعيداً . ولكن تعدد مشاريعها هنا وهناك وهناك ، قد اضطرها الى أن تحارب على عدة جبهات . وليس ما حظي بالمزيد من عناية روما هو نفسه ما قد يغرينا ان نعتبره اليوم أعظمها أهمية . وهكذا فانها تبقي في اسبانيا وايطاليا جيوشاً اعظم منها في الشرق الايحي في الوقت نفسه الذي تبسط فيه سيطرتها على هذا الأخير ؛ ولا يأتيها العضد اللازم سوى من الحلفاء الذين تتوفق اليهم محلياً ، لأن اقتصادها الكلي في القوى أشبه بالتقدير أحياناً . ولكن ليس تحت ذلك كبير أمر ؛ فالجهود الاجمالي ثقيل ، والحسائر ثقيلة ايضاً حتى ولو لم نستطع احصاءها .

أضف الى ذلك ، ان تحليل المعضلة الكامل لا يخضع للطرائق الحسابية لأنه ينطوي على مظاهر أخرى كثيرة . واطخطر هذه المظاهر هو تلك الصفة القاسية التي يتسم بها الواجب القاضي على الطبقة الوسطى بالاشتراك في حملات وراء البحار تدوم سنين عدّة ، دونما عودة الى البيت العائلي في فصل الامطار . وسنبتين في مكان آخر نتائجها الاقتصادية والاجتماعية . وقد

استفاد منها الحكام للحصول على بعض النتائج العسكرية . فقد نظم احدهم ، بعد « كانا » جوقتين من ارقاء متطوعين قدمهم اسيادهم للدولة يعتقدون اذا ما برهنوا عن سلوك حسن : وهذا تجديد لم يسمع به من قبل ولن يعاد اليه بعد هذه الحرب على الرغم من ان نتائجه لم تخيب الآمال . فقد أوتر فيما بعد الاستعانة بمزيد من الايطاليين وحلفاء ما وراء البحر والمرتزقة . وقبل ان ينظم العهد الامبراطوري الدفاع عن الامبراطورية بواسطة سكان الاقاليم ، فتحت روما الجمهورية هذه الامبراطورية ، على غير يد الرومان .

اصلاحات ماريوس  
ولكن هذه العلاجات لم تكن كافية . وقد نقل الينا التقليد الفكاهي حوادث ذات مغزى : في اليونان ، منذ اوائل القرن الثاني ، طلب بعض افراد الجوقات تسريحهم بالحاح ، كما اثار التجنيد للحرب المقدونية الثالثة تشكيات حادة من اختيار الرجال انفسهم اكثر من مرة . وكانت الاغريقيات يفكرن بالجيش حين حاولن ايجاد طبقة جديدة من الريفين الملاكين . وعندما اخفق مجوودهن ، لم يبق امامهن سوى حل واحد . وهذا الحل هو الذي طبقه ماريوس في قنصلتيه الاولى في السنة ١٠٧ .

اعرض ماريوس في هذه السنة عن تعيين مجنديه بفعل سلطته وقرر قبول كافة المواطنين الذين يتقدمون للانخراط في الجيش دونما نظر الى ثروتهم او الى فقرهم . فصادفت هذه الطريقة لدى جميع الطبقات الاجتماعية نجاحاً منقطع النظير بحيث انها غدت القاعدة فيما بعد : واذا بقيت الخدمة العسكرية الاجبارية واردة في القانون ، فانها لم تطبق الا في حالات استثنائية ، في الحروب الاهلية بنوع خاص . ولا مكان لمغالاة في اطراء النتائج المختلفة التي اعطاها هذا الاصلاح .

وقد تحققت اصلاحات تقنية ايضاً . فاصبح من الممكن رفع عدد الجوقات وسهل على روما الى حد بعيد تنظيم عدة جيوش في آن واحد لا سيما وانها انتهت بعد ذلك بوقت قصير الى منح حق مواطنتها لجميع الايطاليين . وفقدت الفروق في تسليح الجنود اسباب وجودها فاضمحلت ولم تعد تمكس وضعهم المالي . وامن الحلفاء والمرتزقة دون غيرهم جنود فرق الفرسان وفرق المشاة الخفيفة ، وسيخدم جميع المواطنين منذ الآن في فرق المشاة الثقيلة حيث زال التمييز القديم بين الصفوف الثلاثة ايضاً . واصبح من الضروري اضافة شعبة داخلية جديدة الى هذه الوحدة التي رفع عدد افرادها الى ٦٠٠٠ رجل : فاحدثت السرية يجمع الافواج ثلاثة ثلاثة واصبحت قادرة ، بعد ان جهزت تجهيزاً كافياً ، على ان تقوم بعمل مستقل ، حتى ولو عزلت عن الجوقة . فندت جوقة ماريوس ، بعد هذا التنظيم ، جوقة قيصر نفسه ، وقد كانت في الحقيقة جوقة كراسوس في « كار » ايضاً ، لانها وجدت نفسها دونما منعة امام نبالين يمتطون صهوات الخيول : ولكن هل كان من الممكن لسابقتها ان تبدي منعة اجدى ؟

الجندي والرئيس  
بيد ان التبديل الرئيسي كان اجتماعياً ترافقه انعكاسات اخلاقية  
وسياسية عميقة .

لم تجند الجوقات منذ ذلك الحين ، باستثناء بعض المغامرين ، الابن الفقراء الذين يستهويهم  
المرتب وامل الغنيمة بنوع خاص؛ ومن حيث ان الحياة العسكرية قد اقصت عنهم الهموم المادية،  
فانهم قد رضوا بخدمة اكثر تواصلاً خارج ايطاليا . فاصبحوا ، بعد افتراقهم عن مواطنهم ،  
جنوداً محترفين ممتازين ، ولكن دون احترام للشرائع والنظام القائم ، مستعدين لان ينفذوا  
بانقياد اعمى كل مهمة تطلب منهم ، حتى قلب الحكم ، لا يتعرفون الا الى الرئيس  
الذي خدموا تحت امرته واقسموا اليمين امامه يوم انخراطهم في الجندية والذي قادهم  
الى النصر .

ولكن يتوجب على هذا الرئيس ، من جهة ثانية ، ان يكون قادراً على اكتساب اخلاصهم .  
فقد اخفق بعض الرؤساء ، كلوكولوس مثلاً ، اخفاقاً مزرياً ، بسبب حرصهم الصارم على  
احترام النظام وبعدهم عن مرؤوسيهم وتشبثهم بسلطتهم . وبرهن غيرهم فطرياً عن الصفات التي  
تثير حماس القساة والبسطاء او عرفوا كيف يتحلون بها بعد اكتشاف سرها : الحزم عند الحاجة  
في تنفيذ المهام العسكرية ، مع التساهل المقصود ، والتغاضي عن الوسوس التي تحاصر الحيوان  
البشري بعد المعارك وخلالها ، وشجاعة القائد وطول اناته الشخصيان ، اذ يتحمل قسطه من  
المخاطر والمتاعب ، والانتباه الذي يعيره الاعمال الفردية والعدل في توزيع العقوبات والعمو  
والمكافآت ؛ وفن التفوه في الوقت المناسب بالالفاظ التي تشدد الهمة او تثير الحماس ؛ والقدرة  
على الجمع بين البساطة العائلية ، وحتى الالفة ، في اوقاتها ، وبين العظمة التي تفرض نفسها على  
الغير ؛ والسخاء والعدل في توزيع الغنائم ، والتأثير والمهارة السياسية اخيراً اللذان يمحلان  
الحكومة ، عند تسريح الجيش ، على اقطاع الجندي ارضاً يؤمن له استئثارها شيخوخة هائلة  
ينصرف فيها الى تربية اولاده . اجل لم تكن روما ، حتى ذلك التاريخ ، لتجهل مثل هذا  
الانسان ، ولكنها عرفت على غير اكمال ، او مثل شيبون الذي انخرط في مجتمع  
ورئس جيشاً لم يبلغا كلاهما من النضج ما يتيح له فرض نفسه . اما من الآن فصاعداً فكل  
شيء يساعد على تفتحه .

يمثل اصلاح ماريوس من ثم حدثاً عظيماً في تاريخ روما ، وفي عالم كامل عن طريقها .  
اوجدته ظروف الساعة الملحة ، فعد لها هو بدوره وانضم الى اسباب اخرى ليحدد المستقبل .  
اعطى الجمهورية جيشاً افضل انطباقاً على حاجاتها ومواردها فاعطته هي مثلاً جديداً للرئيس  
كان ماريوس نفسه احد نماذجِه وكان من المحتم ان يؤدي طموحه ، تساعده القوة المادية والسحر  
الآخذ من الجنود ، الى الكارثة او الدكتاتورية في هول الحروب الاهلية .

ان معضلة القيادة التي كانت في البدء عسكرية فقط ، اخذت بالتالي تزداد  
خطورة لانها اصبحت في آخر المطاف معضلة سياسية ايضاً . وليست هذه  
بين الضرورات التي خلقها الفتح ، الضرورة الوحيدة التي جهلتها روما .

عدم الانطباق  
على المهام الاستعمارية

اجل لا يسعنا ان نغزو اليها عدم مجاز الفتح الذي نهضت به اقليمياً : فقد بدأت مرحلة الاضطرابات الكبرى اكثر من سنة بقليل بعد حملات «غاليا» ، وغدت مهمة الخلف انجاز العمل المتوقع . ولكن ما كان محققاً منه قد استلزم ، للمحافظة عليه ، جيشاً دائماً لم تفكر الجمهورية يوماً في تأمينه لنفسها .

كان من الواجب المفروض عليها ، على نهر الرين وفي البلقان وعلى نهر الفرات وفي افريقيا نفسها ، ان تكون في وضع يمكنها من مراقبة جيرانها الاقوياء او المزعجين على الاقل . وكان من الواجب عليها ، في الداخل ايضاً ، في اكثر من منطقة ، ان تفرض احترامها على سكان اخضعوا حديثاً ، او ما زالوا في حالة هيجان احياناً ، ويزيد في استعدادهم للثورة انهم تحت رحمة استثمار اميري واقتصادي لا يعرف حداً ولا يعرف للرحمة معنى . ولم يكن من حاجة ، على ما نقدر ، لبلوغ هذه الغاية المزدوجة ، لاحتلال شامل يستهدف عرض القوة . ولكن كان مفروضاً في الحكام ، على الاقل ، ان يلبشوا جهازاً عسكرياً ويبقوا بعض الحاميات في حصون قائمة في نقاط حساسة ، او وحدة على بعض الاهمية في قلب مجموعة اقليمية .

لم يحدث شيء من ذلك . فقد اهلكت روما هذه الواجبات ، الا بصورة عرضية . وان قبضة الرجال التي وضعتها في الظروف العادية تحت تصرف حكام الولايات تمثل قوة رمزية اكثر منها واقعية ، اي العنصر البشري اللازم لموكب ابهة او السند الضروري لعمل بوليسي . ومن حيث هي تنكرت لمبدأ بذل جهد عسكري دائم ، فلم ترض بتجنيد جيش الا للقيام بتنفيذ مشروع معين ، كفتح جديد او هجوم معاكس او قمع ثورة . وحين تنتهي العملية وذبولها ، اي حين تضم الاقاليم او تعقد الصلح او تميد الهدوء ، لا تتأخر قط في اعادة جنودها الى ايطاليا بغية تسريحهم معرضة نفسها بالتالي الى اخطر المفاجآت . ويمكن القول انها بعد سيادتها على امبراطورية واسعة الارزاء تشبثت بسلوك الطريقة التي سلكتها حين كانت مدينة صغيرة لا يقع على عاتقها سوى الدفاع عن اقليم محدود يسهل الوصول الى جميع اجزائه في وقت قصير جداً ، في حال ان الطرق الكبرى التي شرعت في انشائها او شقها - وهي نادرة ، على كل حال ، خارج ايطاليا : الطريق الاغناسية بين ديراخيوم وتساونيك ، والطريق الدومسية بين نهر الرون وجبال البرانس ( البيرينيه ) - لم تلغ المسافات ولم تمنع البطء . فلم تع الواجبات الجديدة التي فرضتها على نفسها ، ولم تلق عليها اختباراتها نفسها اي درس لانها درجت ابدأ على تفسيرها كامور عارضة .

ولو فرضنا جدلاً انها وعت هذه الواجبات وفتحت اعينها جيداً ، لتوجب عليها بالمقابلة مزيد من المال ومزيد من الرجال . ولو اوجدت لنفسها ادارة ، لتوجب عليها ايضاً الاعراض عن اعتماد الوسائل المرجحة لتموين جنودها لانه اذا صح ان الحرب قد تغذي الحرب فان وحدة مستقرة للاحتلال والحماية لا تستطيع العيش طويلاً باعتمادها على الغزو دون غيره . ولو وعت

واجباتها لتوجب عليها اخيراً تنظيم ادارة مركزية قادرة على فرض هيبتها على القادة وعلى تنسيق المساعدة المتبادلة . ولكن واحداً لم يتصور كل ذلك تصوراً اذ ذلك . فعوضاً عن ان يكون لروما الجمهورية جيش واحد ، كان لها على التوالي جيوش لا تلبث عاجلاً او آجلاً ان تبسرحها ، مع ما يستلزم هذا التعدد المتقطع من ارتجال وتشويش وفردية في شخص الرؤساء ، وبالتالي من مخاطر عسكرية وسياسية .

وسنرى في سياق البحث ايضاً ان روما قد امتلكت اقاليم دون ان تجعل منها امبراطورية متراسة ، فكان لهذا النقص نتائجه ايضاً . ونشأت كل هذه الشوائب من السبب نفسه . فقد بقيت المدينة الجمهورية مدينة في فتوحاتها ، دون ان تكيف أنظمتها وفاقاً لحاجات دولة كبيرة . وكان من المقدر لها ان تموت بسبب فتوحاتها وتترك للنظام الذي سينتقل إرثها اليه أمر تنفيذ المهمة التي تنكرت هي لها .

## الفصل الثاني

# المدينة وفشلها

عرف العالم القديم كثيراً من المدن الأخرى . وليس من النادر في التاريخ ان تصبح المدينة جمهورية ايضاً . غير ان الأهمية الحقيقية لهذه الظاهرة تكمن في غير مكان : في تطور أنظمتها الجمهورية ، أي الاختلال الذي أدخلته عليها اسباب تسهل معرفتها . فان المدينة الجمهورية اليونانية التي طبقت ، فوق تنوع الحالات المحسوسة ، مثلاً حضارياً معيناً ، قد عرفت الانهيار بفعل انهزامها امام الملكية المقدونية . اما نجاحات الجمهورية الرومانية ، على نقيض ذلك ، فقد خلقت الازمات التي لم تغلب عليها .

### ١ - المدينة LA CITE

ولكن يبدو ، بعد كل اعتبار ، ان هذه المدينة كانت افضل استعداداً للتوسع من مدن أخرى كثيرة . اجل لا تسمح لنا معلوماتنا حول المدن الفينيقية والأتروسكية مثلاً باجراء مقارنة ما ، ولكن المدن اليونانية ، في العهد الكلاسيكي ، التي نعرفها معرفة أوفى ، ترتدي طابعاً لا وجود له في روما : واذا كان إيضاح الفرق امراً دقيقاً في جوهره المثالي ، فانه يبدو اساسياً في نتائجه العملية .

المدينة اليونانية  
والمدينة الرومانية

تشكرت المدينة اليونانية لتوسيع حدودها البشرية . وقد ذهب المواطنون الذين يؤلفونها ، احياناً ، الى اقضاء أبناء الزنى وأبناء الأمهات الاجنبيات ، فلم يقبلوا برضاهم ، في صفوفهم ، سوى أبنائهم . اما اولئك الذين لم يمنحهم نسبهم هذا الحق ، فلم يحصل عليه منهم ، في أغلب الاحيان ، سوى اشخاص مغنين صدرت لمصلحتهم قرارات خاصة . ويقفل باب هذه المواطنة حتى في وجه اليونانيين الذين تربطهم بهم وحدة يطيب لهم الاعتراف بها أثناء الاعياد اليونانية الجامعة ، كأنهم يحرصون ، على ما يظهر ، على إبقاء نقاوتهم العنصرية وعلى حصر التمتع بالحقوق السياسية في إطار ذوي هذه الحقوق من الشرعيين .

لا يسمنا التأكيد بأن روما لم تشعر يوماً بمثل هذه الأثرة . بيد ان تصرفها يبرهن ان هذه

الاثرة لم تسيطر فيها قط سيطرة مستمرة . وفيما يلي ناحية قانونية تدل ان هنالك اكثر من فارق بسيط . ففي اليونان - وفي اثينا بالتدقيق ، ولكن هذه المدينة مثال الديموقراطيات اليونانية - يخضع عبد المواطن الذي يعتقه سيده لنظام هو اقرب الى نظام الاجنبي المقيم ، ولا يستطيع حفدته ان يتفقتوا منه إلا في حالة استفادتهم من تدبير فردي . اما في روما فيستفيد العبد نفسه من نظام المواطن مع بعض قيود تفرض عليه شخصياً ولا تلبث ان تزول عن حفدته ؛ ولم يكن هذا الامتياز نظرياً لأن عدد المعتقين قد تزايد باطراد . فلا مجال من ثم للدهشة امام السخاء ، المنقطع النظير في عالم المدن القديم ، وقد ميز عالم الامبراطوريات نفسه بين الرعايا ، حتى ولو جهل المواطن الذي حمل روما على منح حق مواطنيتها كاملاً ، دون ربطه بأي واجب ودون الحصول منه على أية منفعة ، لرجال احرار أجنب : ولعل اعداءها بالأمس ، اذا كان خضوعهم على شيء من الصدق ، يحصلون على هذا الحق قبل حلفائها المتمسكين بطابعهم الخاص ، اذ ان المخضعين يستطيعون بواسطته تحسين مصيرهم .

بدأت المجموعة البشرية الاولى هذا التوسع منذ عهد باكر جداً . فمذ القرن الرابع قبل المسيح ظهرت أسماء عائلات من الاتروسك والفولسك والكمبانيين في لوائح ارفع القضاة الرومانيين مرتبة . ولم تقص الطبقات الاجتماعية الدنيا : فان إيجاد القبائل الجديدة ، انطلاقاً من توسع الاقليم الروماني ، يرفع عدد القبائل الى خمس وثلاثين ، بينها إحدى وثلاثون قبيلة ريفية ، ويضمهم الى المدينة . لا ريب في ان التجنس القانوني الكامل تفيد منه الارستوقراطيات والبورجوازيات النائية افادة أسرع . ولا ريب ايضاً في بروز مرحلة توقف ابتداء من منتصف القرن الثالث ، وهو التاريخ الذي يحدد التقليد فيه بـ ٣٠٠ ٠٠٠ تقريباً عدد المواطنين البالغين ١٧ سنة على الاقل ، في حال انه يرفعه في اواخر القرن الثاني الى ٤٠٠ ٠٠٠ فقط بعد إزاله الى اقل من ١٥٠ ٠٠٠ . ولكن « الحرب الاجتماعية » ، في اوائل القرن الاول ، تقود روما الى فتح ابوابها لجميع الايطاليين : فأصبح عدد مواطنيها ٩١٠ ٠٠٠ في السنة ٧٠ . وازداد التوسع بعد ذلك ازدياداً مطرداً سريعاً ، حتى في مصلحة سكان الاقاليم ، اما بفعل الانعامات المتفرقة التي لجأ اليها القادة في بلدان هدا ونظموها ، كما فعل بومبيوس منذ السنة ٧٢ في قلب البرانس ( البيرينييه ) وكرر فعله في الشرق في السنوات ٦٧ - ٦٢ ، واما بفعل الانعامات الشاملة التي استصدر قيصر قراراً بها في السنة ٤٩ لمجموع « غاليا » الواقعة وراء جبال الالب .

هل ينم ذلك عن تدبير اناني ام عن سخاء؟ لا شك في ان روما تخضع لما ترى فيه مصلحتها . فهي تزيد بذلك مواردها البشرية لتجنيد جوقاتها وتأسيس مستعمراتها : في اواخر القرن الثالث استشهد احد الملوك المقدونيين بها وبالفائدة التي تجنيها من أساليبها كي يطلب الى إحدى المدن التسالية استقبال مواطنين جدد . وهي تدرك ايضاً انها تقلل بعملها هذا من مرارة الشكاوى التي قد تدفع الى الثورات ، ويثبت اخلاص سواد الايطاليين الاعظم في أسوأ ساعات الحرب ضد هنيبل ، انها لا تتعامل دائماً مع ناكري الجميل . وليس من شك ايضاً في انها تستوحي ،

ومنذ عهد مبكر ، نظرة أكثر شمولاً منها في المدينة اليونانية ، إذ أنها تزيل الحدود البشرية التي علقت المدينة اليونانية على الاحتفاظ بها أهمية كبرى . وهي فخورة باسمها ، وليس حق مواطنيتها باللقب الباطل ؛ ولكنها تتحاشى أن تجعل منه احتكاراً محصوراً في طبقة وراثية ضيقة . وقد اعتمدت ، منذ عهد مبكر جداً ، ودون أن يضطرها إلى ذلك شيء ، سياسة لم تترأثنا أئينا الديموقراطية إمكان اعتمادها إلا ساعة انهيار امبراطوريتها . وينطوي مجرد هذا التجديد على أهمية عظيمة : فللمرة الأولى في التاريخ يرفع المنتصرون المغلوبين إلى مستواهم ويدخلونهم في شراكتهم . ولم يؤثر في النفس مدى تطبيق روما لهذا التجديد الذي أخذ يتسع شيئاً فشيئاً حتى شمل عالماً بأكمله .

غير أن روما لا تسير قدماً في التجديد . فقد تنكرت لمثال المدينة المحصورة كما نادى به افلاطون وارسطو وأبقت على نظم أصبح من السخرية تطبيقها على توسعها البشري والاقليمي . وقد سبق لارسطو أن أكد أنه « لا يبقى هنالك من مدينة إذا بلغ مواطنوها الـ ١٠٠٠٠٠٠ » . بيد أن روما قد تجاوزت هذا العدد تجاوزاً كبيراً وبقيت ، على الرغم من ذلك ، منظمة كما لو كان مواطنوها ١٠٠٠٠٠ او ٢٠٠٠٠٠ . وغني عن القول أن نظمها قد تطورت ، إذ لا شيء يبقى جامداً طيلة خمسة قرون . ولكن تطورها زاد من خطورة المعاضل بدلاً من أن يحلها .

ان تتبع مراحل هذا التطور يتجاوز امكانيات بحثنا . فمع اسفنا للتضحيات الاقليم <sup>الاقليم</sup> واتسامه القانونية <sup>والقانونية</sup> الضرورية ، نكتفي بالنظر إلى الدولة الرومانية في آخر القرن الثالث والنصف الاول من القرن الثاني . كان اقليمها إذ ذاك منبسطاً جداً .

فهناك في الدرجة الأولى مدينة روما نفسها . ان الارض القائمة داخل اطار مكرس وفاقاً للطقوس تكون المدينة بالذات . هنا يجب تنفيذ كافة الاعمال الهامة في الحياة الدينية والحياة السياسية . ولا مكان في هذه الاعمال لفكرة القوة : فلا وجود اذن للسلطة العسكرية في هذا الاطار؛ ويتوجب على مرافقي القضاة ، حين دخولهم اليه ، ان ينزعوا قووسهم من حزمة القضبان ؛ ولا يجوز لاحد ، باستثناء الاحتفال بموكب النصر ، ان يظهر فيه بأسلحته او ببزته الحربية . ويدهي من جهة ثانية ان المساكن مالبثت مع الزمن ان تجاوزت هذا الاطار ، فكان ان بعض الانظمة ، المطبقة فيه فقط ، - بصدده حقوق الضباط ، مثلاً - قد اصبحت تطبق في دائرة اوسع .

ولكن روما هي « المدينة » ايضاً كما طاب لمواطنيها حينئذ وكما سيطيب لهم اكثر فاكثر ان يدعواها ؛ والمقصود بذلك المدينة الكبرى والاقوى من كل مدينة سواها ، التي يشع مجدها وسلطتها بعيداً .

بين بحرين ، وباستثناء بعض النواحي الصغرى ، يؤلف اقليم المدينة نفسها ، الذي يكون فيه السكان الاحرار مواطنين عادة ، مميئاً كبيراً يبلغ ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً ؛ وهو لا يشمل سوى منطقة صغيرة جداً من الاتروسك ، بحيث ان زاويته الغربية لا تبعد عن مصب نهر

التبديد المسافة قليلة . ويبلغ مجموع مساحة هذا المين ٢٥٠٠٠ كيلومتر مربع ، روما هي المدينة الوحيدة فيه ، وبالتالي المركز الوحيد لكل حياة رسمية . ولا تحتل المجموعات السكنية الاخرى سوى مرتبة القرى ، وتحمل اسم « البلديات » او « المستعمرات » احياناً حين توطن روما فيها رجالاً تقطعهم بعض الاراضي . وهذه المجموعات انظمتها المحلية ، ولكن استقلالها الداخلي يبقى محدوداً جداً بفعل خضوعها لاوامر ورقابة الحكومة المركزية .

لروما « حلفاؤها » ايضاً ، وتنطبق هذه التسمية الرسمية على ما تبقى من شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص . ولكن بعض المدن الايطالية تؤلف « الحلفاء ذوي الاسم اللاتيني » ، وليس لهذا التعبير مدلول جغرافي بل قانوني فقط . فالمقصود بهذه المدن تلك التي يتمتع مواطنوها بحق شخصي شبيه بحق المواطنين الرومانيين . وان هذا النظام الذي ابتكر في الاساس لمدن الحلف اللاتيني المنضمة الى الاقليم الروماني منذ عهد قديم ، قدطبق على مدن اخرى بعيدة وعلى « المستعمرات اللاتينية » المؤسسة على صورة « المستعمرات الرومانية » ولكن لمنفعة غير المواطنين . اما « الحلفاء » دون تحديد فقد عقدت معهم روما معاهدات تنطوي بنودها على تنوع كبير : تخلت على العموم عن كل حرية في نطاق سياستها الخارجية . ولكن جميع هذه التمييزات ، في الحياة العملية ، تفقد الكثير من اهميتها . وقدرك روما انها على جانب من القوة تستطيع معه ان تتخطى الحدود التي يضعها العرف وحتى النصوص امام سلطتها : وليس من رادع ضميري يحول دون تصرف حكامها تصرف الاسباب ، قولوا فعلاً ، في علاقاتهم مع « الحلفاء » ، لا فرق اذا كان هؤلاء « ذوي اسم لاتيني » ام لا .

ماذا نقول بالتالي عن الولايات ، غالباً ما وراء الالب ، صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، اسبانيا ؟ كل شيء فيها ، سكان وممتلكات ، ملك لروما بفعل الحق الذي يعطيه النصر : ويعود لها وحدها أمر تعديل « قانون الولاية » . واذا ما بقيت ، داخل اقليم الولاية او في جوارها ، مدن او شعوب تدين بلقب « الحلفاء » بسبب سلوكها ابان الفتح ، فان روما تميل الى عدم الاكتران ، شأنها في ايطاليا ، بالمعاهدات التي أحسنت بها على هذه المدن وهذه الشعوب .

فهناك اذن ، منذ هذا العهد ، أقاليم واسعة الأرجاء ومصائر وحياة ملايين عدّة من البشر تتصرف بها الحكومة الرومانية .

اننا لحسن الحظ نعرف هذه الحكومة معرفة حسنة في تنظيمها وسيرها على السواء . فروما جمهورية منذ آخر القرن السادس ، وهو التاريخ الذي يعينه التقليد لنفي تاركوينوس الثاني ، ويحدد فيه انهيار الملكية وتحرير السيادة الأتروسكية . وقد قضت بعض الموجبات الدينية بالابقاء على « ملك للضحايا » لا يستطيع ان يمارس أية وظيفة عامة اخرى . وفي حال شغور مراكز القضاء العليا ، يلجأ احياناً الى « ملك مؤقت » لا تتجاوز مدّة سلطته القصوى خمسة ايام ، ويخلفه ملك مؤقت آخر اذا

جمهورية

ذات دستور « مختلط »

استمر الشفور مدة اطول . فقد مقتت روما لقب الملك في مفهومه العادي ، وسيهلك قبصر  
بجنابر المتأمرين لأن نفسه قد سوت له ان يحمله .

ولكن هنالك أكثر من مثال للجمهورية . وترتدي الجمهورية الرومانية نفسها أكثر من شكل .  
فقد بدأ تنظيمها للاغريق الذين حازلوا اذ ذاك معرفتها معرفة جيدة كصورة الدستور المختلط  
الذي سعى واضعو النظريات عندهم ، منذ زمن بعيد ، لتحديد مثله الاعلى : دستور يستفيد في  
آن واحد من حسنات الملكية والارستوقراطية والديموقراطية ، لأنه يقتبس بعض العناصر عن  
كل من هذه الانظمة ويعدل الواحد بالآخر فيتجنب بذلك تجاوزاتها وإفسادها . ويوليپ هو  
أشهر هؤلاء الاغريق وأكثرهم إعجاباً ، وقد وصلت الينا نبذة هامة من البحث الذي كرسه ، في  
اواسط القرن الثاني ، للأنظمة الرومانية ، تكوّن الاساس الذي لا غنى عنه للدرس الذي  
قد يحاول هذا او ذاك القيام به اليوم . ولكن الواجب يقضي في الحقيقة تصحيح استنتاجاته :  
فاذا اعتبر يوليپ نفسه ان التوازن في طريق الانهيار ، فانه لا يرى او يتظاهر بأنه لا يرى ان  
التوازن الذي يفالي في اطرائه ليس في الواقع إلا ظاهراً .

## ١ - الظاهر الملكي

### مناصب القضاة

يرى يوليپ الملكية في القنصلية . والافضل ان يقال بمعنى اوسع ،  
انه يراها في مفهوم منصب القاضي . فع ان الدكتاتورية منصب  
منصب القاضي ، « السلطان »  
والدولة  
قضاء استثنائي ، فانها تتطوي على طابع أكثر ملكية منه في  
القنصلية نفسها ، وليس القضاء ، اقله في بعض مظاهره ، ببعيد عن هذه الحقيقة ايضاً . ويستلزم  
التمييز بين مناصب القضاة العليا مقياساً لهذه الغاية . فما هو هذا المقياس ؟ هل هو « السلطان »  
*Imperium* ام السدة العاجية ، ام اهمية الوظائف الدينية ؟ ان لكل هذه المقاييس اهميتها .  
ولكن اعتماد كل منها ينتهي الى اختلاف في التصنيف : وقد تردد الرومان انفسهم معتمدين هذا  
المقياس تارة وذاك تارة اخرى . وخلق بنا ان نستغني عن هذا التوزيع ونقتصر على الفكرة  
العامة . فالقنصلية في الحقيقة هي التي تعطينا افضل مثل عنها لانها خير حافظ على وحدتها  
الاولى ، اذ انها حلت محل القضاء بظهورها بعده . ولكن مناصب قضاة اخرى مختلفة ، وارت  
احدثت دون منطق ، بحسب الحاجات او الظروف ، تعكس ايضاً ، في بعض الاحيان ،  
المثال الاول .

وما يزيد في اهمية هذه الفكرة انها مبتكرة . ولا يوجب القول بذلك ، على كل حال ، ان  
يعود الفضل في احداثها الى روما : فان معلوماتنا الاولى حول المدن الاتروسكية والايطالية لا  
تسمح لنا بنفي الاقتباس عن إرث جماعي . اما الواقع الذي يجب التشديد عليه ، فهو انه ليس  
ما يوازي ذلك عند الاغريق .

تشتق كلمة *Magistratus* ، التي تطلق في آن واحد على الوظيفة والقائم بها ، من كلمة

*Magister* «المعلم». ثم ان *Magis* تعني «أكثر»؛ لذلك فالقاضي هو «أكثر» من مواطن . فهو ، من حيث تعريفه ، ليس بخادم الجماعة ، او منفذ لقراراتها او خاضع لرقابتها واوامرها أو قابل العزل بإرادتها : هذا هو القاضي في الديموقراطيات اليونانية ، أو بالأحرى ما يضطرننا فقر المفردات التاريخية الى تعيينه بهذا الاسم الذي احتفظت اللغة الفرنسية ، مع ذلك ، باطلاقه على القاضي ( *Juge* ) ببعض مفهومه اللاتيني . واذا ما عين القاضي الروماني وفاقاً للأنظمة ، يتسلم بالوقت نفسه ، بعزل عن الجماعة ، وفوق الجماعة ، سلطاناً مستقلاً ، يجعل منه تجسيدا للدولة ، وبمثلا ومستعملا لسلطتها . سلطان وسلطة : وهنا ايضا يرادّ التضيق الى غموض المفردات العصرية ، وعدم انطباقها على الوقائع التي ليست مجرد فوارق ، على الرغم من مرتكزها المثالي . كان الرومان يتكلمون عن الـ *Potestas* التي لهذا المنصب أو ذاك ، فنترجم نحن *Potestas* «بقوة» ، في حال ان ما كان يقصد بها هو إمكانيات العمل الخاصة بمنصب ما ، بحيث يمكن تطبيق هذا المفهوم على الأنظمة اليونانية . ولكنهم كانوا يميزونها نظرياً عن «السلطان» ، وهو مفهوم اوسع وأرفع ، وخاصة لمناصب قضاء عدّة وللدكتاتورية ، والقنصلية والقضاء : فكان يعني ، في حال المحافظة على وحدته ، السلطة العليا في الدولة ، وحق القيادة في الحياة المدنية ( « في البيت » ) والحياة العسكرية . وهذا بالضبط ما جهله الاغريق .

أمام هذا الخلاف الاساسي ، بين الاغريق والرومان ، يستهوننا كثيراً ، ان نربطه بالخلاف الذي بدا لنا سابقاً . فعلى نقيض روما التي تمنح حق مواطنيتها بسخاء ، تضمن المدن اليونانية به ، وليس لديها ، عوضاً عن القضاة ، سوى موظفين فحسب : ولا شك في أن هذين التناقضين يعكسان ، على مستويين مختلفين ، تناقضاً واحداً أعظم عمقاً . فالمدينة في نظر الاغريق هي قبل كل شيء ، في جوهرها ، جمهور المواطنين : جمهور له قدرته ، وطّدت وحدته الوراثة الطبيعية والاتحاد الروحي ، الذي تتيح هذه الوراثة تفتحه ، وبالتالي جمهور معادٍ لانضمام عناصر أجنبية ، يمثل في نظره تنازلاً وإفساداً يفقده مزايا أصله ، واخيراً ، جمهور ذو سيادة في وحدته المحكمة الإقفال يجهل ، باستثناء الآلهة الذين يحمونه ، كل ما هو سواه . أما الأساس الروحي للمدينة الرومانية فغير ذلك . فالمواطنون يقرون بأن لروما وجودها بدونهم وبأنها ، اذا ما تجسّدت في الكائن الجماعي الذي يؤلّفونه عندما يجتمعون ، تتجسد أيضاً ، في بعض الرجال الذين ينعنون بعض الضمانات . وحين يتكلم هؤلاء الرجال ويعملون باسم المدينة ، يمارسون حيال المواطنين سلطة ينعنون أمامها . فمن الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، أن يشمر جمهور المواطنين ، وهو أقل تفاخراً بسيادة لا يحتكرها ، بأقل كراهية لانضمام الغرباء اليه . ولكن الديموقراطية الرومانية ، على كل حال ، لا تتمتع بملء حريتها لكي تفتتح ، إذ انه يتوجب عليها ، أقله نظرياً ، وعملياً ايضاً في غالب الأحيان ، أن تحسب حساباً لسلطات اخرى .

الرواسب الملكية  
تمثل مناصب القضاء إحدى هذه السلطات ، وليس من شك ، باستثناء المناصب الخاصة « بعامة الشعب » ، في ان اصولها ملكية . وان في بعضها استمراراً للملكية في كمالها تقريباً ، لا سيما حين تمارس قيادة عسكرية . ولم تثر مناصب أخرى عن الملكية سوى قسط محدود من خاصياتها وسلطتها . بيد انها كلها ، باستثناء المنصب المحصور دوره في التنفيذ والادارة المالية ، تتمتع بسلطة مستقلة لا يفوقها ، في حال المنافسة ، إلا سلطة منصب أرقع . ويكفي ان يجمع بعض الخطوط ، باستعارتها خصوصاً من المناصب النعم عليها بالسلطان ، لإظهار شأن هذه الرواسب الملكية .

ان القاضي الروماني ، وهو الوسيط الطبيعي بين المدينة والآلهة ، يتولى تقديم القرابين العامة ، ويعرب عن التمنيات التي تلتزم روما ، ويدشن المعابد الجديدة ، وينظم الاعياد ، ويشرف على الاحتفال بها . وعليه ، وله وحده ايضاً ، قبل أي عمل يقوم به باسم المدينة ، ان « يستشير الطالع » ، أي ان يحاول بطرق مختلفة ، لا سيما بملاحظة طيران الطيور ، معرفة ما اذا كان الآلهة عاطفين على المشروع .

والقاضي هو مطلق السلطة كقائد جيش . يتمتع وحده ، في روما وفي الحياة المدنية ، بحق دعوة الشعب ومجلس الشيوخ اللذين لا يستطيعان بدونه أن يجتمعا أو ان يدرسا قضية لا يطيب له عرضها عليها . يوزع العدل وفاقاً لنظم وقواعد يحددها هو نفسه ، شريطة ان يعلن عنها . ينشر القرارات . يفرض أقصى العقوبات ، وقد درج على ذلك زمناً طويلاً ، على اللذين يخرجون على أوامره العامة والخاصة . لا يمكن ان يعزل أو يحمل على التنازل او يلاحق عدلياً طيلة مدة ولايته .

ان في مثل هذه السلطة ما يبرر الاحترام اللائق به والشارات الخارجية التي تلفت الانتظار إليه . يرتدي الحلة المشاة باطار من الارجوان ويستبدله في الجندي بمعطف قائد الحرب ، وهو من الارجوان الخالص . يجلس في الاحتفالات العامة ، بينما يقف المواطنون أمامه ، ومن حقه أن يجلس ايضاً على السدة العاجية السهلة البني . يتقدمه في تنقلاته جنود يحملون حزاماً من القضببان تتوسطها فأس ، وترمز هذه وتلك الى قدرته على الإكراه ، أي على القسر والعقاب .

ولكن هذا المنصب المثالي لا وجود له في الواقع ، حيث يميزه ويحدد منه التقييدات الواقعية  
عدد من الاعراف والمبادئ الدستورية .

فهناك ، في الدرجة الاولى ، مناصب قضاء عدة ، ويمتلك أحدها ، منصب المحامي عن حقوق الشعب ، أسلحة كافية لشل كافة المناصب الأخرى . وهنالك أخيراً اكثر من قاض أصيل لكل من هذه المناصب . ولم ينبج من مبدأ هذا التعدد الشامل سوى الدكتاتورية ؛ ولكن مدتها لا يمكن ان تتجاوز ستة أشهر .

ولا تدوم المناصب الأخرى طويلاً ايضاً ، من جهة ثانية ، على الرغم من تعدد شاغليها

الأصيلين . وهي تدفع الى الشك والتنافس بفعل ما هي عليه ، وما تخلقه من آمال : من هنا كان الحرص على ان لا يستمر فيها أحد زمناً طويلاً . فاذا حق لمراقبي الإحصاء والأخلاق العامة أن لا يستقبلوا إلا بعد سنة ونصف ، فان القضاة الآخرين يتنازلون كلهم ، بعد مضي سنة ، عن مراكزهم لخلفائهم . أضف الى ذلك ان الاحتياطات تتخذ للحيلولة دون تجديد انتخابهم أو إعادة انتخابهم في موعد قريب : فبينما استطاع بريكليس ، بطريقة شرعية جداً ، ان ينتخب قائداً في أثينا طيلة خمسة عشر سنة متواصلة ، فرض في روما ، منذ اواخر القرن الرابع ، فاصل عشر سنوات لإعادة الانتخاب للقنصلية ، الوحيدة بين المناصب التي قد يبدو دوام الترتب فيها مغرباً ، الى أن ارتأى الاخوان غراكوس وساتورنينوس ان منصب المحاماة عن حقوق الشعب قد يكون مغرباً ايضاً . ويحول قانون صادر في أواسط القرن الثاني دون قنصلية ثانية ، ولن يجيزها مجدداً سوى « سيلتا » بإعادة فرض فاصل السنوات العشر . واذا ما شاب هذا التشريع المتقلب ، عملياً ، بعض السيئات ، فانه يوحي مع ذلك بالروح التي يستلهما النظام .

ومن المهم ايضاً تبيان المدى الحقيقي لتعهد الشاغلين . فعلى نقيض المدن اليونانية ، حيث يعقد القضاة الاجتماعات ، عادة ، ويتخذون مقرراتهم بالأكثرية ، نرى ان احترام روما للسلطة المستقلة التي ينعم بها كل منهم ، أعظم من أن تنزع عن اعماهم الطابع الفردي ، ولكن هذا الاستقلال الخداع يحد من حريتهم في العمل ولا يسهم قط في زيادتها . فهناك حق النقض الذي لا يعود فقط للقاضي الأعلى بالنسبة لقرار من هو أدنى منه ، بل لقضاة متساوين بحيث يكفي تثبيت الواحد منهم فقط لإبطال ما يقر عليه رأي عدد من زملائه . وليس للقاضي الفردي في الحقيقة سلطة اخرى ممتعة سوى هذا النقض فحسب .

فهل السلطة القضائية وحتى اصدار البراءات أعظم استقلالاً ؟ ولكن القاضي مرغم على احترام القوانين ، واذا ما جعلته وظيفته في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه ، فان هذه الحصانة تزول حين يصبح مواطناً عادياً : فهو معرض إذ ذاك ، دون أن يتوجب عليه تأدية الحسابات كما في أثينا ، لأن تستهدفه دعاوى خطيرة ذات مفعول رجعي ، لأن المدعين الجسورين كثيرون . وعليه ايضاً ، ان يحسب للعرف وللرأي العام حسابهما : فبينما يتمتع القاضي « المدني » بحق نظري يتيح له ، بنشر بيانه حين تسلمه العمل ، ان يقلب ، رأساً على عقب ، القوانين والقواعد المرعية في الدعاوى التي سيبت بها ، فانه لا يحدث شيئاً الا بحكمة ويقصر عملياً ، في اكثر الأحيان ، على إعادة بيان سلفه . ولا يستطيع القاضي بنوع خاص الاستغناء عن العمل برأي مجلس الشيوخ الذي تفوق سلطته المعنوية والعملية سلطة القاضي الى حد بعيد كما سنرى ذلك في سياق البحث .

وما القول عن حق القسر ؟ يقابله حتى العودة الى الشعب . ان هذا الحق الاخير لقديم حقاً ،

ويسبق التقليد تاريخ الاعتراف به بارجاعه الى عهد الملكية . وهو يوحى المزيد من الاعتزاز الى الرومان الذين يرون فيه « سور » و « حصن » حريتهم الفردية ، وللمقارنة بينه وبين قانون *Habeas corpus* البريطاني ، على هذا الصعيد ، ما يبرها كل التبدير . فهو يفتح في الواقع ، امام كل مواطن روماني ، امكان العودة الى جمعية الشعب اذا ما حكم عليه القاضي بعقوبة جسدية : فلا يبقى امام القاضي والحالة هذه سوى فرض الغرامة المالية ضمن حدود معينة . اجل لم يكن لهذه الحماية من وجود في البدء سوى على ارض الاقليم الروماني . ولكنها تمتد رويداً رويدا حتى تشمل ايطاليا والاقاليم الاخرى ؛ لا بل ان بعض القوانين جعلتها تشمل الجيوش في اوائل القرن الثاني .

لا شك في ان بعض القضاة ، لا سيما في ظروف معينة ، تصرفوا بجرية حيال هذه الاوامر : ويكفي لذلك ان نذكر باعتراف بويليوس غاقفوس المؤثر — *Civis romanus sum* — « انا مواطن روماني » — اثناء ضربه بالعصي وموته بعقوبة الصليب الخزية الخاصة بالعبيد ، تنفيذاً لامر « فيريس » قاضي صقليا . وفي مستنداتنا امثلة اخرى كثيرة ، دون هذا المثل شهرة لانه اعوزها فن شيشرون وحميائه لابرازها ، ولكنها ليست دونه تعبيراً . وقد اصدر القنصل شيشرون نفسه — محتفياً في الحقيقة برأي ابداه مجلس الشيوخ — قراراً بخنق شركاء كاتيلينا في المؤامرة ، في سجنهم . وأي نظام يذهب في احترام شرعيته نفسها الى حد الامتناع عن الاعتقاد بان « السلامة العامة هي القانون الاخير » ؟ واذا لم يجب فيريس على خطاب شيشرون حول العقوبات ، الذي لم يلق قط على كل حال ، فقد استطاع احد المؤرخين اخيراً ان يقدم لتبرئته اكثر من حجة لها وزنها .

بديهى ان الجيوش هي التي حصلت فيها اكثر واخطر التجاوزات على القوانين التي تحمي « ظهر » وحياة المواطنين من تعسف القضاة . فقد امر « كراسوس » و « قيصر » بالاقتراع على تعيين واعدام رجل من اصل كل عشرة رجال بين الفارين او العصاة . اجل ان النظام العسكري موجباته التي لا يستطيع اكثر الناس تساهلاً ان ينكرها — ولم يشتهر الكثير من قادة الرومان ، لا سيما العظام والمجيدون بينهم ، بفعل حنو مصطنع غريب عن التقاليد الوطنية — ولكن ما لا شك فيه ، اذا ما وضعنا هذه الضرورات جانبا ، ان سلطة القاضي وسلوكه الملتكئين هما بلا مراء ، من حيث القانون والواقع ، اكثر بروزاً خارج روما منها داخل روما والاقليم الروماني بالذات . فهو وحده في الخارج لا زميل الى جانبه يقف في وجهه : فحين يجتمع جيشان يرأسها قاضيان متساويان ، القنصلان مثلاً ، للقيام بعمل مشترك ، يتولى القيادة كل من الرئيسين يوماً واحداً بالناوابة . ثم ان بعده يخفف من الرضاية التي يستطيع مجلس الشيوخ ممارستها حياله . وهو ، اخيراً ، يمثل روما ويتصرف بالقوة المادية التي امثته عليها ويتعاطم بالقوة المعنوية التي تتجسد في شخصه : فلا يكون رجلاً اذا ما تهرب على الدوام من النزعة الى اساءة استعمالها .

وقد اعترف الرومان انفسهم بان الحاكم ، اي القاضي ، ملك في اقليمه : وسنرى ان ذلك لم يعد بالخير لا على الاقاليم ولا على روما .

ليس من الضروري لعمري ، بعد هذه النظرة العامة ، ان نستعرض بالتفصيل مناصب القضاء المختلفة .

الدكتور قاض استثنائي يختاره ويعينه احد القناصل ، بناء على دعوة مجلس الشيوخ في الواقع . ومن حيث انه لا يخضع لأية رقابة او نقض ، فان له سلطة مطلقة على القضاة والمواطنين على السواء . فيتضح من ثم ان أمر تعيينه انما يتقرر لمواجهة الاخطار القصوى ، كتهديد أجنبي مدام او فتنة خطيرة . ولكن آخر دكتور من هذا النوع قد عين في السنة ٢١٦ ، غداة معركة « كانا » وقد عين البعض منهم بعد ذلك ، و« كلفوا القيام » في غياب القاضي الاصيل ، بطقس ديني او سياسي ؛ ولكن ذلك لا يخرج عن مجرد حيلة في الاجراءات الرسمية . ثم انقطعوا نهائياً عن اللجوء الى هذا المنصب . اما دكتورية « سيللا » و « قيصر » فليس ما يجمع بينها وبين الدكتورية الرسمية القديمة سوى الاسم فقط : فهي تصديق شرعي لاستبدال أقيم بقوة السلاح .

وتتوج وظيفة مراقب الاحصاء والاخلاق العامة المناصب التي يتألب فيها كبار رجال السياسة مقاماً ، ولكنها لا تستلزم امتياز « السلطان » . وقد درجت العادة حتى اوائل القرن الاول ، تاريخ انتشار الفوضى ، على انتخاب مراقبين اثنين كل خمس سنوات . وتنطوي مهمتها ، التي تنتهي بإستعراض عام يرافقه احتفال يشتمل على ذبيحة كبرى وتطهير ونذور ، على تنظيم الشعب في سبيل حاجات المدينة العسكرية بنوع خاص . فيقومان ، تحقيقاً لهذه الغاية باحصاء الاشخاص والممتلكات ؛ ويزعان المواطنين طبقات ووحدات تضم كل منها مائة شخص ويضعان بنوع خاص لائحة بالشيوخ ولائحة بالفرسان يستطيعان ان يقصيا عنها اولئك الذين يبدو لهما سلوكهم ، حتى الخاص ، موضع انتقاد وشبهة . ويحددان ، لمدة خمس سنوات ، قيمة الضريبة ويلزمان الواردات والنفقات العامة .

ولكن ما قيل عن منصب القضاء بصورة عامة ينطبق بنوع خاص على القنصلية ، وريثة الملكية الزائلة . فالقنصلان اللذان ينتخبان لسنة واحدة يطلق عليها اسمها ، يمنحان ملء « السلطان » أي « سلطان البيت » و « سلطان الجندية » . لا ينقطعان عملياً الى الشؤون المدنية ، حتى خلال القرن الثاني ، إلا في فصل الامطار ويقضيان ما تبقى من السنة في احد الاقاليم على رأس جيش من الجيوش . بيد ان هذا الحل الفاسد ، الذي جاز اعتماده حين كانت الحروب تدور على مقربة من روما ، ينطوي اذ ذاك على مساويء خطيرة . وسيقتضي مع ذلك انتظار « سيللا » في اوائل القرن الاول لاعتماد حل آخر كان لا يزال مطبقاً في اواخر الجمهورية . فالقناصل منذ ذاك التاريخ يبقون في روما طيلة سنة ولايتهم ويتولون فيها الحكم المدني فقط . ثم

كلّفوا ادارة شؤون احد الاقاليم باسم « بروقنصل » الذي اطلق من قبل عليهم حين كانوا يحتفظون بقيادتهم الى ما بعد الاجل القانوني لوظائفهم .

وكان القضاة العدليون ، في اول عهد الجمهورية ، هم القضاة الرئيسيين . ولكن خلق مناصب القناصل قد أنزلهم الى المرتبة الثانية . بيد انهم استمروا في استلام « السلطان » . وأسند الى اثنين منهم القضاء المدني : الاول ، « قاضي المدينة » ، للنظر في الدعاوى بين المواطنين ، والثاني ، القاضي « المتنقل » ، للنظر في الدعاوى التي يكون احد الاطراف فيها أجنبياً . ومنذ نهاية الحرب البونيقية الثانية التي استولت فيها روما على صقليا ، عين قضاة عدليون آخرون كي تسند اليهم ادارة اقليم او قيادة اسطول او جيش صغير . وطبق عليهم سيلا اخيراً ، الذي رفع عددهم الكامل من ستة الى ثمانية ، القانون المفروض على القناصل : فأصبحوا جميعهم يقضون سنة في روما متمتعين بصلاحيات عدلية ، ثم يعيّنون حكاماً في احد الاقاليم .

ويشرف نظار الابنية الاربعة على شؤون الامن وصيانة الشوارع والابنية العامة وتكوين الاسواق . وما كانت هذه المهام التقنية لترتدي أهمية تذكر لو لم يضاف اليها تنظيم الالعاب في مواسم الاعياد الدينية : فاستطاع النظار بذلك ، حتى ولو كان الثمن تصدّع ثروتهم الشخصية ، اكتساب شعبية تؤمن انتخايمهم لمنصب القضاء العليا .

ليس ما يشبه هذه الاستعاضة عند القضاة الماليين - وكان عددهم ثمانية اذ ذاك ثم ارتفع الى عشرين في ايام « سيلا » والى اربعين في ايام قيصر - . فهؤلاء يكتفون بتأمين الادارة المادية لصناديق المال العامة ، بعضهم في روما بحسب مقررات مجلس الشيوخ ، والبعض الآخر ، بمعدل واحد في كل اقليم او جيش ، بحسب اوامر القاضي الذي يخضعون لسلطته .

يحدد بنا ، دون ان يشمل هذا الاحصاء المناصب الدنيا ، ان نفسح مكاناً منصب المحاماة عن حقوق الشعب  
خاصاً لمنصب المحاماة عن حقوق عامة الشعب . فجميع مميزاته ، باستثناء بعضها مما تنصف به مناصب النظار المنتمين الى عامة الشعب ، كالقدسية مثلاً ، تفصله عن مناصب القضاء الاخرى ، وهو يلعب احياناً دوراً اولياً في الحياة السياسية الرومانية . ولا ريب في انه ، بصورة عامة على الاقل ، تجديد مبتكر يفسره وضع المدينة الداخلى في القرن الخامس قبل المسيح وحدّة الصراع القائم آنذاك بين عامة الشعب وطبقة الاشراف المسيطرة على كافة مناصب القضاء .

ان « لقدسية » المحامي عن حقوق الشعب ، التي تؤمن له الحرمة ، قيمتها الدينية : نجس وملعون كل من يجرؤ على ان يد اليه يداً او ان يقف في وجهه . كان في الماضي يدفع المجرم بنفسه من اعلى الصخرة « الطاربية » ، واذا ما اكتفى ، حتى في القرن الاول ، بالتهويل بخطر هذه العقوبة القديمة ، فقد حدث له ان ضرب المجرم بيده والقاء في السجن ، حتى ولو كان احد القناصل . فمن البديهي ان توفر له هذه الامتيازات الهائلة ككل حرية في ممارسة صلاحياته .

ليست اكثر هذه الصلاحيات بالاجابية . وليس لمهامه نطاق خاص به . ولا يستلم « السلطان » . ولا يمثل روما ولا عامة الشعب نفسها التي تنتخبه ، ولكن لديه كافة الوسائل المفيدة للدفاع عن افراد عامة الشعب ، فرديا ام جماعيا ، ضد كل معتد ، باستثناء الدكتاتور الذي يقضي تعيينه بتعليق حقوق هذا المحامي . وان هذه الحقوق التي يمارسها على هواه تحمل اسماء وترتدي اشكالا متنوعة : « العون » الذي يقدمه لمواطن يهدده احد القضاة ، « الاعتراض » على عمل او قرار ، حتى « النقص » المسبق لمشروع قانون ما . يضاف الى جميع هذه الصلاحيات السلبية والهدامة ، منذ البداية ، حق واحد ايجابي ، اعني به حق دعوة عامة الشعب الى جمعية لمحلها على الاقتراح على احد المقررات : ونرى في الواقع ، منذ اوائل القرن الثالث ان لمقررات عامة الشعب قوة القانون . بيد ان العرف الذي استقر خلال الحرب البونيقية الثانية والذي اجاز له جمع مجلس الشيوخ لعرض قضية من القضايا عليه ، قد زاد بلا شك من نفوذه دون ان يزيد من سلطته الراهنة .

وهناك ، بالاضافة الى الدكتاتورية ، استثناء واحد ذو طابع اقليمي جغرافي يحد من صلاحياته . فان هذا المحامي يغدو مواطناً عادياً اذا ما بعد مسافة ميل ( ١٤٧٩ م ) عن اطار روما . وهذا يعني ان ليس له من سلطة على الجيش ، اذ قد بدا غير معقول ابدأ ان يولى حقاً قانونياً في معارضة سلطة القائد العسكري وهي مطلقة بالضرورة . ولكن أهم اعمال الحكومة المدنية تجري ضمن هذا الاطار . لذلك فان منصب المحاماة عن حقوق عامة الشعب يمثل قوة عملية عظيمة .

يمكنه ، اذا ما اكتفينا بظواهر الامور ، ان يشل كل حياة سياسية وادارية في دوره التاريخي المدينة . وان ما يجعل المدينة ، في الواقع ، بأمن من هذا الخطر ، هو ان عشرة أشخاص يشغلون منصب المحاماة في آن واحد ، وان باستطاعة كل منهم ان يمارس سلطاته السلبية ضد أي من زملائه وحتى ضد التسعة مها بلغ من موافقتهم على عمل مشترك . وليس في تاريخ الجمهورية الرومانية كله سوى حالة واحدة عزل فيه محام عن حقوق الشعب بسبب تصلبه ، أعني به « أوكتافيوس » الذي اقترعت عامة الشعب ، في السنة ١٣٣ ، على نزع سلطته لأنه تشبث بحق النقض بصدد مشروع القانون الزراعي الذي تقدم به طيباريوس غراكوس والمحامون الثمانية الآخرون ، ولم يستند الى هذا التدبير كسابقة فيما بعد . ولنفكر الآن ، لظهار الفرق ، بالسهولات التي كانت لدى الديموقراطية الاثينية لنزع السلطة عن قضاتها والتي لجأت اليها حتى ضد بريكليس : وهذا دليل واضح جديد على ان مفهوم القاضي الذي يمثل الشعب والذي يمكن عزله اذا ما فقد ثقة الشعب هو يوناني لا روماني . بيد انه من البديهي ، بالتالي ، ان عمل المحامي غالباً ما يبنى بالمعجز : ويكفي الاحتمال السيكولوجي وحده للاقتناع بأن مستغلين كثيرين ، لا بل خونة كثيرين ، وجدوا مكاناً لهم بين عشرة رجال ينتخبون ويحددون كل سنة في نظام لم

يعرف احزاباً منظمة على الطريقة المصرية .

على الرغم من هذا الضعف ، أثار عمل المحامي ، أكثر من مرة ، مصاعب خطيرة في وجه المسؤولين الرومانيين . ففي قلب دولة يقضي مفهومها الاساسي باعطاء المدينة وجوداً مستقلاً ، في حد ذاته ، عن الواقع البشري الذي يكوّنّها ، فيضع المواطن في خدمة الدولة قبل وضع الدولة في خدمة المواطن ، كان وحده ، مع حق رفع الدعوى امام الشعب ، رادعاً لعمل المسؤولين وعنصر دفاع عن شخص المواطن ، وبالتالي قوة تقابل سلطة الدولة المطلقة . واذا كانت الجمهورية الرومانية ، التي صممته ونفذته ، قد وجدت موافقاً لوجودها وسيورها ، فيجب ان نرى في ذلك موضوع مراهنه ؛ وقد قدّم الشعب الذي تقيّد به برهاناً ساطعاً عن تفرده ونظاميته .

بيد انه من الخطأ الاعتقاد بكماله المثالي ، اذ انه قد أسهم في النهاية بايصال روما الى الفوضى . ففوق استخدامه كأداة معارضة سلبية ، استخدمه بعض الرجال الحازمين ، الذين يحسبون سياسة الطبقات الشعبية ويعرفون ما يريدون ، ليس كأداة بلنبلة فحسب ، بل كأداة تنظيم وعمل ضد الطبقة الحاكمة . وهو لم يسمح بتعهد تغذية غليان جرائم الثورة فحسب ، بل اتاح فرض اصلاحات وحلول جديدة . ولنضرب صفحاً ، للدلالة على ذلك ، عن القرون الاولى التي يختلط فيها التقليد بالأساطير . ولكن فلامينيوس ، قبيل الحرب البونيقية الثانية ، قد قاد ، كحام عن حقوق الشعب اولاً ، ثم مع المحامين الآخرين زملائه ، معركة بناءة ضد الارستوقراطية . ثم فتحت أزمة حرب هنيبعل الطويلة ، بتبريرها تقوية وتوحيد السلطة ، عهد احتجاج المحاماة عن حقوق الشعوب ، التي روّضها مجلس الشيوخ آنذاك .

بيد ان ذلك لم يمنعه ، ابتداء من السنة ١٣٣ ، من ان يستعيد استقلاله وفاعليته في ايام الاخوين طيباريوس وكايوس غراكوس اللذين شغلا كلاهما هذا المركز ، الاول في السنة المذكورة والثاني بعده بعشر سنوات ، واللذين اتقا كلاهما وتوقفا الى تجديد انتخابها ، فبعثا الحركة الشعبية وأدخلا اليها ، روحاً نضالية مضطربة وأوحيا لها مرة أخرى ، بمثلها وحتى بموتها ، القوة التي ينطوي عليها مثل هذا السلاح . فخدم هذا الوجداني « الشعبين » ، ولكنه خدم المفسدين والمتطرفين والطامعين ايضاً . وبين موت كايوس غراكوس ونهاية الجمهورية ، باستثناء الفترة القصيرة التي لاشت فيها قوانين سيللا عملياً سلطة المحامين عن حقوق الشعب ، تمثل أسماء ماريوس وغلوشيا وساتورنينوس ودروروس وكلوديوس وكوريون وانطونيوس - وكان هذان الاخيران مجرد عميلين لقيصر - حلقات سلسلة طويلة من المحامين الذين لم ينظر اليهم الافاضل ( Optimates ) نظرة رضى . ولم يرض عنهم النظام الجمهوري كذلك . فقد كشفت هذه المحاماة الغربية آنذاك عن حقيقة طبيعتها : جهاز دولة محدث للحيلولة دون تجاوزات الدولة ، لديه وسائل أعظم من ان لا يدعو امتلاكها لاستخدامها بغية شل الدولة شلاً دائماً .

« تسلسل الأجداد » على الرغم من ان الهاماة عن حقوق الشعب مدينة بأحداثها للحدود الذي توحيه مناصب القضاء الأخرى في الحكومة والادارة ، فانها تدخل مع ذلك ، في نظام مراتب هذه المناصب الذي يمكن القول فيه انه سيرة الاشخاص . ومن حيث ان هذه المناصب توزع بالانتخاب وتتيح ممارسة قسط متفاوت من سلطة الدولة ، فانها « أجداد » تعز بها حياة المواطن ولا يهمل ذكرها الحفدة . ولكن هذه الأجداد غير متساوية في العظمة ، والطموح يدفع كل قاض الى محاولة بلوغ أرفع الأجداد سمواً التي تسند الى شاغلين أصيلين قليلين . لذلك قد يكون أعظم تدابير سيلاً فاعلية ضد الهاماة عن حقوق الشعب إقفال باب المناصب الأخرى في وجه من مارسها : فبينما كانت توفر حتى ذاك العهد إمكان الحصول على الشهرة ، اذا بها تكون ، حتى إلغاء قوانين سيلاً ، طريقاً غير نافذة يتحوّل عنها اولئك الذين يتطلعون الى أبعد من ذلك .

وقد اعتمدت أكثر من دولة ولا تزال تعتمد حتى اليوم ، أقله ضمناً ، مفهوم التسلسل الضروري في الوظائف العامة ، استناداً للدليل البديهي الذي يقول إن الخبرة المكتسبة في أدنى الوظائف يبدو مفيداً في أعلاها . اما في روما فقد اتخذ شكلاً صارماً هو « تسلسل الأجداد » الذي نظم بكل عناية .

كان العرف والنظام الجماعي ، مدة طويلة ، كافين لتجنب السرعة في غير حينها . وخلال الحرب البونيقية الثانية ، اتاحت بعض الظروف الاستثنائية لشبيون ان يحتل ، في عنفوان شبابه ، مركزاً لا نظير له . ولكن المنافسين برزوا في وجهه فلمس المسؤولون الحاجة الى رادع . فاكثفوا دونما ابطاء المبادئ الأساسية : رفع السن التي يمكن ان تحصل فيها المزاحمة حول منصب القضاء المالي الذي اعتبر نقطة الانطلاق في « التسلسل » ، وذلك بإيجاب تكرير عدة سنوات لخدمة الدولة قبل استلامه ، إيجاب المرور في مناصب قضاء اخرى ، وفقاً لترتيب معين ، قبل محاولة بلوغ القنصلية ، إيجاب تمضية فترة محدودة بين تولى منصبين متعاقبين . ولكنهم بعد الموافقة على هذه المبادئ الثلاثة ، اخذوا يتلمسون طريقهم ، والمعاصرون اليوم ابعدهم عن ان يروا الفوارق التفصيلية بوضوح . ويبدو عملياً انهم قد ساووا بين القضاء المالي والقضاء العدلي وبين الهاماة عن حقوق الشعب ونظارة الطرق والابنية العامة . وبينما كان بالإمكان في القرن الثاني بممارسة القضاء المالي في سن السابعة والعشرين والقضاء العدلي في سن السادسة والثلاثين رفعت السن عملياً في القرن الاول الى التاسعة والعشرين للقضاء المالي والى الثانية والاربعين للقضاء العدلي .

وتوصلوا ، بالتوفيق بين القانون والعرف ، - لم يتناولوا الاحصاء ومراقبة الاخلاق العامة اي نص معين ، ولكن هذا المنصب اسند في الواقع الى قناصل قدامى - الى شبه هرم يتناقص فيه عدد الشاغلين الاصليين من درجة الى اخرى ، الشيء الذي كان يسمح بإجراء الاختيار .

وان في هذه الطريقة لاستجابة لبعض النزعات الفطرية في الذهنية الرومانية : حاجة الى النظام والى التسلسل المستقر . ولكن قرار الرأي على وضع صيغة شرعية لهذا التسلسل وعلى اقبال صعوباته وعلى المضي في تأخير بلوغ المناصب العليا يتم بنوع خاص عن انهيار النظامية الفطرية والخوف من المصائر « الحارقة » ا فارادت الطبقة المسيطرة الاحتماء من النجاحات الصاعقة . ولكنها اخفقت ، لا بل ان هذا الاحتباك الماهر قد أفسد احياناً ببلء ارادتها . ويحدر بنا في الحقيقة ان نلاحظ ان قيصر الذي فاز عليها قد مر بانتظام في جميع المناصب ولم يشغل كلا منها الا « سنته » فقط اي دون تقديم او تأخير في السن الدنيا المحددة ، بينما طاب لخصمه بومبيوس ان يفيد على الدوام من استثناءات غير شرعية : واذا ما خالف نظام ما شرعيته بالذات ، ففي ذلك ابلغ دليل يقدمه هذا النظام على ضعفه .

## ٢ - الظاهر الديموقراطي

### جمعيات الشعب

اذا كانت هذه الشرعية، في ما يعنيننا، قد صممت بمثابة حيلة ضد الطامعين، فقد حصرت ايضاً ، بشكل ضيق جداً ، حرية الاختيار المعترف بها مبدئياً للناخبين، اي للشعب . وقد كتب بوليب : « لو نظرنا الى قوة الشعب ، لبدا الدستور الروماني ديموقراطياً بدون ريب » . ولكن ذلك ليس الا ظاهراً فحسب . فلم يكن كافياً ، على غرار العنصر الملكي الذي مثله القناصل ، ان تقابل هذا العنصر الديموقراطي قوى توازنه . اصف الى ذلك ان المواطنين وجمعياتهم كانوا منظمين بشكل تصبح معه دون جدوى ، في الظروف العادية، سيادة تثبتها، على الرغم من ذلك، تسمية « الشعب الروماني » المستعملة رسمياً للدلالة على الدولة الرومانية .

جمعيات الشعب  
في اليونان وفي روما

لنعد مرة أخرى الى المدينة اليونانية . أجل عرف المسؤولون فيها كيف يحتالون على جمعية الشعب التي لم تمارس في كل زمان وكل مكان سلطة فعلية مماثلة للسلطة التي تمتعت بها في اثينا حين بلغ القمة فيها النظام الديموقراطي الراجح . ولكننا نلمس في الاعراف التي سادت الجمعيات في اليونان وروما ، فوارق تمس جوهر الأمور : وبفضلها تنجلي حقيقة مفهوم المواطن ومفهوم المدينة .

ان لأحد هذه الفوارق قيمة الرمز ، ولم يفك الرومان ادراك أهميته : ففي اليونان يجلس اعضاء الجمعيات الشعبية على مقاعد حجرية ؛ اما في روما فيقفون في ارض منبسطة ، امام الرئيس الجالس على منصة هي « المنبر » . وبديهي ان مدة الجلسات تتأثر هنا وهناك بهذا التناقض المادي . ولكن هذا التناقض ، بنوع خاص ، يثبت وجود فارق عميق في طريقة فهم العلائق المتبادلة بين مجموع المواطنين والقاضي الذي يترأس اجتماعهم . فان الشعب المجتمع للنقاشه يقوم بواجب ويستخدم حقاً ، في كلا الحالتين . بيد ان هناك خلافاً في الذهنية : فهو يترفع في

اليونان ، كمنظير على الاقل ، بينما يبدو طبيعياً للرومان أن يكون في وضع المرؤوس ، وهو يرضى بذلك . وان هذا الدليل ، يضاف الى غيره مما سبقت الإشارة اليه سابقاً ، يثبت ان مثالية المدينة في روما تستازم شيئاً آخر غير الشخص المعنوي الذي يكونه جمهور المواطنين ، شيئاً يشترك فيه القضاة ويمسّدونه .

وهناك فارق آخر ليس بأقل مغزى . ففي داخل الجمعية الشعبية ، في كافة المدن اليونانية ، تخصص الاصوات على اساس الأفراد لا على أساس الكتل . اما في روما فالقاعدة المعتمدة هي دائماً على نقيض ذلك ، اذ ان لكل كتلة صوتاً واحداً يعبر عن رأي أكتريتها الداخلية . ويعني ذلك ان للطريقة المتبعة في توزيع المواطنين على الكتل تأثيراً حاسماً على تشكيل الاكثوية الرسمية في الجمعية . وقد تكون هذه الاكثوية الرسمية مختلفة جداً عن الاكثوية الفعلية ، لأنه قد يقوم أكبر تفاوت عملي بين مواطنين متساوين قانوناً ، بحسب تعبيرهم عن رأيهم الشخصي داخل كتل يكون عدد أعضائها مرتفعاً جداً او متدنياً جداً . ولنصف الى ذلك ، حتى لا نشير إلا الى نتيجة ثانوية بين نتائج كثيرة غيرها ، ان تجنب المواطن لضروب الضغط الخارجي ، حين يقترح في إطار كتلة محدودة بالضرورة ، أضعف منه حين يضم اقتراحه الى كافة اقتراحات أعضاء الجمعية . فقد يؤدي هذا النظام الى اكثر النتائج منافاة للديموقراطية ، وقد أدت اليه فعلاً كما سنرى ذلك . ولكن هل كان ارتقائها السبب الرئيسي في اعتماد هذا النظام والإبقاء عليه يا ترى ؟ يجدر بنا بالاحرى ان نفكر باستمرار التنظيم الداخلي في المدينة والهئية المدنية وقوة الحرص عليه . اجل لم تجهل المدن هذا الحرص لأن مواطنيها كانوا موزعين قبائل ؛ ولكنهم لا يعيرونه كبير اهتمام في الجمعية ، بينما هو ذو سيطرة على كيان الجمعية وسيرها في روما . فيجب ألا نقلل من شأن هذا التناقض ، لأن جهاز المدينة السياسي يعكس نزعات أدبية ووقائع اجتماعية على السواء . وهو يؤدي الى استنتاجين ، اولهما ان روما تضرب بمساواة المواطنين عرض الحائط بينما يطبق الاغريق مبدأها تطبيقاً واسعاً ، أقله في بعض المدن ، وثانيهما ان الدولة في روما أقل اهتماماً بالمواطن الفردي منها في اليونان ، إذ انها لا تريد معرفة رأيه ولا تجيز له الاسهام في تكوين الارادة الجماعية الا بواسطة الكتل التي يمكنه الانضمام اليها : والحقيقة هي ان تحرر الانسان المواطن تحرراً كاملاً ، هو مثل يوناني لا روماني ، واذا ما بدأ يظهر في روما ، بفضل علائقها باليونان ، في آخر عهد الجمهورية ، فهو لا يتوصل الى فرض نفسه لا على الأنظمة ، التي لم يتوفر لها وقت التكيف عليه قبل زوالها ، ولا على الاخلاق .

كان من المنتظر ، والحالة هذه ، ان تلجأ روما الى النظام التمثيلي . ومهما كان من المظهر المغالط الذي ظهر به استمرار الجمعيات اليونانية الاولى في بعض الحالات ، فان له تفسيره في التصميم على الحيلولة دون تسيط اي شي او اي شخص بين المواطن والمدينة . بيد ان الكتلة تتوسط بينهما في روما ، ولا يلزم سوى خطوة واحدة لتوسيط ممثل الشعب ايضاً . وكان من

الواجب ان يؤدي الى ذلك ارتفاع عدد المواطنين وتوزعهم الجغرافي . فحين يحق لـ ٢٥٠٠٠٠٠ مواطن منذ اوائل القرن الثالث ، وللمليون مواطن تقريباً في السنة ٧٠ ، وللرجال الاحرار في كافة الحما ايطاليا بعد حصولهم تدريجياً على حق المواطنة ، الاشتراك في جمعية واحدة لا يمكن ان تلتئم الا في روما نفسها ، يصبح الحفاظ على ميزة الجمعية الاولى لهذه الجمعية اكثر من مغالطة فحسب : فهو يصبح اذ ذاك سخريه غير معقولة . ولا يوفر التثبيت به اية سهولة للطبقة الحاكمة . وخير لها ، على نقيض ذلك ، اقله ابتداء من اوائل القرن الثاني ، ان تكون علاقتها بمثلين قد يفضي اختيارهم الى بعض العناصر المعتدلة من ان تكون يجاهير سجسة تتأثر بتحريض المحرضين . والتهمة التي يحذر ان توجه الى المسؤولين الرومان هي العمه قبل الانانية في استثمار وضع شاذ . فليس من شخص آنذاك يفكر بحل يميل المعاصرون بالفطرة الى اعتباره في منتهى البساطة لانه اليوم رائج التطبيق في مجتمعاتهم . اجل نحن نلمس في الاتحادات الهلينية عمق الخيال نفسه والتقليد نفسه الذي لا يتماشى وحاجات الزمن . ولكن نتائجها اشد خطورة الى حد بعيد في روما التي غدت اقليمياً وبشراً الدولة الايطالية والتي ابقّت على نظمها حين كانت مدينة صغيرة دون ان تكيفها وفقاً لهذا النمو .

لا تخلو هذه الانظمة من التعقيد . فمنذ آخر القرن الرابع  
 الطرائق المختلفة في توزيع  
 المواطنين والجميات  
 كابد حد - قد يكون الامر على غير ذلك قبل هذا التاريخ -  
 نرى ان الجمعيات جميعها مفتوحة الابواب لكافة المواطنين  
 الرومانيين دون استثناء . بيد ان المبادئ الثلاثة التي اعتمدت في توزيع المواطنين الواحد بعد  
 الاخر رسخت كلها بحيث ان وجودها قد جرّ الى قيام انواع ثلاثة من الجمعيات التي تنظمت  
 وحدات الاقتراع فيها وفقاً لمبدأ آخر .

لم يعد آنذاك لاحد هذه الانواع من اهمية عملية ، اعني به ذاك الذي يوزع المواطنون بموجبه ،  
 وفقاً لانتسابهم الوراثي ، الى ثلاثين « وحدة » *Curie* تنحدر هي نفسها ، بمعدل عشرة  
 اشخاص لكل منها ، من القبائل العنصرية الثلاث الاولى . فجاء منح حق المواطنة لعناصر  
 عديدة غير رومانية ينزع عن هذا التوزيع كل حقيقة . فلم تعد الجمعيات المؤلفة من ممثلي  
 هذه الوحدات لتجتمع الا شكلياً فقط بغية القيام باعمال ذات طابع طقسي ، كمنح « السلطان »  
 للقضاة الجدد مثلاً .

اما الجمعيتان الاخرتان ، على نقيض ذلك ، فليستا مؤلفتين من ممثلين على هذه الندره .  
 فالجمعيات « القبيلية » تضم المواطنين الموزعين على خمس وثلاثين قبيلة ، اربع منها « مدنية »  
 واحدى وثلاثون « ريفية » . كان لهذه القبائل في البداية واقع اقليمي يخصص به من يقيم فيه او  
 اقله يمتلك الاراضي فيه : ويشبه النظام على هذه الصورة النظام المعمد في اكثر من دولة  
 ديموقراطية معاصرة . ولكن التطور اللاحق قد افسده . فان عدد القبائل الريفية الذي ارتفع

مدة طويلة بشكل مواز للاراضي الرومانية *Ager romanus* قد توقف عن الارتقاع منذ السنة ٢٤١: فارتبط المواطنون الجدد منذئذ، حتى ولو حصلوا على المواطنة بشكل جماهيري في منطقة كاملة، بإحدى القبائل السابقة التي خسرت، بسرعة، الشيء الكثير من طابعها الاقليمي. ثم ان القبائل المدنية، وهي اكثر عدداً وتضم نسبة مرتفعة جداً من الفقراء، غدت دون القبائل الريفية شرفاً. ولذلك فقد درج ناظرو الاحصاء الذين يختارون على هوامم، في مواعيد الاحصاء، القبيلة التي يخصصونها بمواطن جديد، والذين ينعمون حتى بحق نقل مواطن قديم من قبيلة الى اخرى، كمقوبة معنوية، على ان يسجلوا أفراد الطبقات الدنيا، لاسيما المعتقين منهم، في القبائل المدنية. وليس لكل من هذه القبائل المدنية المتزايدة عدداً سوى صوت واحد شأن كل من القبائل الريفية التي يحتفظ المواطنون الميسورون فيها بجانب كبير من الأهمية.

وقد أفضى نوع آخر من انواع التوزيع - أقدم من التوزيع على القبائل ولكنه ارتبط به أخيراً - الى الجمعية المئوية؛ ونسب الى الملكية احداث نظام «الوحدات المئوية» بسبب ارتباطها بتنظيم الجيش: فهناك وحدة عسكرية ايضاً، يطلق عليها اسم «وحدة المئة». والجمعية «المئوية» في الواقع، هي الشعب المعبأ. وهي بالتالي، ايضاً، بسبب الموازاة القائمة بين الثروة وبين الواجب العسكري والمالي، الشعب الموزع على طبقات يحددها الاحصاء يمد التحقيق الذي يجريه ناظرو الاحصاء كل خمس سنوات. ولكن كيفيات هذا التنظيم قد تنوعت. وتشكل هذه التنوعات وتحديد تاريخها وارتباطها بالتطور الاقتصادي والتقدي، منذ زمن بعيد، لإحدى معاضل التاريخ الروماني التي اشدت الخلاف حولها. وقد تحقق تبدل هام ما بين السنة ٢٤١ وبدء الحرب البونيقية الثانية. فقد اعطى النظام القديم اكثرية الاصوات المطلقة (٩٨ من أصل ١٩٣) الى الوحدات المئوية في الطبقة الاولى دون غيرها، في حال انه قامت هنالك، وفاقاً لمستويات الثروة المتعاقبة نزولاً، اربع طبقات اخرى ايضاً. فاحتفظت الطبقة الاولى منذئذ بـ ١٨ وحدة مئوية من «الفرسان» ينتمي اليها اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، أي النخبة المحدودة بين المواطنين. أضيف الى ذلك انها تشمل، بمعدل وحدة عن القبيلة، ٣٥ وحدة مئوية من «العقال» (فوق ٤٦ سنة)، و ٣٥ وحدة «من الشبان». أما الطبقات الأربعة الأخرى، فهل تشمل كل منها ٧٠ أو ١٠٠ وحدة مئوية؟ وما هي طريقة التوزيع فيها؟ لم تلق بعد هذه الأسئلة أجوبة واضحة. ولكن، مهما يكن من الأمر، فقد أضيفت الى هذه الوحدات المئوية الـ ٣٦٨ أو الـ ١٨٨، خمس وحدات فقط ضمت اثنتان منها العمال واثنتان الموسيقيين - ويقبل اعضاء هذه الوحدات الأربع في الجيش - وواحدة الفقراء الذين لا يستخدمهم الجيش لأنهم لا يمتلكون حتى الحد الأدنى من الضريبة المفروضة على الطبقة الخامسة. وهكذا فان المواطنين الاغنياء والميسورين من جهة والمواطنين المسنين من جهة ثانية ينعمون بأفضلية عظيمة تحت ستار المساواة وعلى حسابها. فيتضح ان تكوين الجمعيات المئوية

وتكوين الجمعيات القبلية على السواء ابعد من ان يستجيبا لموجبات الديمقراطية كما تصورتها مدن امن أمثال أثينا وخضعت لها منذ القرن الخامس .

على الرغم من ان هذه الحقيقة لا تقبل الجدل ، يجب ألا نغفل ان بعض  
صلاحيات الجمعيتين  
القبلية والمثوية  
النجاحات قد حققت بالنسبة للوضع الماضي .

يتعلق احد هذه النجاحات الرئيسية - وهذا لا يعني انه بلغ حداً بعيداً -  
بدور الجمعيات القبلية . فالجمعية المثوية اقدم عهداً منها ، واذا ما انطبق تنظيمها ، في شكله  
الاخير ، على توزيع المواطنين الى قبائل ، فان مفهومها العام الذي يفسر بعض تفاصيل سيرها ،  
كما سنرى ذلك ، يجد من حرية الحاضرين . لذلك فان كل زيادة تتناول نصيب الجمعيات القبلية  
تصطبغ بطابع الاصلاح السخبي ، ان لم يكن الديمقراطي . وفي الواقع تناولت  
الزيادة نصيبها .

يكتنف هذا التطور غموض كبير . بيد انه من المهم ان نشير هنا الى ان الجمعيات القبلية ، في  
البداية ، كانت ، قبل كل شيء آخر ، جمعيات لعامة الشعب يدعوا للالتزام المحامون عن  
حقوق هذه العامة ويقصى عنها النبلاء . وكانت بالتالي تقرر « الاستفتاءات » *Plebiscita* او  
« مراسيم عامة الشعب » ، التي لا تقيد سوى هذه العامة ، بينما لم تكن « القوانين » التي تقيد  
كافة المواطنين لتنبثق الا عن الجمعيات المثوية . بيد ان هذا التمييز قد فقد كل اهمية منذ ان  
اقرت المساواة القانونية بين القانون والاستفتاء . فنتج عن ذلك ان النبلاء ، الذين المحذر عددهم  
شيئاً فشيئاً من جهة ثانية ، استطاعوا الدخول دونما صعوبة الى الجمعية القبلية . كما نتج عن ذلك  
ايضاً ان القضاة آثروا هذه الاخيرة على الجمعية المثوية بسبب السهولة الكبرى التي يلاقونها في  
دعوتها للاجتماع ومراقبة الجلسة وحتى الاقتراع - ٣٥ صوتاً بدلاً من ١٩٣ او ٣٧٣ . فلم تحتفظ  
الجمعية المثوية بصلاحيات حصرية غير النظر في الدعاوى الخطيرة ، وعلان الحرب ، وانتخاب  
القضاة للمناصب العليا . واحتفظت الجمعية القبلية باقل من هذه الصلاحيات : انتخاب القضاة  
للمناصب الدنيا فقط . غير ان اكثرية الامور التي قد تطرح على احدى الجمعيتين تعرض عليها ايضاً ،  
كأكثرية مشاريع القوانين بنوع خاص .

ولقد تحقق نجاح آخر بصدد نظام الجمعيات وتنظيمها المادي . فقد اضطر  
الاصول المتعددة  
المواطن ، لمدة طويلة جداً ، الى التعبير شفهاً عن رأيه ، مما حدد ، في غالب  
الاحيان ، من خريته الفعلية . ثم اقر الاقتراع المدون على « لوحة » (*Tabella*) فردية في  
السنة ١٣٩ ، وصدرت خلال ثلاثين سنة تقريباً قوانين اخرى عممت هذه الطريقة على كافة انواع  
الانتخاب : فتوفر بذلك الشرط الإساسي لسرية الاقتراع اي لحرية . وفي السنة ١١٩ اكتسب  
ماريوس ، وهو بعد محام عن حقوق عامة الشعب ، شعبية كبرى باقتراح تقدم به وتوفق الى  
اقراره يقضي بان تضيقت ، بقياس عرض الرجل ، « الجسور » التي يجب على المواطنين المرور

عليها قبل اللقاء « لوجههم » في صندوق الاقتراع : فنجا المقترح بذلك من كل رقابة ومن كل ضغط . وليست مثل هذه التدابير في الحقيقة مما لا يعبأ به : فالحركة الديموقراطية الرومانية تلمس وجوب اجراء بعض الاصلاحات في الانظمة وتحقق بعضها .

ولكن هذه الحركة لا تستطيع الذهاب الى ابعد من هذا الحدّ او لا تجرؤ على ذلك بتعرضها لمبادئ أساسية تسيّر اجراءات الجمعيات . وليس من شك في ان درس هذه الاجراءات بالتفصيل أمر مستحيل . بيد انه يجدر بنا ان نستخلص بعض خطوطها التي تتميز بها وصاية ضيقة على شعب يتمتع بالسيادة مبدئياً .

تلتئم الجمعية برئاسة القاضي الذي يوجه الدعوات الى اعضائها . يقرّر وحده جدول الاعمال ويوجه سير المناقشات . ولا يمتلك الشعب أية وسيلة لفرض ارادته في تقرير الاجتماع وأي حق مبادرة او تحوير في المشروع الذي يعرض عليه . واذا كان الموضوع موضوع انتخابات فلا احد يستطيع إرغام الرئيس على ان يقدم له جميع أسماء المرشحين ، ولا اعتبار إلا للأصوات التي تناهها أسماء يريدانها : ولم يكن ذلك مجرد إمكان نظري ، حتى في عهد متأخر نسبياً . واذا كان الموضوع مشروع قانون ، فكثيراً ما يستخدم الرئيس حقاً مماثلاً ، محصوراً فيه ، يستطيع بموجبه ان يسترده او يحوّره نصه . ومن حيث ان الجمعيات المثوية هي الجيش ، وتجتمع بالتسالي خارج إطار روما ، فلا ينعم بحق توجيه الدعوة لالتئامها سوى قاض « منيح السلطان » يستطلع الطيور قبل الجلسة . فلا تعوزه من ثمّ الحجج الدينية لحل الجمعية عندما يطيب له ذلك . لا بل ان الواجب يقضي عليه ، حتى لا يقع في خطأ شكلي ، باللجوء الى الحل في بعض الحالات ، كحالة نوبة الصرع التي يصاب بها احد الحاضرين - والصرع « مرض الجمعيات » بالذات - او حالتي البرق والرعد ، بحيث انهم انتهوا احياناً ، بغية تجنب عرقلة سير الاعمال ، الى حصر حق « ملاحظة السماء » في بعض الاشخاص فقط او الى إبطاله كلياً . واذا لم تفض الانتخابات الى اي نقاش ، فان مشروع قانون واحد يتطلب عدة جلسات للتشاور والمذاكرة يتمتع الرئيس خلالها ، منذ زمن بعيد ، عن استخدام حقه في اعطاء الكلام لمن يريد ، ولكنه استخدم على الدوام حقه في ان يكون الخطيب الاخير . وتكرس الجلسة الأخيرة للاقتراع فقط بالاجابة « بنعم » او « لا » على « سؤال » الرئيس حول بمل النص ، وحول عدة نصوص متكاملة احياناً . وتتوقف عمليات الاقتراع منذ بلوغ الاكثية . اما في الجمعية المثوية ، التي تعود الأولوية فيها الى احدى الوحدات المثوية الـ ٣٥ التي تضم « شبان » الطبقة الاولى - الوحدة « الممتازة » التي تنتخب بالقرعة لأن لرأيها قيمة الانباء بالمستقبل - والتي يجري الاقتراع فيها وفقاً لترتيب الطبقات التسلسلي ، فان وحدات الطبقة الرابعة ولا سيما الخامسة تكاد لا تقترح ابدأ . ولا يصبح القرار نهائياً ، اخيراً ، إلا اذا رضي الرئيس باعلانه : وهكذا ، فان القضاة ، على الرغم من تعيينهم عن طريق الانتخاب ، يعتبرون رسمياً « خلائق » الرئيس . وان هذه المهلة القصوى المفسحة امام رفض

الرئيس او امام حق القضاة الشرعي بالاعتراض والنقض لم تمر دائماً دون استخدام .

ان هذه العجالة حول الجمعيات الرومانية، على الرغم من إيجازها، تفضي بنا الى استنتاجات لا يمكن ان تنقضا أية قاعدة او أي عرف لم تتعرض لها . فمن جهة يقلل تنظيم وسير الجمعيات الشعبية الى حد بعيد من التأثير العملي الذي قد يكون في الظروف العادية للطبقات الاجتماعية الدنيا مع انها ، شأنها هنا كما في غير مكان ، أكثر عدداً من طبقات الأغنياء . ومن جهة ثانية ، توازي سلطة القضاة سلطة الجمعيات في الدولة ، ان لم تكن متفوقة عليها . ولا ريب في ان هاتين الملاحظتين لا تسمحان قط ، في روما ، بالمساواة ، بين الجمهورية والديمقراطية ، حتى اذا فسرنا هذه الكلمة الأخيرة بمفهومها القديم .

### ٣- الظاهر الارستوقراطي

#### مجلس الشيوخ

يبقى العنصر الارستوقراطي، وهو اقوى عنصر في الدستور الروماني والحياة السياسية الرومانية على السواء . ولم يصعب على بوليب ان يرى ان مجلس الشيوخ هو الذي يمثل العنصر : بيد انه لم يعطه اهميته الحقيقية . وهناك نقطة رمزية تقابل ما لاحظناه بصدد الجمعية من شأنها ان تكشف لنا عن عظمة هذه الهيئة : الشيوخ يجلسون ايضاً امام رئيس لا يعتلي اي منبر .

مجلس الشيوخ

مجلس قضاة قدام

تشقت كلمة *Senatus* من *Senex* « المسن » ؛ فمجلس الشيوخ اذن مجلس « قدام » ويطلق على اعضائه اسم « الآباء » ايضاً ، اي انهم في الوقت نفسه نبلاء ورؤساء العائلات الاولى في روما . ولكن كل ذلك يرتبط بمضاح سحيق . فقد اضيف الى كلمة « الآباء » ، في عهد متوسط ، اسم المفعول *Conscripti* « المسجل على اللائحة » . فكانت اللائحة ، ولكن تأليفها غداً آلبا .

عدد الشيوخ العادي هو ٣٠٠ . رفته سيلا الى ٦٠٠ وقبصر الى ٩٠٠ ولكنه في كل الحالات لم يحدده بنص قانوني ؛ وليست الزيادات التي حققها الدكتاتوريون سوى نتيجة الزيادة التي ادخلوها على عدد القضاة المالمين . فالعرف قد جعل من التعمين في منصب القضاء المالي ، حتى قبل القانون ، شرطاً ضرورياً وكافياً للدخول الى مجلس الشيوخ .

اخذ قضاة الاحصاء والأخلاق ، منذ اواخر القرن الرابع ، وكل خمس سنوات ، بوضع لائحة بالشيوخ . وكان لهم الحق في إقصاء من يريدون إقصاءه من أعضاء اللائحة السابقة ، ولكنهم لا يجازون الى هذا القرار الحزبي إلا لاعتبارات اخلاقية ، أي في حالات نادرة ، اذ ان الشيخ اذا ما سجل على اللائحة يبقى عملياً في منصبه مدى الحياة . اما اختيار الأسماء الجديدة

فيجب ان يتناول اعظم النبلاء شرفاً . فلا يرى قضاة الاحصاء والاخلاق بالتالي افضل من ان يأخذوا بعين الاعتبار الاشخاص الذين يعينهم الشعب في مناصب القضاء . وقد استقرت هذه العادة خلال الحرب البونيقية الثانية ، بغية سد الفراغات العديدة التي اوجدتها الهزائم العسكرية الاولى ثم شملت شيئاً فشيئاً ، خلال القرن الثاني ، مناصب القضاء الاخرى التي ليس من حاجة بسبب ارتفاع عدد شاغليها ، للجوء الى المواطنين العاديين . واخيراً سن « سيلاً » قانوناً يكرس قبول القضاة الماليين في مجلس الشيوخ : واكتفى قضاة الاحصاء والاخلاق بعد ذلك بابرام وضع رهن - وذلك حين يكون هناك قضاة احصاء و اخلاق ، لان تعيين خلفائهم لم يعد منتظماً منذ هذا التدبير الذي يجعل من احدى صلاحياتهم الرئيسية امرأ ومهياً .

المخفض من ثم عمر الشيوخ الوسطي المنخفضاً كبيراً : فقد كانوا يحتلون مناصب القضاء المالي في سن مبكرة . وتطور طابع مجلس الشيوخ الرسمي ايضاً : ففندا مجلساً مؤلفاً من القضاة القداماء ، مما يترك صدها حتى في ترتيب اللائحة . ففي اعلى اللائحة ، اقله قبل « سيلاً » الذي يلغي هذا اللقب الشرقي ، يسجل اسم « الاول في المجلس » الذي يختاره قضاة الاحصاء والاخلاق بين الشيوخ المرموقين . ويليه في اللائحة ، وفاقاً لمرتبة وظائفهم ، القضاة القداماء ، « الاحصائيون والاخلاقيون » و«المنصليون» و « العدليون » ، النخ ، يرافق ذلك ترتيب داخلي في كل فئة وفاقاً لاقدمية القضاة في مناصبهم . ويدعى القضاة لابداء رأيهم بحسب ترتيب اللائحة ، ولكن الاولوية تعطى ، في الفئة الواحدة ، للقضاة المعينين ، اي الذين جرى انتخابهم فعلاً ولم يستلموا بعد مهامهم والذين يلفت النظر اليهم اقتراح الجمعية الشعبية الحديث العهد .

ولكن مجلس الشيوخ لم يفقد شيئاً بفعل هذا التطور . فهو في الماضي قد مثل نخبة الشعب المتميزة بنسبها وثروتها وسنها وخبرتها ، وكلها عناصر تكون الاعتبار الاجتماعي . ولم يعين القضاة عملياً ، باستثناء السن ، وفاقاً لمقاييس اخرى . فيضم مجلس الشيوخ كافة الاسماء الكبيرة ، وكل عضو من العائلات الكبيرة لا تقصيه مبدئياً عن الحياة السياسية نقیصة ظاهرة ، وكل من درس في شبابه على ابيه واجباته المقبلة فتولى بعد ذلك شؤون ومصالح الدولة . فيفضل العظمة الملمية بالحكمة التي يضيفها على اعضائه نسبهم وتربيتهم ووعيمهم لواجبهم ، يحسد مجلس الشيوخ روما وتقاليدها واستمرارها وكيانها الدائم ومصيرها ، اي انه هو ايضاً ، شأن القضاة ، ذلك الكيان الادبي المستقل عن جمهور المواطنين المنتظمين جمعية شعبية .

الفرق كبير بالتالي بينه وبين « مجلس » المدن الديمقراطية اليونانية . مجلس الشيوخ والقضاة كان هذا الأخير مستشار الجمعية يحرص على تنفيذ مقرراتها ويراقب حياة المدينة باسمها . اما مجلس الشيوخ فلا علاقة له بالجمعية بل بالقضاة في القيام بدورهم المستقل . تمتع في البداية بال *Auctoritas* ، ومعناها الاشتغاق « الزيادة » ، أي بالقدرة على اكمال قيمة قرار شعبي لا يغلته إلا في وقت لاحق ، وهذا يعني حقه في إلغاء القرار. ويبدو ان السعي قد بذل لشل

هذه السلطة ، خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، بخصر حق الاستفادة منها قبل جلسة الجمعية فقط . اجل ان لهذا الاصلاح أهميته القانونية ، ولكنه لا يسدّد في الواقع ضربة مؤلمة لسلطة الشيوخ . فاذا لم يكن هناك ما يحول دون اطلاق الشعب على ترشيح او مشروع لا يرضى عنها مجلس الشيوخ ، فنادرأ ما يحدث ان يخالف رأيه قاض من القضاة . وقد كمنت قوته العملية ، في الحقيقة ، في نزول القضاة عند نصائحه .

لا يعطي مجلس الشيوخ مبدئياً سوى « المشورات » ، *Senatusconsulta* ، ولكن أصول جلساته ، وهي على جانب كبير من الاختلاف عن اصول جلسات الجمعية ، تحلّه منذئذ على صعيد غير صعيد الجمعية . وهو ايضاً لا يستطيع الاجتماع إلا بناء لدعوة احد القضاة - او عدة قضاة ، اذا كانوا يقومون بعملهم متضامنين - الذي يتأسه ويختار على هواه القضايا التي يعرضها عليه . وحين يطلب الرئيس رأي احد اعضائه ، يتمتع كل من هؤلاء بحرية القول التامة . ويحق للعضوان يتكلم ساعات كاملة ، أي ان يلجأ الى العراقيل ويقترح التعديلات ويثير قضية لا يتعرض لها الرئيس ويطالب بأن تكرر لها جلسة مقبلة، الخ . فاذا بدا على المجلس انه سيوافق على هذه المطالبة ، فيسكون دائماً هنالك قاض على استعداد للمواقفة عليها ، وهو الرئيس اخيراً ، شأنه في الجمعية ، الذي يحدد موضوع الاقتراح ، وهو الذي يستطيع ، بعمله هذا ، ان يستخدم تحمكه استخداماً عريضاً ، فيرفض التعديلات مثلاً او لا يقبل إلا بجلتين متناقضين ويهمل كل الحلول الاخرى . ولكن الاقتراح فردي قد ترافقه ، في حالة الشك ، عملية احصاء دقيق بعد جمع الأعضاء في مكانين مختلفين من القاعة . ثم يأتي اخيراً دور وضع صيغة « المشورة » *Senatus - Consulta* ، فاذا كان الرئيس مسيطراً سيطرة كافية ، يتوجب عليه تعيين شيوخ يشتركون في عملية التحرير ويحرصون بالتالي على ان لا يتم النص النهائي عن شعور الاكثورية .

بيد انه يجدر بنا ان نرى في هذه الاصول معلولاً لا علة ، وظاهرة لا تفسيراً . «المشورة» تتضمن دائماً التعبير المقيّد « اذا ارتأى » او « اذا ارتأوا » الذي يحفظ في الظاهر حرية القاضي او القضاة في التقرير ، ولا يتفق هذا النص مع الطواعية الدائمة - باستثناء حالات نادرة وفاضحة - التي يبديها القضاة حيال نصائح يعملون بها كما لو كانت أوامر .

حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار النفوذ السياسي والأدبي الذي يدين به مجلس الشيوخ للتقليد ولانتخابه وللخدمات التي يؤديها للمدينة ، فلنسا ندرك مثل هذا الانقياد اذا لم نفكر بشكل ما يرتبط به في حياة الرجل السياسي الروماني . فمن حيث ان الشيوخ ينعمون بالتأثير الاجتماعي الذي يوفره النسب والثروة ، فانهم يستخدمونه استخداماً جدياً ابان الانتخابات . وان مجلس الشيوخ ينوع خاص ، اذا ما نظرنا اليه كهيئة ، يجد في صلاحياته المعتادة أكثر من إمكان لجلسة مهمة القاضي سهلة ومجيدة احياناً ، ولإقامة العراقيل ايضاً في طريقه ، اقله بتشجيع معارضة احد زملائه او احد المحامين عن حقوق الشعب ، وللحكم عليه بأن يبقى مغموراً . وهكذا

تطبق على القاضي دائرة لا يستطيع النجاة منها إلا بواسطة صراع سافر : فهو يدفع بمعاملته  
عن رضى الأكرية في مجلس الشيوخ .

تشمل سلطات مجلس الشيوخ في الواقع نطاقات متنوعة جداً بفضل  
صلاحيات مجلس الشيوخ العادات التي اتخذت صفة القانون والتي يجب إصدار قانون لتعديلها .

وقد سبق لنا ورأينا مدى هذه السلطات في كل ما يختص بالسياسة الخارجية وملحقاتها  
والأقاليم والجيش . ومع ذلك فلنشدد عليها ، لأن المجلس يمارس ، في هذا الحقل بنوع خاص ،  
ضغطاً غير مباشر على أسمى القضاة مرتبة بواسطة احساناته وغضباته . ولما كان عليه تعيين  
الأقاليم التي سيسند الحكم فيها الى القناصل والقضاة العدليين في سنة ما ، وتلك التي سيقى الحكم  
فيها في أيدي من تولاه في السنة السابقة وستمدة ولايته عليها ، فانه يخدم الأشخاص المعنيين او  
يضر بهم بوحى من شعوره نحوهم . ولم يقدم ، زمناً طويلاً ، على توزيع الأقاليم هذا ، إلا بعد  
الانتخابات : وقد وجب انتظار قانون اقترحه كلوس غراكوس ، في السنة ١٢٣ ، حتى يضطر  
للبت به قبل معرفة أسماء المنتخبين ، الأمر الذي عرقل تدابير دون ان يكفي لإلغائها . وكما  
انه يستقبل السفراء الأجانب ويحييهم على أسئلتهم ، فانه يعين السفراء الرومان ويزودهم  
بالتعليمات : فليس بالتالي من حرب نظامية دون رأيه ، وليس من صلح ايضاً اذا لم يوافق على  
بنود معاهداته . وهو الذي يحدّد ، قاضياً قاضياً ، العدد اللازم للجيش والأساطيل والوسائل  
المالية المقابلة . وهو الذي يمنح او يرفض « موكب الفوز » للقائد المنتصر . وهو الذي يوجه  
اليه قادة الأقاليم وحكامها تقاريرهم ويرفع اليه الشاكون مظالمهم : فبرز من ثم نوع من السلطة  
القضائية الخاصة بمجلس الشيوخ يوزع بموجبها اللوم اذا لم يستطع فرض العقوبات الأخرى . اضاف  
الى ذلك ان الشيوخ ، حتى استلام كلوس غراكوس منصب المحاماة عن الشعب ، وطيلة السنوات  
العشر التي بقيت فيها قوانين سلا سارية المفعول بعد ذلك ، قدموا وحدهم اعضاء مجالس  
المهلين « الدائمة » : وكان احد هذه المجالس مختصاً بالنظر في دعاوى سرقات امناء الخزينة التي  
ترفع على حكام الأقاليم بنوع خاص .

اذا كانت صلاحيات المجلس الأخرى اقل تأثيراً مباشراً على ارتقاء القضاة في المناصب ،  
فانها مع ذلك قد اسهمت في جعله يلعب دوراً حاسماً في الحياة الاجتماعية .

لنفصل عنها السلطات الدينية التي تعبر عن شيء من طبيعته الحقيقية ، اعني به اشتراكه في  
الكائن غير المادي الذي هو روما . فحين شعور « السلطان » المطلق ، اي شعور منصب الملك  
من قبل ، وشعور منصب القنصلين الآن ، الذي قد يعقده شعور منصب الدكتاتور ايضاً ،  
يعود الى « الآباء » حق استطلاع طيران الطيور وتعيين « الملك المؤقت » . وفي الظروف العادية  
يسهر مجلس الشيوخ على القيام بالاحتفالات والطقوس ، ويقرر الاعياد ويحدد ميزانيتها ويميز  
عبادة الآلهة الجدد او يصدر حكمه عليهم ، الخ .

أما ما تبقى فإدارة مادية . من ذلك إدارة ممتلكات المدينة مثلاً : فهو يقرر إنشاء المستعمرات لأنه يجر إلى هبة قطع الأرض المسلوخة من الأملاك العامة ، وفي المدة التي تفصل بين تعيين قاضي الاحصاء الخلف وانتهاء مدة قاضي الاحصاء السلف ، يبت بالشؤون المتعلقة بنفقات وإيرادات الدولة ، ولا يتصرف القضاة الماليون المسؤولون عن الخزانة الا وفاقاً لأوامره ، وهو الذي يميز إصدار النقد . بحيث ان أكثر القطع النقدية تحمل الحرفين . S.C. ( *Senatus - Consulto* أي بموجب « مشورة » ) .

لم يعترض على أية من هذه السلطات حتى آخر الجمهورية . ويكتفي بالادعاء مجلس الشيوخ بالقول انها ليست وفقاً عليه وان الجمعية الشعبية ، ذات السيادة ، تستطيع ان تحد منها . ويستصدرون عند الحاجة قانوناً يدخل تعديلاً عليها او يقضي بقرار خاص : فرز قطعة من الاملاك العامة ، واسناد ولاية اقليم الى احد القضاة ، الخ . اجل ، ان المجلس ينظر شذراً الى هذا الانتقاص من امتيازاته التقليدية ، ولكنه لا يتجاوز في اعتراضه حداً معقولاً ويقرر الانحناء في النهاية .

بيد ان الوضع قد تغير في السنة ١٢١ ، حين اقرت ، في حتم الصراع ضد . كلوس غراكوس المشورة « القصوى » التي تلازم القنصل بالحرص على ان « لا تصاب الدولة بأي سوء » . وقد اعتمدت هذه الصيغة إبان الازمات اللاحقة ، ولكنها بقيت مبهمه . غير انها ، في الواقع ، قد سمحت باسم السلامة العامة ، كما فهمتها آنذاك اكثرية المجلس الساحقة ، بالاقدم ، دون أية محاكمة ، على اعدام عدة مئات من انصار كلوس غراكوس في السنة ١٢١ ، وساتورنينوس وغلوشيا واصدقائهما في السنة ١٠٠ ، وشركاء كانيلينا في . المؤامرة ، بامر القنصل شيشرون ، في السنة ٦٣ . فهي اذن تمنح القضاة سلطات دكتاتورية مطلقة وتوقف مفعول كافة الضمانات الشرعية ، ابتداء بمحاصرة المحامين عن عامة الشعب وحق رفع الدعوى امام جمعية الشعب . وهذا لعمرى حق جديد يدعي به المجلس دون استناد الى اية سابقة . ولكن خصومه اذا ما هم ثاروا على اللاشرعية وتوصلوا من ثم الى الحكم على شيشرون بالنفي في السنة ٥٨ ، فانهم قد لجأوا هم ايضاً الى المشورة « القصوى » في السنة ٨٣ مثلاً ، حين توجب عليهم الدفاع عن انفسهم ضد « سيل » ورأوا انفسهم اسياذ المجلس الى حين . فلنا في الحقيقة امام تجديد دستوري ، بل امام تذيير قوة : النظام يتخبط في ازمة ولا يعبأ بالشرعية .

مر من قبل في مراحل عظيمة هادئة مسلم بها . وهو قد ارتكز الى اسس النظام المجلسي  
 ادبية تفوق باهميتها نصوصاً مكتوبة هي عمل بشري قابل التحوير . وليس  
 باستطاعتنا ان نرد هذه الاسس الى الوحدة ، لا بل ليس باستطاعتنا معرفة  
 مدى أهميتها النسبية بالضبط : فهي متشابكة كلها . فكان هنالك احترام الـ *Mos majorum*  
 « عرف الجدود » الذي يفرض الايمان بالحكمة القديمة ، أي بالعهد الذهبي نوعاً ما : ان هذا



الاحترام هو الذي أعطى التقليد قوته ، لا بل أعطى ، الى حد ما ، كل سابقة قيمتها . وكان هنالك الاعتراف بالقوى المتجسدة في غير العدد الأكبر . وكان هنالك ما ينتزع قبول الفرد بالانتماء الى المراتب التسلسلية ، النفوس الى النظام والنظامية . وكان هنالك ما ينتزع قبول الفرد بالانتماء الى المراتب التسلسلية ، أعني به الشعور بأن الانسان يوازي بما يمثله ، لا سيما في ماضيه ، اقله ما يوازيه في حاضره . وقد اسهم كل ذلك في اقرار سيطرة مجلس الشيوخ . ولم يفت هذا الاخير ، على كل حال ، ان يلجأ الى بعض التمييزات المفيدة : فقد أصدر حكمه مثلاً ، في تعاليمه حول الماضي ، على الملكية وبرع في إزالة أضرار رواستها في مناصب القضاء العليا . وتهيب بنا هذه الملاحظة الى ان نذهب في بحثنا الى ما وراء المثالية : فكما ان المؤرخ لا يستطيع نكران ما تنطوي عليه مشاعر واعتقادات الجماعة من أثر خاص في تحديد حياتها السياسية ، كذلك لا يستطيع ان يتجاهل ان هذه العوامل الروحية تقتصر في أغلب الأحيان على السموم بوضع رامن وان اتفقا مع غيرها يقرر على كل حال أهميتها العملية .

ان التحاليل السابقة تناولت عن قصد ، في الدرجة الاولى ، عهداً يبتدئ في السنوات الاولى من القرن الثالث ويمتد الى الاربع الثلاثة الاولى تقريباً من القرن الثاني . في هذا العهد ازدهر في كماله ، بعد ان تعرض لعاصفة قبل ذلك ، ما يجب تسميته بالنظام المجلسي . فهو قد نشأ ، بهذا الشكل ، عن الحرب البونيقية الثانية التي نسبت هزائمها الاولى ، لا سيما هزيمة بحيرة ترازيمينسا و«كانا» ، الى قواد شعبيين سبق لهم ان حاربوا مجلس الشيوخ . ومنذ «كانا» ، وحتى نهاية الحرب ، نهض هذا الاخير ، بسبب احداث المخاطر وتعدد الجبهات الحربية وتغيب عظام القضاة وعدد كبير من المواطنين المجندين تغييباً شبه مستمر ، وطيلة خمسة عشر سنة تقريباً ، بمهمة الحكم غالباً ، والتنسيق دائماً على الاقل ، وقد نهض بذلك وحده . او باستخدام قضاة من المراتب الدنيا كالحامين عن حقوق عامة الشعب . وقد برهن آنذاك ، من جملة ما برهن عنه من صفات ، عن حزم وثبات امننا النصر لروما ووفرا له سلطة لم يعرفها من ذي قبل . وان كثيراً من الطرائق والسوابق التي لجأ اليها بعد ذلك قد ظهرت اثناء الحرب حولاً موفقة ، وما كان تعاقب النجاحات العسكرية الكبرى في القرن الثاني ليستطيع الانشاء عنها .

بيد ان سيطرة مجلس الشيوخ ، حتى في هذه الحقبة ، قد ارتكزت الى سبب آخر غير الانظمة ومهارة احد اجزتها في جعلها تخدم مصلحتها بالذات . فالنظام المجلسي قد منح السلطة طبقة عبر وجودها الرامن ، دون ان يكون له بعد اي طابع رسمي ، عن شراكة في المصالح . ونحن سنعود الى هذا الواقع الاجتماعي في سياق البحث . بيد ان الاشارة تجدر منذ الآن الى ان الشيوخ كلوا آنذاك اوسع المواطنين ثروة واعظم الملاكين العقاريين ، وانه كان لديهم « زبن » عديدون سيطروا بواسطتهم على الناخبين ، وان مصاهرات متبادلة كثيرة قد جمعت بين عائلاتهم ، وان ابناءهم كانوا يدخلون « مراتب الاجداد » بقوة ويدخلونها وحدهم تقريباً ، وان « نبلاء »

مجلس الشيوخ كانوا بمثابة طبقة ومناصب القضاء بمثابة وقف عليهم . وقد تتيح الاحصائيات الاستشهاد ببراهين عديدة تثبت هذا القول ، ولكننا نكتفي ببعض الارقام التي لا تحتاج بلاغتها الى اي تعليق . من السنة ٢٣٣ الى السنة ١٣٣ ، اي خلال مئة سنة ، تعاقب على روما مئتا قنصل ينتسبون الى ثمان وخمسين عائلة فقط ؛ لا بل حدث اكثر من ذلك ، فقد قدمت ست وعشرون عائلة ١٥٩ قنصلاً ، وعشر عائلات اخرى ٩٩ قنصلاً . فكيف لا يتحقق الاتفاق للابقاء على هذا الوضع واستثماره .

## ٢ - فشل النظام ونواقصه

على الرغم من ذلك انفجرت الأزمات، مرتدية باطراد مزيداً من الخطورة، حتى منشأ الأزمات الحروب الأهلية التي ستفضي الى النظام الامبراطوري . فيتوجب علينا من ثم البحث عن أسبابها وراء الرجال الذين تسببوا فيها .

كان أحد هذه الاسباب محتوماً ، كما رأينا ، اذ ان مجلس الشيوخ قد تساهل في استمرار حروب دائمة أو عجز عن ان يضع لها حداً : فحصل بعض القادة على المجد والغنيمة بانتصاراتهم وأمنوا تعلق جيوشهم التي غدت جيوشاً محترفة ، فوجد بينهم من يرفضون العودة الى الحياة المدنية حين يضمنون احترام أمثالهم . بيد ان الطموح الى السلطة ما كان ليراودهم لو لم يكن النظام ضعيفاً .

تسرّب الضعف بالفعل الى النظام عن طريق اختلافات الارستوقراطية المجلسية . فقد ساعد ضيق إطارها على تشكيل عصب من الدساسين حول بعض الزعماء . وقد لعبت العائلات العائلية في هذه العصب دوراً لم يكن حاسماً على الدوام لأن الحسد وحتى البغضاء قد ينشآن بين الانساب الأقارب : فان ب . كورنيليوس شيبون نازيكا سيرابيون وطيباريوس غراكوس ، والأول هو قاتل الثاني ، كانا ابنين لشقيقتين . وكان للصدقات او العداوات الشخصية والخدمات المتبادلة او منافسات الوظيفة دورها ايضاً . ويصطدم المؤرخون اليوم بعدم توفر المستندات لوضع دراسة عن هذه الاحزاب وتلعب تقلباتها التي من شأنها ان تلقي نوراً ساطعاً على أكثر من قرار من قرارات السياسة الرومانية . ومهما يكن من أمر ، فان تضامن النبلاء قد شابته الخلافات المتأصلة ، ولم تتراجع الاهواء الهائجة امام افطع الفضايح : فلم تكن حياة كاتون القديم مثلاً سوى سلسلة من دعاوى رفعها على غيره او رفعها غيره عليه ، كما ان شيبون الافريقي نفسه قد غادر روما ليقضي آخر حياته بعيداً عنها ، مختاراً النفي واثراً على البشر ومحترماً كل الاحتمار التهم الموجهة اليه .

وضعف النظام كذلك ، اخلاقياً ، باستثمار أسياده لسلطتهم استثماراً أنانياً . وقد شدّد بوليب على حرص القضاة الرومان في التصرف بالأموال العمومية وفضلهم بقوة على مواطنيه

الاغريق : « قد يضع الاغريق عشرة عقود ويفرضون عشرة أختام ويستعينون بعشرين شاهداً ، ولكنهم يعجزون مع ذلك عن القيام بوظائفهم بنزاهة . اما عند الرومان ، فبمكنة القضاة والسفراء التصرف بمبالغ ضخمة ، وهم يبرهنون عن نزاهة كلية احتراماً منهم لقسمهم فقط . » . بيد ان بوليبيد قد أشار ، في مقاطع أخرى ، الى تبدل هذه الاخلاق . أتاح حكم الأقاليم وقيادة الجيوش ، في الواقع ، الفرص للغوايات والتجارب القوية . فخضع لها أكثر من واحد ، كما خضع لنشوة السلطة المطلقة على اجساد وحتى على حياة الكائنات البشرية له . فقد ورد في احدى خطب كاتون ، الذي لم يجد المحرم ما يجيب به عليه ، ذكر حادثة قتل حقير اقدم عليه عند نهاية احدى الولايم ، ل . كوينكتيوس فلامينيوس نفسه ، القنصل السابق واخو بطل سينوسيغال ، كان ضحيته فارغاً غالياً يطلب الحماية ، وذلك لغاية واحدة هي ارضاء قرطاجي عزيز عليه أبدى الاسف امامه ، حين اضطر لمغادرة روما بسرعة ، لعدم تمكنه من مشاهدة مصارعة المسايفين . اضع الى ذلك عدم كفاءة عدد كبير من هؤلاء الرجال السياسيين الذين تسلموا القيادة ارجحاً ولم يمارسوها وقتاً كافياً لاكتساب خبرة تعوزهم . فلا غرابة اذا ما توفرت الفرص الكثيرة لأعداء مجلس الشيوخ لاحتقار النظام كله من وراء الافراد المسؤولين .

وقد انضم الى كل ذلك ما هو أدهى : اختلال التوازن الاقتصادي والاجتماعي الناجم عن الفتوحات . فقد قامت في روما طبقة من المواطنين الكادحين ، المتزايدين عدداً ، المستعدين للاندفاع وراء كل تيار وللاشتراك في كل ثورة . فسيطر الخوف ، باكراً جداً ، على الطبقة الحاكمة ، من امكان تأثير بعض القادة الحربيين النافذين على هذه الطبقة . ولكن الخطر داهمها من جهتين . فحصرت همها في محاولة إحكام هؤلاء الرجال بتنظيم ارتقايم وإيقافه . ولم تفكر بالاضلاحات - او لم تعقد العزم عليها - أي بالتضحيات التي كان من شأنها ان تخفف من الخطر الثاني ، الحقيقي ، الذي أثاره وجود الجماهير الشعبية في المدينة والقلق المسيطر عليها . وكان الأوان قد فات حين حاول شيوخ ينتسبون الى العائلات الشهيرة ، آل غراكوس وأصدقائهم ، تدارك الداء . ولكن أكثرية المجلس الساحقة تكتلت ضدهم ولجأت هي نفسها الى العنف الفوضوي في سبيل محاربتهم . فجاء موتهم انتصاراً لها - وفي الواقع حكماً عليها بالزوال .

ان الاضطراب الذي ابتداء على هذا الشكل لم يعرف نهاية حقيقية . فتقابلت  
 الفوضى  
 والحرب الاهلية  
 فئتان منذ ذلك الحين تضطرم فيهما احقاد متبادلة : فئة « الشعبين » وفئة « الافاضل » ، وقد ساندت كلا منهما مداورة فئة الفرسان . ولكن فئات النخبة الاجتماعية ، حتى ولو اتحدت حين يتضح خطر الثورة ، ما كانت لتستطيع التغلب على الديموقراطيين ، الذين يفوقونها عدداً ، الا باللجوء الى الرشوة والتحويل ، والقوة عند الحاجة .

فدرجت العادة ، عند الطرفين ، على ان لا يتراجعا امام اية مغالاة في سبيل السيطرة على

الشارع والجمعيات ، وفرض مرشحيهما للانتخابات ، وشل عمل القضاة الذين حلوا هم زملاءهم على انتخابهم . وتوصلوا لان ينظموا فرقاً من الانصار ، وعند الحاجة من المسايفين العبيد حاملي الدبابيس والاسلحة الحقيقية في غالب الاحيان . ولنا في القرن الاخير العهد الجمهوري الف مثل عن اعمال عنف افضت الى معارك دامية يتقاسم مسؤولياتها الطرفان . ويكفي هنا ان نستشهد بالوقعة المفاجئة التي تصادمت فيها ، في شهر كانون الثاني من السنة ٥٢ ، على بعض المسافة من روما ، زمر العدوين ، كلودوس وميلون ، المهيجين المتطرفين المنتمين الاول للشعبين والثاني « للافاضل » . ومع ان السنة الجديدة قد ابتدأت ، فقد كانت المدينة دون قضاة في المناصب العليا ، اذ ان الانتخابات لم تجر ولم يعين « ملك مؤقت » فسقط كلودوس جريحاً ونقل الى منزل حيث اجهز عليه حرس منافسه . ولكن اصدقاء الضحية احرقوا ، في اليوم التالي ، قاعة اجتماعات المجلس ، فاستخدمت وقوداً لترميد الجثة . ففرقت روما في الفوضى .

وغرقت في الحرب الاهلية ايضاً ، لانه كان من الحتم ان تستدعي اضطرابات الشارع ، عاجلاً ام آجلاً ، تدخل الجوقات . وكانت الجوقات في قبضة قادتها الذين نزعوا بصورة طبيعية الى ان يجمعوا بين قضيتهم الشخصية وقضية الفئة التي هم مدينون بالقيادة لعضدها . كانوا في البدء لا يزالون يحترمون الشرعية ، فاكتفوا باستخدام رصيدهم لدى الشعب واخلص جنودهم القدامى . ولكن هذا التحفظ ما كان ليستم ، فخطا الخطوة الحاسمة ، مرة اخرى ، على غرار ما حدث حين قتل طيباريوس غراكوس ، احد افراد فئة « الافاضل » . فسيلاً هو الذي حقق ، في السنة ٨٨ ، اول انقلاب عسكري باقحام جيوشه في « المدينة » حتى داخل الاطوار الذي لم يسمح للقادة والجنود بدخوله الا للاحتفال « بموكب النصر » . كانت هذه سابقة اسرعوا من الجهة الثانية الى الاقتداء بها . فتحول التنازع السياسي الى حرب اهلية تزيد من مجد وطموح اولئك الذين كانوا يتزعمونها . وكان من شأن قهر جيش الخصوم ، وهو اشد ضماناً من هياج جمعيات الشعب ومن سلطة مجلس الشيوخ من حيث انه يسمح بتحطيم الحواجز الشرعية بضربة واحدة ويجعل الاغتيا ل عملية رسمية عن طريق لوائح المحكومين بالقتل دونما محاكمة ، ان يولي السلطة ، اي سلطة من السداجة الاعتقاد بان مستلمها سيتخلى عنها دائماً ، على غرار ما فعل « سيلا » بعد ان سن للجمهورية قوانين جديدة .

فئات النظام الجمهوري تاركاً المكان للملكية الامبراطورية .

نواقص المدينة الجمهورية  
بعد تفكيك هذا التلاحم ، لا تستدعي نواقص النظام الأخرى درساً طويلاً . بيد انه تجدر الاشارة اليها على الاقل : فكما ان المدينة لم تعرف كيف تكيف بجيشها وحكومتها المركزية على الحاجات الناجمة عن الفتح ، كذلك لم تفلح في القيام بمهمة الادارة اليومية قياماً حسناً .

اجل لم تشك قط من عجز مالي . فقد عرفت في الحقيقة ، خلال الحرب البونيقية الثانية ،

صعوبات من هذا النوع حين اضطرت لأن تعرف من احتياطيها الذهبي لسكه ، ولتخفيض وزن القطعة الفضية ، الدرهم ، بمعدل السدس ، ولرفع قيمته مع ذلك من عشر قطع برونزية الى ستة عشر ، ولضاعفة الضريبة المباشرة المفروضة على رأس المال مرتين وحتى ثلاث مرات ، ولخلق حماس متفاوت التلقائية في مواطنها الأثرياء بغية الحصول منهم على قروض او هبات . ولكن النصر وضع حداً لهذه المتاعب التي زالت نهائياً . فقد أفضت حروب القرن الثاني العظمى ، في بلدان الشرق الهليني ، الى كسب غنائم ضخمة كانت تودع الخزائنة العامة بعد استعراض كل من مواكب النصر ، وتعدت الخزائنة ، بالإضافة الى ذلك ، من تمويزات الحرب التي كانت تدفع أقساطاً ، ولا سيما من موارد الأقاليم ، كالضريبة السنوية ودخل الأملاك العامة ( المناجم بنوع خاص ) . فقدت المدينة على جانب من الثروة استطاعت معه ، منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ان تلغي الضريبة المباشرة المفروضة على مواطنيها : ولم تجب هذه الضريبة بعد هذا التاريخ . وفي السنة ١٢٣ أخذت تصدر ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي أرغمت الدولة ، وفاقاً لتطورات النزاع بين الاحزاب ، على بيع القمح للمواطنين بسعر مخفض تارة ، وحتى على توزيع بعضه مجاناً تارة أخرى : وحين فرض قيصر دكتاتوريته ، كانت لوائح المستفيدين من هذه الاعطيات العمومية السخية تضم ٣٢٠ ٠٠٠ اسم .

بيد ان هذا اليسار المالي ارتبط الى حد بعيد بطابع جهاز الدولة الذي بقي بدايئاً جداً . فاذا ما استثنينا مرتبات العسكريين والطريقة الخاصة المعتمدة في تموين المدينة عن طريق بيع القمح بخصارة او توزيعه مجاناً ، انحصرت النفقات الرئيسية في العبادة والاشغال العامة . اجل كانت الألعاب التي تقام للترفيه عن الشعب في مواسم الاعياد الدينية باهظة النفقات ؛ ولكن نظار الابنية والطرق الذين عاد اليهم أمر تنظيمها كانوا يتحملون نصيباً كبيراً من الأكلاف اهتماماً منهم بالدعوة الانتخابية . اما الابنية ، بالإضافة الى ان سخاء الافراد ، او اقله سخاء القادة من دخل غنائمهم ، قد ساهم بأكلافها أيضاً ، فما زالت في حالة وسط نسبياً : فقد نمت روما شيئاً فشيئاً دون نظام معين ولم تحاول بالتالي ان ترتدي مظهراً خارجياً لانقاً بقوتها ، ولن يحولها سوى الملوك خدمة لنفوذهم الشخصي ؛ ولا شيء من جهة ثانية ، باستثناء الطرق ، في ايطاليا والاقاليم . اما الاقتداء بالدول الهلينية العظمى ووعي ضروريات الحياة المادية فلم يصبها أمراً ملحاً إلا ببطء ؛ واستمرت روما في العيش كأنها مدينة صغيرة ، مستشهدة مبدئياً بتقاني واعتزاز مواطنيها الاولين بغية التقليل الى أقصى حد من نفقات ضرورية لتحقيق المهام الجديدة الملقاة على عاتقها . ولم يتقاض الشيوخ والقضاة والكهنة أي أجر اذ ان وظائفهم كانت « شرفية » . وقد عاونهم كتبة ومساعدون دائمون مختلفون تولت الخزائنة دفع أجورهم ؛ وكانوا كلهم من الفقراء لا يبلغ مجموعهم عدداً كبيراً ولم يؤلفوا يوماً دوائر قمينة بتأمين استمرار ادارة يتبدل المسؤولون عنها تبديلاً سريعاً .

لم يكن لهذه الادارة من وجود في الواقع ، أقله بقدر ارتباطها بالدولة . ولعل

أسوأ ما هنالك ان الدولة ، المتصلبة في تهرّبها من واجباتها ، سمحت بقيام ادارة خاصة حقيقية ، ادارة المزارع ، وتمادت في السماح لها بالعمل على حساب قوّتها الخاصة وفي سبيل القضاء على مرؤوسها : وان نظرة على تنظيم الاقاليم ومصيرها سيلقي ضوءاً على هذه المغالطة الظاهرة .

لم تحدث روما ، طالما هي لم تبسط سيادتها الا على ايطاليا ، اي جهاز خاص لممارسة الاقاليم هذه السيادة . فقد عاد امر مراقبة سلوك الجماعات المحلية ، في اطار الاستقلال ، الى مجلس الشيوخ والقضاة العاديين . وكان باستطاعة هؤلاء ان يفوضوا الحكام « *Préfets* » بتأمين هذه المهمة : وقد وُجد هؤلاء في كمانيا بنوع خاص ، عينهم قاضي المدينة العدلي في البداية ، ثم انتخبهم الشعب ، بغية توزيع العدل . بيد ان النتائج اتت متوسطة فقط وغالبا ما افسدها تحمّ القضاء ، فحاول قيصر ادخال النظام الى هذا التنوع وتنظيم الحكم المحلي في الوقت نفسه تنظيمياً اقرب الى الديموقراطية ، بواسطة قانونه « البلدي » . غير ان الشكاوى لم تكن قط عامة او خطيرة .

ولكن روما ، منذ منتصف القرن الثالث ، سيطرت وحافظت على اراض تقع وراء البحر - صقليا في الدرجة الاولى - فتوجب عليها استنباط نظام جديد : فقدت هذه المناطق « ولايات » . وقد عنى هذا التعبير في البدء ، ولمدة طويلة جداً ، المهمة المسندة الى احد القضاة ، اي صلاحيته الخاصة : السلطة القضائية ، وقيادة الاسطول وادارة الحرب الخ . فصدر شيئاً فشيئاً عن هذا العمل الاخير ، الذي كثيراً ما يقوم به قضاة المناصب العليا ، مفهوم الاقليم ، اي الاقليم حيث تدور العمليات ، او الاقليم المحتمل المسندة ادارته الى حاكم ، اي الى قاض . وقد درجت العادة ، حتى سبيلاً ، على ان لا تتجاوز مدة الاسناد سنة مهمة القاضي . ولكن تطور المفهوم هذا لم يزل مفهوم المهمة الفردية : فالرجل الذي يتسلم اقليماً من الشعب الروماني ، يتسلم منه تفويضاً بجميع سلطاته على هذا الاقليم ؛ وكان من جهة ثانية يتمتع فيه « بالسلطان » العسكري الكامل .

كان من شأن هذا النظام ان اخضع الاقليم الى تبديلات متكررة في الحكام : وقد حدث ذلك مبدئياً ، وعملياً كل سنة ايضاً في اغلب الاحيان ، حين لا « تمدد » ولاية القاضي . وقد اخضعه بنوع خاص الى تعسف الحاكم ، بسبب السلطات الواسعة التي يمنحها هذا الحاكم ، الحق الذي يؤتبه اياه النصر . اجل لقد اقر « قانون الاقليم » حين إنشائه ؛ وكان هذا القانون له بمثابة الدستور ، يحدد بقمته ويعين النظام الخاص بالمنوح ، مثلاً ، للمدن التي عقدت معاهدة مع روما واستحقت صفة « المتحدة » - وقد اعترف ببعضها « حرة » احياناً - ويبين مبلغ التعويض المفروض ، وكيفية استيفائه ، الخ . ولكن الحاكم ، ممثل سلطة روما وقوتها ، المتمتع بحق توزيع العدل ، البعيد عن كل رقابة او خطر باستثناء خطر الدعوى التي قد ترفع عليه بعد عودته الى ايطاليا ، كان حراً طليقاً في اخضاع سكان الاقليم لتطلباته حتى غير الشرعية ناهيك عن التسهيلات التي وفرتها

له بعض العادات كالتلاعب في الرسم المفروض على الخنطة ، وهو يختلف عند الشراء عنه عند البيع ، او كالواجب المفروض على الاقليم بتأمين معيشته ومعيشة بطانته .

الى هذا الاعتصاب يقدم عليه السيد ، انضاف اغتصاب المزارعين . فالجمهورية الرومانية لم تحاول قط ، في الحقيقة ، تنظيم اقل ادارة مالية ، لالنفقات الخزانة ولا لواردها ولا لاستثمار املاكها العامة . وقد وكلت هذا الامر الى مزارعين هم على العموم جمعيات ذات شأن كثيراً ما تفرض نفوذها على الحكام المكلفين مبدئياً مراقبة اعمالها . وقد ارتبط هؤلاء بها باشكال مختلفة ابتداء من الرشوة حتى التهديد بالتشهير تلميحاً او تصريحاً . وقد شاركها الكثيرون في ارباحها عن طريق وسطائهم . وقد تمتعت هي ، عن طريق ثروتها واشخاص اعضائها ، بنفوذ سياسي عريض في روما ، لا سيما حين قضى « القانون العدلي » ، الذي سنه كايوس غراكوس ، باستدعاء الفرسان ، اي اعضائها واصدقائهم ، كمحلفين في المحاكم . وبعد ان توسع هذا الحق ، ثم الفاه سيلا ، ثم اعيد في اعتقاب الدعوى التي هاجم فيها شيشرون قاضي صقليا العدلي السابق ، فبريس ، جعلهم اسياء دعاوى سرقة الاموال العمومية المسلطة على الحكام . اجل لجأت المدن والملكيات اليونانية ايضاً الى تلزيم الاموال بغية تجنب انشاء ادارت دقيقة . ولكنها جزأت التلزيم ، وغالباً ما افترطت في التجزئة ، ومارست مراقبة شديدة على الملتزمين ، حائلة دون حصولهم على قوة اجتماعية وسياسية . اما الرومان فلم يحافظوا على هذا النظام الا في صقليا والغوه في المناطق الاخرى كما حدث في المملكة الاطالية القديمة التي اصبحت الاقليم الآسيوي . فقصروا في واجباتهم الاولى نحو انفسهم ونحو رعاياهم بسبب افتقارهم الى ذوي الاختصاص ، وخوفهم امام تعقيد المعضلة العملية ، وانانيتهم وقسوتهم كفاتحين يعتبرون كل شيء جائزاً للمنتصرين . وكان من مصلحتهم في الحقيقة تأمين بقاء الرعايا ، فحدوا من جهة ثانية ، من حريتهم الشخصية بساحهم لارستوقراطية مالية ان تنمو وتصبح الحكم في نزاعاتهم الداخلية .

كانت الاقاليم اذن خاضعة لاستثمار لا حد له تقريباً . فحتى ولو لم يل الحكم الاقليمي حرباً حقيقية واسند الى هذا او ذلك بمناسبة الفوز بقضاء عدلي او بقنصلية ، فانه قد بات وسيلة طبيعية لاعادة بناء ثروة بذرها بذخ الحياة في روما او النفقات الانتخابية . ومع ان شيشرون كان حاكماً زهياً على كيليكيا في السنة ٥٠ ولم يقيم سوى بحملة قصيرة ضد الجلبيلين المساكين ، فقد جمع بعد انقضاء السنة ما يعادل ٥٥٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤ . اضع الى ذلك ان الاقاليم قد تعرضت لغزو « تجار » من جميع الطبقات ، بينما لم يكتف عملاء الملتزمين بفرض ما يفوق حقهم في جباية الضرائب او بفرض الأشغال الشاقة في المناجم والمهاجر والاملاك العمومية الاخرى الملتزمة ، بل عمدوا ، لا سيما مع الجماعات ، الى الربى الفاحش - ٤٨ ٪ واكثر احياناً . وقد حمل الحكام على الحكمة ما حدث للوكولوس الذي اراد وضع حد لفضيحة هذا الربى والذي افضت المعارضة الفعالة لدى جنوده انفسهم ، في السنة ٦٧ ، الى فقدان حظوته وانزاهمه ، فتفاوضوا عن كافة هذه التصرفات ، لا بل اشتركوا فيها احياناً باقراض جيوشهم والحكم في الدعاوى .

ذاك كان منذ القرن الثاني ، واستمر حتى عهد الامبراطورية ، النظام السائد في الاقاليم الرومانية . وكان منه في الحقيقة ان ادخل عوامل فوضى إضافية الى مدينة شكت من المزيد منها . فليس هنالك من دولة ؛ وليس من وحدة وحتى من تضامن ؛ وليس من ادارة ، بل اقاليم معزولة لكل منها حاكمها الذي هو ملك يتمتع بسلطة مطلقة وسريعة الزوال في آت واحد ، وارض توفر المال والاسلحة احياناً لأسيادها في ثوراتهم على الحكومة المركزية ، وبلدان نهبت أثناء الفتح واستثمرت بعده دونما شفقة ، لا لمنفعة المجموع بل لمنفعة مواطنين أثرياء ، وشعوب انتزع منها ليس استقلالها فحسب بل ممتلكاتها المادية ايضاً ففدت مستعدة لاستقبال أي محرر : فبعد انتصار ميتريدات مثلاً ، شفى العالم اليوناني غليله في السنة ٨٨ بتقتيل ٨٠٠٠٠ روماني وايطالي في آسيا الصغرى ، و ٢٠٠٠٠ بعد ذلك في ديولوس ، بينما كان ملك البونت – ولكن التقليد يعرف كيف يبتدع الأماليح الرمزية والكلمات التاريخية – يسكب الذهب المذوّب في فم احد القناصل السابقين .

ليس من ريب في ان الجمهورية قد تركت ، عند زوالها ، عملاً ضخماً شاقاً للنظام الذي سيخلفها .

## النظور الاجتماعي والاقتصادي

اذا لم تكيف المدينة الجمهورية أنظمتها ، بسبب لامبالاتها او عجزها ، وفاقاً للنتائج المباشرة وغير المباشرة التي أدى اليها الفتح ، فقد أصبح من المحتم ان يقلب هذا الأخير ظروف حياتها الاقتصادية والاجتماعية رأساً على عقب . وان التطور الذي نلاحظه في هذه الحقول لمن أشدّ الاحداث تأثيراً في تاريخ العصور القديمة من حيث اتساعه الخاص ومن حيث انعكاساته .

فليس من تبدل ، في أي مكان ، اعظم بروزاً منه في جهاز ونوع حياة الطبقة الحاكمة ، تلك التي توفر لنا مستنداتنا حولها مزيداً من المعلومات .

### ١ - الطبقة الحاكمة

كانت روما في البداية مدينة فلاحين يتعاطون الزراعة وتربية المواشي . الاقتصاد والمجتمع الاوليان وقد بقيت الحياة البسيطة التي يمارسها في الحقول ملاك يعنى بقطيعه ويمحرت ارضه بنفسه ، مثلاً قومياً أعلى ، وان كان على العموم مثلاً مبتدلاً كما هو طبيعي . ولكن التربة الرومانية بالذات ، لم تكن صالحة جداً للاستثمار الريفي حتى ولو صرفت مياهها وفاقاً للتقنيات الاثروسكية . لذلك فان روما وسكانها قد لبوا دعوة أخرى ، هي دعوة موقع روما كمدينة - جسر هي أقرب المدن الى مصب التيبر حيث يتوجب على الملاحه البحرية ان تفرغ شحناتها وحيث تلتقي بالتسالي طرق برية او مختلطة : احداها موازية للساحل تقريباً ، من اتروريا الى كمانيا ، والثانية تحاذي النهر وتسير عليها المواكب التي تنقل الملح - ولذلك سيطلق عليها اسم « طريق الملح » - قاصدة جبال « الابين » الوسطى . فيتضح بالتالي ان نشاط روما التجاري قديم جداً حتى قبل ان يجعل منه تزايد سكانها امراً واجباً ويفرض استيراد كميات متزايدة من الحبوب لسدّ نقص الانتاج المحلي . فلا مجال بالتسالي ، منذ عهد مبكر جداً ، لأن نهمل - الى جانب الريفيين - مدينين نشيطين ايضاً مع انهم يعيشون حياة اخرى .

فهل يحدر بنا التشديد على هذا الخلاف لتفسير توزيع المواطنين منذ القدم الى طبقتين ، طبقة

الأشراف وطبقة عامة الشعب ؟ منذ زمن قديم تناولت معضلة أصول هذا التوزيع الاجتماعي الثنائي حولاً مختلفة جداً : ومن الجراًة ، حتى اليوم ، ابداء رأي قاطع في هذه الاصول . اما في الواقع ، فحين يتراءى الفرق بين هاتين الفئتين من المواطنين ، أي حين يبدأ التقليد ، الذي يشك بالكثير من رواياته وتفسيراته ، في الكلام عن النزاع بينها ابتداء من اوائل القرن الخامس ، تبدو طبقة الاشراف كأرستوقراطية من الملاكين العقاريين وطبقة عامة الشعب كطبقة مؤلفة من عناصر مختلفة جداً يتجاور فيها صغار الملاكين الاحرار والصناعيون والتجار . ومهما يكن من الامر ، وحتى ولو سلنا بان الاختصاص الاقتصادي كان له دوره في اصل هذا التوزيع ، فان خلافات اخرى متنوعة قد برزت وارتدت مزيداً من الاهمية .

كان الاشراف وحدهم في الواقع منظمين عائلات كبرى *Gentes* يحمل كافة اعضائها اسم (*Gens*) ، مما فرض استعمال اسماء شخصية وحق القاباً . وقد تفرعت هذه العائلات الى عائلات صغرى خضعت كل منها الى سلطة « ابي العائلة » (*Pater familias*) وكان لكل منها تقاليدهما ، واعرافها وعباداتها الخاصة ، واملاكها المتجاورة على العموم ، الجماعية احياناً ، والمتمتعة ، على الاغلب ، بلمتياز اشبه بحق استرداد المبيع منها . وبالإضافة الى افراد العائلة (*Gentiles*) حفدة جد الـ (*Gens*) او المرتبطين بذريته بالتبني ، كانت للعائلة « زبنا » ايضاً اي اناس « يسمعون » كلمة السيد ، مروؤسون تقليديون بالوراثة . وكان بين هؤلاء معتقون ، ولكن واحداً منهم لم يمتلك كثيراً من العبيد بعد . ولذلك فقد كانوا في اغليبيتهم رجالاً ، وفلاحين احياناً ، وضعوا انفسهم ، لاسباب مختلفة ، اقتصادية احياناً ، تحت حماية احد المقتردين القانونية والمادية ، « نصيرهم » ، متمهدين له بالمقابلة بان يسيروا وراءه ويساندوه حتى باموالهم في بعض الحالات . اجل ان قيام الروابط بين رجل ورجل ، احدهما يحمي الآخر ويدخله في خدمته ، له ما يشبهه في كثير من المجتمعات القديمة وحتى من مجتمعات احدث عهداً . ولكن هذه الروابط لا تبرز في أي مكان آخر أعظم اتساعاً وفعالية منها في روما لأن نظام الاستزلام (الزبن) الذي كان في البدء خاصاً بطبقة الاشراف قد اصبح شيئاً فشيئاً نظاماً عاماً استفاد منه كل غني ومقتدر ، وأثر ، حتى النهاية ، في تنظيم وحياة المجتمع الروماني . وقد سمح هذا النظام ، في تلك الأزمنة القديمة ، لبعض العائلات بتأليف مجموعات بشرية هامة : يقال ان عائلة فابيا (*Fabia*) كانت تضم ، في السنة ٤٧٩ ، بالإضافة الى ٣٠٦ افراد ، ما بين أربعة وخمسة آلاف « زبون » . فيظهر جلياً ان هذا التأثير على أعضاء الطبقات الدنيا ، بالإضافة الى الدور العسكري الذي لعبه الاشراف بفضل ثروتهم وتربيتهم ، قد وفر لهم احتكار السلطة السياسية الوطيد العلاقة باحتكار الحماية والرعاية .

بيد ان بعض « الزبن » ، على الرغم من مساعي الاشراف - ان قانون « اللوحات الاثني

عشرة يعاقب بخيانة الزبون - وحتى دون زوال العائلة ، قد حطموا هذه القيود ، منذ عهد باكر جداً ، للاتحاق بعامية الشعب او للعودة اليها . فهنا لا يجد الانسان نفسه محاطاً بمثل هذا النظام الديني والاقتصادي والاجتماعي . وقد تمسك الاشراف بهذا الفارق ضناً منهم بامتيازات طبقتهم ، فرفضوا زمناً طويلاً الاعتراف بشرعية الزواج المختلط ، في حال انهم وافقوا عليها دوغماً صعبية ، وعلى قدم المساواة ، بينهم وبين عائلات نبيلة من مناطق ايطالية مضافة الى الارض الرومانية ، شرط ان يكون تنظيمها شبيهاً بتنظيمهم . وجهلت عامة الشعب المجموعات العائلية التي لم تظهر فيها إلا تدريجياً ، خالية من معناها الحقيقي . وكذلك ، فقد اختلف اختلافاً يبتاً ايضاً التنظيم الجماعي ، المتميز ، الذي جعل من العامة ما يشبه مدينة قائمة بذاتها لها قضاتها الذين انتخبتهم ليدافعوا عنها ضد طبقة الاشراف ، ومرد ذلك الى ان هذا التنظيم كان مستقلاً عن الورافة والاطارات الاجتماعية التي ترسمها ، والى انه وضع جنباً الى جنب مواطنين متساوين مبدئياً .

أفضى هذا الصراع الطويل والعسير احياناً الى بلوغ المساواة المدنية  
 اتيار طبقة الاشراف  
 وطبقة النبلاء  
 والاجتماعية والسياسية بصورة تدريجية ، فكانت النتيجة المحتمومة انهيار  
 الطبقة المحظية .

حافظ الاشراف على حقهم في بعض وظائف كهنوتية نادرة جداً او على وظائف يغلب عليها الطابع الديني كوظيفة الملك المؤقت مثلاً . وقد احتفظوا كذلك بأولوية أدبية من الصعب جداً ، على كل حال ، تحديدها ومعرفة مداها : فقد احترم الرومان نظام المراتب المستند الى التقليد . وبما يدعو الى البهشة البظه الذي رافق ظهور بعض مبادئ المساواة في الوقائع بعد بلوغها . فهكذا بعد ان حصل الشعبيون في القرن الرابع على حق اسناد احد مناصب القنصل او قاضي الاحصاء الى احدهم بالضرورة ، انتزعوا ، في منتصف القرن الثالث ، حق شغلها كليهما في آن واحد . ولكن القنصلين لم يعينا من بين عمامة الشعب ، للمرة الاولى ، الا في السنة ١٧٢ وقاضي الاحصاء الا بعد القنصلين باربعين سنة ، ولم تدرج هذه التجديدات في الاعراف والاعداد . لابل ان نسبة الاشراف في كافة الاجهزة الحاكمة ، باستثناء مناصب قضاة عامة الشعب فقط ، قد بقيت مرتفعة اذا ما قيست بعددهم الحقيقي .

بيد ان هذا الواقع ليس ذا شأن لانهم ما كانوا ليجدوا فيه سوى ارضاء لانانيتهم او دور اية دون اثر سائد لا يحسب لآرائهم فيه اي حساب . فقد اسهم كل شيء في ان ينزع عنهم طابع الطبقة المتميزة بنوع حياتها : تكرر الزواج المختلط وتراخي زوابط استلام الزين الذي غدا اوسع شمولاً ، وتجزئة الاملاك العقارية العائدة الى عائلاتهم ، واثرء عناصر اجتماعية اخرى . ومن جهة ثانية اخذ عددهم بالانخفاض لان انضمام العائلات الجديدة اليهم بعد انصارها في المدينة الرومانية قد زال منذ القرن الثالث : ففي آخر الجمهورية ، على ما نعلم لم يبق هنالك سوى اربعة

عشر من هذه العائلات الكبرى تضم ثلاثين عائلة صغرى تقريباً . وبالاختصار ، فان الماضي ، على هذا الصعيد ، قد ادركه الموت ، وان الدم الجديد الذي وفره الاباطرة ، تمسكاً مفرطاً منهم بالشكليات الدينية ، لم ينجح قط في اعادته الى الحياة .

وقامت ارستوقراطية اخرى اطلق عليها اسم طبقة النبلاء « Nobilitus » وكان مقياسها في ذلك عضوية رئيس العائلة في مجلس الشيوخ : فهي قد جمعت اذن ، في آن واحد ، عائلات من عامة الشعب وعائلات من طبقة الاشراف . وقد فتحت ابوابها مبدئياً للجميع بمجرد الانتخاب لمنصب من مناصب القضاء . ولكن هذه الابواب قد اوصدت عملياً اذا ما نظرنا اليها كطبقة اجتماعية . ومرد ذلك الى انه يغلب ان ابناء الشيوخ الذين استطاعوا حضور جلسات مجلس الشيوخ وقوفاً وافادوا عن تضامن النبلاء اثناء الانتخابات قد دللوا على نقائص لا تعوض اذا هم لم يرتقوا سلم المراتب . وعلى نقيض ذلك فقد كان هزياً جداً حظ المرشحين الآخرين ، « الرجال الجدد » - ولا ينطوي هذا التعبير على مفهوم دقيق ، بل استعمل على العموم للإشارة الى اولئك الذين لم يتوصل واحد من جدودهم الى اعتلاء منصب ذي « سلطان » . وكان من الندرة المستهجنة وصول احدهم الى القنصلية : اربعة فقط ما بين السنة ٢٠٠ والسنة ١٤٦ ؛ اما في القرن الاول فقد كان شيشرون اول من توصل اليها في السنة ٦٣ ، بعد ماريوس الذي توصل اليها في السنة ١٠٨ .

وقبل ان يحظى النبلاء باعتراف الدولة الرسمي ، استفادوا من عادات راسخة في التقليد حتى يتميزوا عن الطبقات الاجتماعية الاخرى . اجل لقد فقدوا امتياز الخاتم الذهبي الذي شمل الفرسان قبل ان يشمل كافة المواطنين ، ولكن الطريدة الارجوانية المخطط على القميص من اعلى الى اسفل كانت عندهم اوسع عرضاً منها عند الفرسان . وكان لهم وحدهم الحق في انتعال الاحذية الحمراء . وكان لهم اخيراً « حق الرسوم » ، اي حق عرض اقنعة او تماثيل جدود العائلة المجيدين في المواكب الجنائزية .

وهكذا فان هذه الارستوقراطية التي برزت في القرون الاخيرة من العهد الجمهوري قد تمتعت بامتيازات وافرة جوهرية وشرفية على السواء . ومهما كان من أمر مجاحات الحركة الديموقراطية ، فقد تنكرت الذهنية الرومانية لعملية التمهيد والمعادلة . اجل يستحيل علينا نكران ما تنطوي عليه من أهمية قانونية التنازلات التي انتزعتها عامة الشعب من طبقة الاشراف خلال صراعها الطويل . ولكن هذه الاصلاحات قد عادت بالفائدة على رؤساء عامة الشعب بنوع خاص ، أي على اولئك الذين كانوا في الواقع مساوين لحصومهم . وقد برهنوا ، بعد بلوغهم مأربهم ، عن الذهنية الطبقيّة نفسها التي شكها منها جدودهم : فان والدا الاخوين غراكوس مثلاً ، الذي شغل منصب القنصلية مرتين ومنصب قضاء الاحصاء مرة واحدة ، لم يكن ، على الرغم من انتمائه الى عامة الشعب ، اقل عجرة ولا اقل قسوة نحو الوضعاء من أي شريف من الاشراف .

لم يكن هنالك مبدئياً من ضريبة « مجلسية » ولم يفرض قضاة الاحصاء ، لإبقاء احد الشيوخ على « اللائحة » ، حداً أدنى من الثروة . وكانت المزاحمة الانتخابية وطريقة الحياة المحترمة ، من جهة ، تفرضان نفقات باهظة ؛ ولكن الوظائف التي تمارس خلال الحياة السياسية كانت تتيح ، من جهة ثانية ، التعويض عن هذا الانفاق وتحقيق المكاسب بطرق تتفاوت نزاهة . فكان الشيوخ اذن من الأثرياء ، لا بل اوسع الرومان ثروة على العموم ، وكانت ثروتهم مجمعة في الممتلكات العقارية لأن تخصيصها لغاية أخرى كان محظراً عليهم نظرياً كما سترى ذلك قريباً .

هل احتفظ لهم ولأعضاء عائلتهم ، أثناء عمليات الاحصاء ، بالوحدات الثموية الفرسان المعروفة « بوحدات الفرسان » ؟ يبدو ذلك ثابتاً في البداية ، ولكن التطور اللاحق غامض في توقيتته وكيفياته الرسمية . فقد فقد المدلول الذي يحدده اسم الفارس معناه العسكري الاول . وبهذا المعنى ، كان الشيوخ وابنائهم ، هم ايضاً ، وهم خصوصاً ، من « الخيالة » . وبعد ذلك ، اي خلال القرن الثالث كأبعد حد ، تميز الاسم بفارق جديد بحيث لم يعد من الممكن ان يعني سوى « الفرسان » . وقد عني في الواقع المواطنين الاثرياء الذين لا ينتمون الى مجلس الشيوخ ؛ ويبدو ان الحد الأدنى للثروة للثروة الضرورية قد انتهى الى ما يعادل /١٠٠.٠٠٠/ فرنك ( ١٩١٤ ) في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، وهو معدل ضرائبي يخول حق الانتخاب وقد يكون هو نفسه ايضاً معدل الطبقة الاولى بين الطبقات الانتخابية الخمس .

تميز هؤلاء الفرسان خارجياً عن المواطنين الآخرين : فقد اجازت لهم عادة درج عليها منذ اواخر القرن الثالث بحمل الخاتم الذهبي والطريدة الارجوانية الضيقة ؛ واعطاهم قانون سنته كابوس غراكوس الحق في مقاعد خاصة اثناء التمثيليات المسرحية . ولكنهم افادوا من امتياز عملي هو اثنان من كل ذلك الى حد بعيد : كان باستطاعتهم ، على نقيض الشيوخ ، استثمار رؤوس اموالهم ، كما استطاعوا ، بسبب إقصائهم عن مناصب القضاء ، احتكار العمليات المالية في روما . اجل لم يتعاطوا جميعهم الشؤون الكبرى : فقد انتمى بعضهم الى بورجوازية المدن الصغيرة في ايطاليا ، وحتى الى بعض الملاكين العقاريين الذين اكتفوا بإدارة املاكهم . ولكن تعاوناً وثيقاً قد وحد هذه الطبقة التي ليس بمكنتنا تقدير عددها المتزايد باطراد بفعل انتشار الثروة . وقد افضى تعاونهم الى خدمة المضارين الذين اداروا مصالح ضخمة وتوصلوا في الحياة السياسية الى سلطة يبررها دورهم الاقتصادي ومركزهم المتوسط بين المجلس وخصومه ، ان لم يبررها عددهم . وبسبب عداوتهم للأناية المجلسية ، وللقوضى الاجتماعية بنوع خاص ، فانهم قد ساندوا هذا الحزب ثارة وذاك الحزب ثارة اخرى ، وقبضوا ثمن مساندهم تسهيلات في سبيل توسيع ثروتهم

ألّف الشيوخ والفرسان اذن نخبه المجتمع الروماني ، تلك النخبه التي عادت لها الثرورات والبذخ السلطة بصورة مباشرة او غير مباشرة . وقد توصل بعضهم ، لا سيما من بين

الشيوخ ، - اقله اذا صدقنا التقليد الذي يميل الى الاماليج وينقطع بالفضيل الى الاشخاص المنظورين - الى تكديس ثروات طائلة جداً . ويبدو ان اعظمهم ثروة كان ، كما يبدو ، كراسوس الذي أطلق على جدوده ، منذ عدة اجيال ، لقب « الاغنياء » ( *Dives* ) . فقد ورث ما قيمته ١٨٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ( ١٩١٤ ) ؛ ولكن مضاربات شتى ، ابتداء من تلك التي وفرتها له احكام « سيلان » بالنفي ، رفعت ثروته الى أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ، وعلى الرغم من الخسائر التي لحقت به ، فما زالت تقدر بـ ٤٢٥٠٠٠٠٠٠ حين انتقل الى الشرق حيث لقي حتفه . وبإستطاعتنا ان نستشهد بلوكولوس وبومبيوس أيضاً . ودون ان نعمم هذه الحالات الاستثنائية يمكن القول بأن ثروة تقدر بعدة ملايين - وليس من ضرورة لان تكون نقدية ؛ ولكن ذلك قضية اخرى - غدت شيئاً عادياً ، ابتداء من القرن الثاني ، في هاتين الطبقتين الحاكمتين . ولا يستحق النظام عملياً سوى اسم البلوتوقراطية ( حكم الاثرياء ) .

ولم ير الشعب في هذا القدر من الثروة ما يهين شعوره . لا بل ان خطب التآبين استندت اليه لتمجيد الميت . وقد نظر الرومان على اللوام الى مفهوم الملك والى العناد في الدفاع عنه وتوسيعه والى الاقتصاد وحتى الى البخل نظرهم الى ضرور من الفضائل . وان كاتون القديم الذي تظاهر ، في اول القرن الثاني ، بتكشف رومانيي الازمنة القديمة ، قد كره التبذير وتباهى بضبط ادارة املاكه ولم يتراجع امام اية وسيلة شرعية لتوسيعها : ففي نظره ، « عجيب والهي هو الانسان .. الذي يترك اكثر مما اعطي » . وقد شدد بوليب ، في كلامه عن سخاء شيبيون اميليانوس ، على هذا الطابع من الخلق القومي . « يبدو هذا السلوك ، عن حق ، حسناً في كل مكان . ولكنه يبدو في روما مدهشاً وذلك لسبب بسيط هو ان اياً من اهلها لا يعطي احداً مما هو له... فكلهم يبرهنون عن حرص مفرط في شؤون مصلحتهم » . وان ما اعجب به بوليب قد ادعش عتي تلميذه وصديقه ، المتربعين في المرتبة الاولى بين النبلاء ، على الرغم من انها قد استفادا من هذا السلوك .

في روما هذه حيث اعتمد المجتمع الرفيع ، فيما مضى ، تقديراً عسيراً ، وحيث قدمت الاطعمة للسفراء القرطاجيين المدعويين عند بعض الشيوخ في الاواني الفضية نفسها التي استعارها الشيوخ مداورة ، نشأت الفضيحة ، بالضبط ، من التبذير الذي ظهر في ازدياد الفخفة بنوع خاص ؛ فثار مهذبو الاخلاق على هذه الاخيرة واصدروا حكمهم عليها كهدامة للاملاك التي كان تسلسل درجاتها في الاساس من جهاز الدولة نفسها ، وكهدامة للانظمة القديمة الفردية والاجتماعية . ولكن الثروة اعطت نتائجها المحتومة في كل مكان ، لا سيما على رجال اتصلوا بشرق يفيض خبرة ودروساً فيما يعود للمذات الحياة المادية . ففرض كاتون ، دون جدوى ، العقوبات الصارمة ، خلال اعتلائه منصب قضاة الاحصاء في السنة ١٨٥ - ١٨٤ ، مخمناً على النساء وعرباتهم وعبيدهن الشبان الباهظي الثمن بما يوازي عشرة اضعاف الثمن الحقيقي وفارضاً

على رأس المال ، المقدر على هذا الاساس ، ضريبة توازي ثلاثة اضعاف الضريبة العادية . وحاولت القوانين « التقديرية » ، دون جدوى ايضاً ، اصلاح الاخلاق بالحد من الانفاق . ويطول بنا الكلام بسردها كلها ، ابتداء من قانون اوبيوس الهامى عن حقوق الشعب الذي سن بعد كارثة « كانا » والغي بعد سبع سنوات من الانتصار على قرطاجة على الرغم من معارضة كاتون ، القنصل آنذاك ، حتى قانون الدكتاتور قيصر ، وجميعها اربية في تفصيل ما منعه بصدد بهرجة النساء او الافراط في الانفاق على الولايم او بصددهما معاً ، ولكنها جميعها بدون جدوى ، اذ يكفي تكرارها لاثبات ذلك . اما منذ القرن الاول ، فقد غدا البذخ احد توابع مرتبة اجتماعية معينة : فقد درج شيشرون مثلاً على مداعبة صديقه اتيكوس بسبب اعتداله المفرط . وكان من الواجب امتلاك فندق خاص وحدائق في روما وبيتاً مزداناً بالثايل وزرائب للحيوانات وبيوتاً للطيور في مناطق مختلفة من ايطاليا ، وحتى على الشاطيء الكباني الذي يقصده المجتمع الرفيع صيفاً . كما كان من الواجب اقتناء جمهور كبير من العبيد الشخصيين وامناء السر والحوزيين والخدام : فقد اعتبر بؤساً متناهياً ان يضطر بومبيوس الهارب الى حل سيور حذائه بنفسه ، وقد انفق شيشرون ، خلال خمسة اشهر من السنة ٤٤ ، ما يعادل ٥٠٠٠٠ فرنك ( ١٩١٤ ) للمحافظة على مستوى معيشته الخاصة .

ليس من ريب ، من جهة ثانية ، كما شكنا من ذلك المعجبون بالتكشف القديم ، في ان عدوى هذه الاخلاق الجديدة قد اضررت احياناً بالدولة ؛ ولن نشدد على الفجوز والزنى والطلاق الذي انتشر ، خلال القرن الاول ، في صفوف الطبقة الحاكمة : لم يكن الرومان الاقدمون ليهتموا بطهارة الذكور ، وقد بدا تحرر النساء بنتائج اخرى كثيرة لن يرضى احد اليوم بان يثور ثأره عليها ؛ وعلى الرغم من الاشمزاز الذي ولدته بعض الفضائح ، فقد برهنت هذه الارستوقراطية ، في الحروب الاهلية ، انها لم تكن متخشة قط وان الكثيرات من نساءها قد تحلن بصفات الرجولة . ولكن وجه استخدام المال قد اسهم في الاساءة الى نظام في طريق الانهيار . فقد ازداد الانفاق في سبيل التوصل الى مناصب القضاء ، لاسيما وانها تقود الى وظائف تسهل معها اعادة بناء الثروة المفقودة ومضاعفتها . وقد درج نظار الابنية والملاعب على زيادة المبلغ الذي يخصصه مجلس الشيوخ للالعاب العامة فتنافسوا في تنظيمها ببذخ مبتكر : فكان من قيصر مثلاً ، في السنة ٦٥ ، ان وضع برنامجاً لتبارز ٣٣٠ زوجاً من المسايقين ، المهزين جميعهم بدروع فضية . وكذلك فان كل انتخاب ، على الرغم من قوانين غير نافذة تشبه بعدم جدواها القوانين « التقديرية » ، قد افضى الى افلات اللديسة من قيودها بشكل افساد مخز ، في الغالب ، لعب دوره في الدعاوى ايضاً بشراء المحلفين .

فلا غرابة والحالة هذه ان يلجأ كثيرون ، بعد انفاق دخلهم على الرغم من ضخامة ثرواتهم ، الى قروض تضمنها املاكهم ولاسيما ، في الواقع ، الثقة التي يوحياها مستقبلهم السياسي . اجل ان

شيشرون لم يعر الشؤون المالية عناية كبرى ؛ ولكنها ، طيلة حياته ، لم تترك له مجالاً للراحة ، في حال ان ممتلكاته يمكن ان تقدر بما يوازي ٧٥٠٠٠٠٠ فرنك تقريباً ( ١٩١٤ ) . وقد اعترف قيصر ، قبيل سفره الى احد الاقاليم الاسبانية الذي أسندت ولايته اليه بعد انتهاء سنته في منصب القضاء ، بأن ديونه تفوق كل ما يملكه بما يوازي ٦٠٠٠٠٠٠ فرنك ، مما حدا بدائفيه لأن يعضوا في الاعتراض على مغادرته روما حتى الساعة التي كفل فيها كراسوس هذه الزيادة . وتكفي هذه الامثلة التي يسهل علينا تأييدها بكثير غيرها لإظهار ركافة مثل هذا النظام القائم على الدين . فاذا ما انفجرت ازمة وألقت الرعب في قلوب الدائنين وحملتهم على رفض تجديد القروض وعلى إنذار المدينين بالدفع ، حصل انهيار شطر كبير من الارستوقراطية يزيد من خطورته انخفاض اسعار الممتلكات العقارية المعروضة للبيع . ويتضح بالتالي ان كثيرين من غير الفقراء قد ثقلت عليهم وطأة الديون ، وان تيارات الثورة الاجتماعية التي خلقها هذا الوضع اللوخيم ، « بمؤامرة » كاتيلينا في السنة ٦٣ وحتى أثناء دكتاتورية قيصر ، قد جمعت أكثر من مناصر ، ورؤساؤها انفسهم من افضل الطبقات العليا : « جمهور من الرجال الغارقين في الديون » ان لم يكن في جميع الجرائم التي اسرع شيشرون ونسبها اليهم . وكان كل ذلك ابعد من ان يدعم الطبقة الحاكمة والنظام .

## ٢ - الثورة الاقتصادية

ان الوقائع التي اوردها أعلاه تعود الى القرن الاخير من العهد الجمهوري بنوع خاص : فالداء الذي كشفت عنه قد ارتدى اذ ذلك مزيداً من الخطورة . ولكن اعراضه قد برزت قبل ذلك لأنه النتيجة المباشرة للثورة الاقتصادية التي فجرتها الحروب الطافرة والفتوحات .

### ١ - جمع رؤوس الاموال في ايطاليا

غدث روما شيئاً فشيئاً سيّدة شبه الجزيرة الايطالية فاتسع أفق علائقها التجارية . وقد توجب عليها ان تعوض عن نقص انتاجها الزراعي باستيراد الحبوب من الخارج . وتوجب عليها ايضاً ، اقله لتسليح جنودها ، ان تضاعف مصنوعاتا او تتوفق الى اقتناع من يعمل لحسابها في المناطق الأخرى . وفي الواقع قامت في ايطاليا اقاليم اخرى أعظم خصباً وتقدماً تقنياً من « اللاتيوم » : اتروريا (الأتروسك) وكمانيا واليونان الكبرى . فلجأت روما اليها منذ عهد مبكر ، أي زمناً طويلاً قبل اوائل القرن الثاني التي شهدت اخضاعها لسهل « البو » الخصب اخضاعاً نهائياً . وهكذا زادت حاجاتها وعملها بفضل الوحدة الاقتصادية في شبه الجزيرة التي سبق للتوسع الأتروسكي والتجارة اليونانية ان مهّدا لها تمهيداً عريضاً . وقد سبقت هذه الوحدة الاقتصادية في الزمن الوحدة المعنوية التي خيبت متانتها آمال هنيبعل . ومن حيث ان الواحدة دعمت الأخرى ، فقد حصل شيبليون من المدن

احتلال ايطاليا وتوسيع مصالح روما الاقتصادية

الأتروسكية على مؤن هامة وتلقائية من المنسوجات والعتاد والحديد والاسلحة على انواعها فجهز الاسطول والجيش المعدن لمحلته على اريقيا في السنة ٢٠٤ ، ولا ريب في ان اتوروا قد امتلكت آنذاك قوة صناعية وضعتها تحت تصرف روما . ولكن ليس مدهشاً ان تجمع في ذلك التاريخ بين قضيتها وقضية الرومان لأنها ارتطبت منذ امد بعيد بجهاز المحالفات الذي أقيم في ايطاليا . فالمدش المدش هو الوضع السابق للوحدة المعنوية حين لم يكن لدى روما شيء تعوض به عما يأتيها من الخارج . وقد يجوز الاعتقاد بأن قوة روما العسكرية ، منذ القرنين الخامس والرابع ، قد وفرت لها ، بفضل الغنيمة والاحتلال ، المساعدة الضرورية ، ويقول التقليد بأن المرتب العسكري قد اقر إبان حصار « فيس » ( Véies ) الطويل ، الذي يغلب انه استمر من السنة ٤٠٦ حتى السنة ٣٩٦ ؛ ولم يكن من المستطاع اقراره لو لم تتصرف روما بموارد يستحيل على غير الحرب وحدها ان تؤمنها في ذلك الوقت .

جنت روما بالتالي في عهد باكر ، فائدة مادية من انتصاراتها ، بيد انه يغلب على الظن ، من حيث وصايتها ، التي اتصفت بالجزم والتفهم والعطف في آن واحد ، انها لم تهمل مصالح اولئك الذين يصبحون رعاياها او محبيها . فلم تخرج عن حدود معتدلة في استثمار ثرواتهم المكدسة وموارد الطبيعية وامكانات نشاطهم البشري . وقد سارت حياهم - وكان ذلك عاملاً حاسماً في تكوين وحدة ايطاليا المعنوية - على سياسة تعاون اقتصادي جزيل النفع للجميع . فكان من واجبهام مثلاً الحرص على استمرار علائقهم التجارية التي لم تخل من النشاط فيما يتعلق بالأتروسك او الاغريق . وقد قامت به خير قيام كما يتضح من معاهداتها الاولى مع قرطاج او من الحروب التي خاضت غمارها ، في النصف الثاني من القرن الثالث ، ضد القرصنة الإلثرية المضرة بسلامة البحر الادرياتيكي والبحر الابوني . ولكنها لم تبق هي نفسها بعيدة عن تلك النشاطات التجارية التي لم يفت مواطنيها الاسهام فيها برؤوس اموالهم وباشخاصهم . ولم يؤلف هؤلاء يوماً ، كما حدث لشعوب فاتحة اخرى ، ارستوقراطية من المنتصرين عاصمة في تنظيمهم العسكري ومقتصرة على مراقبة المغلوبين . فلم تخل صفوفهم من رجال الاعمال الذين ارتفع عددهم باطراد . اجل ان مستنداتنا لا تتيح لنا تتبع هذه النجاحات . بيد انه من الواضح ان فتوحات روما الايطالية قد جعلتها تهتم بالحياة الاقتصادية في العالم المتوسطي ، وهي حياة قطعت اشواطاً بعيدة في التطور . وانها اقتطعت فيها لنفسها مكاناً مطرد الاتساع .

ولنا في تاريخها النقدي الادلة المقتنة على ذلك على الرغم من الشكوك التي تحيط بهذا الموضوع ومن الخلاف بين علماء المسكوكات القديمة . فلم تبدأ روما الا في عهد متأخر نسبياً في ضرب المسكوكات الحقيقية ، ولم يحدث ذلك قبل القرن الرابع . ولم تضرب آنذاك سوى المسكوكات البرونزية . وحين بدأت في ضرب الفضة ، في اوائل القرن الثالث كما يغلب على الظن ، انما حصل هذا الضرب في كبانيا لا في روما حيث تأخر حصوله حتى السنة ٢٦٨ . ثم حدثت بعض

الاضطرابات بسبب النفقات الباهظة التي اقتضتها الحربان البونيقيتان الاوليان ، واستقر النظام النقدي الروماني في اواخر القرن الثالث او اوائل القرن الثاني . فارتكز الى الدرهم الفضي اساساً الذي يزن اربعة غرامات تقريباً اي انه يوازي عملياً الدرهم الاوسع انتشاراً في العالم اليوناني ، الدرهم الاثيني الذي اعتمده الملوك المقدونيون . ولم يضرب الذهب الا في ظروف استثنائية . اما البرونز الذي كان « الآس As » وحدته الاساسية ، وعادل في النهاية 1/16 من الدرهم ، فقد فقد اهميته الماضية .

على الرغم من إيجاز هذه العجالة ، يظهر هذا التطور الانتقال التدريجي ، البطيء ، جداً حتى القرن الثالث ، والسريع نسبياً بعد ذلك ، حين أمنت روما سيادتها على ايطاليا ، الى اقتصاد اقل انكشافاً يمتد شعاعه باستمرار . فأحس الملاكون الريفيون ، الذين تألفت منهم الطبقة الحاكمة ، بمصالح جديدة ، وفي المشاغل التي أقامتها في وجههم فتوحاتهم الايطالية ، لعبت المدن اليونانية في ايطاليا الجنوبية دوراً دونه دور سكان جبال الابنين الشكسين .

فإذا حدث يا ترى حين اصبحت روما ، بفضل توسع افقها السياسي استثمار فتوحاتها العسكري ودبلوماسيتها وانتصاراتها منذ « زاما » لا سيده ايطاليا خارج ايطاليا فحسب بل سيده كل الحوض المتوسطي ، وحين وجدت في نفسها القدرة ، المباشرة او غير المباشرة ، على تشجيع او خنق كافة المراكز الكبرى لحياة اقتصادية نشطة وازدهرت منذ زمن بعيد ، كقرطاجة مثلاً ولا سيما بلدان الشرق الهليني ؟ ان سلوكها ليخفي مفاجأة كبرى للمؤرخ .

فهي ، حتى عندما بدت انتصاراتها وكأنها وضعت ايطاليا في مأمن من خطر الغزو ، لم تدخل أي تعديل في الأساليب التي اعتمدها حيال شعوب شبه الجزيرة . اجل ليس هنالك من مجال ، على الصعيد القانوني وحتى العملي احياناً ، بصدد توزيع المنافع على الجيش مثلاً ، للكلام عن شراكة على قدم مساواة تامة بين مواطنيها والايطاليين غير المواطنين . ولكن هذه التمييزات ، مهما بلغت من ثقلها على اولئك الذين تألموا من وضع متدنٍ ، لم تتناول الجوهر ، اقله في الحقل الاقتصادي . وحتى قبل ان تمنح روما حق مواطنتها للجميع ، درج سكان الاقاليم والاجانب على اطلاق اسم « الرومان » ، دون أي تمييز آخر ، على المواطنين وغير المواطنين شرط ان ينتسبوا الى ايطاليا : فقد كان هؤلاء واولئك ، في الواقع ، شركاء في الاستثمار المالي والاقتصادي الذي اخضعت له الفتوحات الجديدة .

بيد ان الجدة هي في ما يلي : ان كل الشعوب وكل الاقاليم خارج ايطاليا ، بما فيها صقليا مع انها قريبة من شبه الجزيرة ومأهولة بسكان من الاغريق أو المستعرقين لا يتميزون عن سكان اليونان الكبرى ، قد خضعوا لنظام آخر . ولم تمر الحرب عليهم مرور العاصفة فحسب بما يرافقها من شدة محتومة وانفلات غرائز . فقد استمر النهب ، بعد عقد الصلح ، باعتماد الوسائل الرسمية

او غير الرسمية التي كان لها من الرواج والاستمرار ما جعل المستفيدين منها يعتبرونها قانونية .

فما هو مردّ هذا التناقض ؟ ان المفاجأة ، والحق يقال ، اذا ما نظرنا الى تاريخ العصور القديمة - وقد برهن أكثر من استعمار معاصر عن تعامر مماثل - حيث استسلم المنتصرون لجشع مغر لا يعرف للشفقة معنى ، قد تنشأ خصوصاً عن معاملة الايطاليين معاملة ممتازة . فقد قامت روما حيالهم بشيء جديد كان مقدمة لعملها الاكبر في عهد الامبراطورية .

ولكن ما يلفت الانظار انها حصرت ، في العهد الجمهوري ، تصميمها على التعاون الاقتصادي ، في ايطاليا دون غيرها . وكان من الممكن ان يفسر ذلك بتضامن عنصري لاواع لو انها لم تشمل بهذا التصميم اغريق اليونان الكبرى انفسهم ، دون حاجة منا للكلام عن الاتروسك الذين امتزجوا منذ عهد بعيد بحياة شبه الجزيرة : فلماذا ادخلتهم فيه يا ترى واقصت عنه اخوانهم في صقليا ؟ لا ريب في ان تحقيق الوحدة المعنوية السابق قد أسهم في ذلك : فقد تكون - على غير اکتال - شعب ايطالي اكثر منه روماني أفضى به وعيه للتضامن الى احتقار الآخرين احتقاراً اثنائياً والشعور بأن كل شيء جائز حيالهم . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار أيضاً ظروف الفتح العسكرية وتشكيل الجيوش المعروفة بالرومانية مع ان نصفها « حليف » ابي ايطالي ، في حال ان سكان الاقاليم والاجانب ، في العهد الجمهوري ، لم ينخرطوا فيها إلا بنسبة ضئيلة جداً . ويجب ان نفكر اخيراً ، وربما خصوصاً ، بالتبدلات السيكولوجية ، الفردية والجماعية ، التي احدثتها امتلاك الثروات الاولى . فأثار الذهب شهوة مفرطة للذهب ، اما مذاق البذخ ، فبالاضافة الى انه لا يعرف القناعة ، فقد امتد الى طبقات اجتماعية اعظم اتساعاً . وأية وسيلة لتحقيق الثروة أيسر من تمرية اولئك الذين اجاز قانون الحرب معاملتهم وفقاً لهوى المنتصر ؟

وبما لا ريب فيه ، بهذا الصدد ، ان الانحراف الحاسم قد سببته الحروب الظافرة العظمى التي دار رحاها ، خلال النصف الاول من القرن الثاني ، حول شواطئ بحر ايجه . فقد وجد المنتصرون انفسهم هناك امام ثروات طائلة كدستها اجيال لا تحصى في مناطق نعمت بحضارة قديمة تفوق ما غنموه في افريقيا حول قرطاجنة . فلم يقاوموا التجربة ، وكان ما جمعه نقطة انطلاق لإثراء ايطاليا المدهش بما ولته من رغبة في الاستزادة . وليس ما يشبه هذا الحدث ، في تاريخ حوض المتوسط القديم ، سوى مصادرة الكنوز الفارسية على يد الاسكندر . فقد وفرت هذه المصادرة للمنتصر ثروات اعظم شأنًا ، وتمت في وقت اقصر ، اذ انها لم تتطلب خمس سنوات . بيد انها جرّت الى نتائج اقل تأثيراً . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان القسم الأكبر من هذه الكنوز كان مجهداً بشكل سبائك مفرغة في خواب مخبأة في دهاليز القصور الاخمينية : فكانت النتيجة ان البزل من ممتلكات السكان كان خفيف الوطأة . ومردّه في الدرجة الثانية الى ان الكسب من هذه المصادرة قد توزع جغرافياً توزيعاً اعظم اتساعاً : واذا ما عاد بعض الجنود القداماء والموظفين وغيرهم من الاغريق بقسم كبير منه الى اوربوا ، فقد استقر كثيرون غيرهم

نهائياً في البلدان المحتلة ، فوثب النشاط الاقتصادي في هذه البلدان ، بفعل وجودهم ورؤوس الاموال التي وضعوها في التداول ، وثبتة عظيمة جداً الى الامام . اما الفتح الروماني فلم يحدث فيه شيء من ذلك . فهو قد استولى على الثروات الحية والمتداولة والثروات المكنزة على السواء . كما انه قد ادى الى انتقال تدريجي وشامل نحو منطقة واحدة هي شبه الجزيرة الايطالية حيث مالت طبيعياً الى التجمع رؤوس الاموال المنتثرة حتى ذاك الحين في كافة أنحاء الحوض المتوسطي . ولم يعرف مثل هذا التجمع سابقة بمائلة بالاتساع الذي بلغه آنذاك ، كما ان الحدث الاقتصادي الذي يمثل لم يتكرر مراراً فيما بعد .

الغنيمة وتعويضات الحرب  
والغرامات و«الاملاك العامة»  
لقد تم الانتقال وفاقاً لكيفيات مختلفة . كان ايسطها الغنيمة التي يعود بها القادة ويدفعونها الى الخزانة العامة بعد عرض الموكب الظافر الذي قد يستغرق وقتاً طويلاً . وكثيراً ما يحدث ان تتضمن مصادرنا بيانات مفصلة بها ، تتفاوت كالأوصحة على كل حال . وقد يكون من الممل ان نستشهد بكافة الاحصاءات المعروفة . فلنقتصر اذن على معطيات هي في الوقت نفسه شاملة - اذ انها لا تتناول مواكب النصر التي تلت الحملات الآسيوية على الملك السلوقي والغلاطين والحملات الاسبانية والايطالية الشالية - وجزئية ، اقتبسناها عن دراسة بصيرة جداً . فبين السنة ١٩٤ و السنة ١٦٦ بلغت الغنيمة التي اسفرت عنها الحروب في شبه الجزيرة اليونانية فقط ، ذهباً مسكوكاً او فضة مسكوكاً او ذهباً وفضة قابلين للسك فوراً ، قيمة تناهز السبعين مليون درهم ، اي ما يوازي سبعين مليون فرنك ( ١٩١٤ ) . وفي هذا المجموع تمثل غنيمة بولس اميليانوس الذي قضى في «بيدنا» ، في السنة ١٦٨ ، من الملكية المقدونية ٥٢٥٠٠٠٠٠٠ درهم .

واضيفت الى الغنيمة التعويضات المفروضة على المغلوب لاستيفاء نفقات الحرب التي تحملها المنتصر . وكانت هذه التعويضات تشمل عادة مبلغاً يدفع حين عقد الصلح من الممكن ان يحتل مركزه في الغنيمة الظافرة وعدداً مختلفاً من الاقساط السنوية: ١٢٠٠٠٠٠٠ درهم دفعتها قرطاجة كل سنة ، طيلة خمسين سنة ، بعد معركة زاما ؛ و ٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم دفعتها الملكية السلوقية سنوياً طيلة اثنتي عشرة سنة بعد السنة ١٨٨ ، الخ .

لم تفرض هذه التعويضات الا على الدولة التي تحافظ على كيانها القانوني بعد نهاية الحرب . اما الدول الاخرى فكانت تفرض عليها الغرامات السنوية التي تعتبر دائمة . لا بل ان روما لم تتردد في فرض غرامة قيمتها ٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم على مجموع الجمهوريات الاربع التي نظمتها في مقدونيا بعد «بيدنا» مع انها منحتها ، لمدة عشرين سنة ، استقلالاً سريع الزوال ؛ ولكنها لم تفرض الغرامة في الظروف العادية الا على الاقاليم التي تمارس حياها سيادة حققتها بالنصر : وقد رمزت هذه الفريضة الى حقوقها المطلقة ، كما مثلت الغرامة ، من جهة ثانية ، القسم الاكبر من الضرائب التي تحصلها من اراض تعود اليها . وقد حدد قيمتها وتفاصيل جبايتها القانون الذي ينظم البلاد

ولاية . وغالباً ما استوحى القانون ، بصدده هذه القيمة وهذه التفاصيل ، الوضع السابق للفتح ، اذ ان الغرامة عادة قديمة واساسية من عادات الدول القديمة ولا سيما الملكيات منها . فلم تأت روما بمجديد ، كما انها لم تهتم للتوحيد بنوع خاص . بل حاولت ، رغبة منها بسلك اسهل السبل واقصرها ، الاستفادة الى اقصى حد مما كان قائماً قبلها واعتماده رعاياها الجدد . لذلك فان الغرامة قد ارتدت اشكالاً متنوعة . ففي الشطر الاكبر من مدن صقليا ، وبفضل الابقاء على القوانين التي سنها ملوك سيراكوزا ، تألفت الغرامة كما في السابق من ضريبة عينية توازي ، بعد مراقبة البذار والحصاد ، عشر محاصيل الارض من حبوب ونبيد وزيت وبقول . اما في الجمهوريات المقدونية الرابع ، على نقيض ذلك ، فكان لزاماً ان تدفعها نقدا طوائف السكان التي توزعها وتجبها كما يطيب لها ، وهي لم تمثل في مجموعها ، على كل حال ، سوى نصف الضريبة التي كانت تجبها الملكية الزائلة .

وكانت روما اخيراً ، عند الاحتلال ، تضع يدها على ممتلكات الدولة او الملك اللذين تحمل محلها . وقد شملت هذه الممتلكات على العموم ، بالاضافة الى الاملاك العقارية ، اهم المناجم والمحاجر والاحراج والملاحات . وهي كثيراً ما ضمت اليها ما تصادره من الجماعات والافراد الذين تصمم على معاقبتهم بسبب موقفهم منها . فأنشأت بالتالي ، على غرار ما فعلت في ايطاليا ، « أملاكاً عامة » ( *Ager Publicus* ) شاسعة ومتنوعة جداً ووافرة الدخل احياناً كانت هي تنشط في تنظيم ادارتها . ففي اواسط القرن الثاني تطلبت بعض مناجم الفضة في ضواحي قرطجنة في اسبانيا ٤٠٠٠٠٠ عامل وأدخلت عليها ٢٥٠٠٠٠ درهم يومياً . ولم يمض مجلس الشيوخ طويلاً في ريبته من الملتزمين التي جعلته في البدء يمنع العمل في مناجم الذهب والفضة في مقدونيا ويحصر بعد ذلك عدد العمال في مناجم الذهب في ايطاليا الشمالية .

اتيح من ثم لروما ، بفعل الغرامات واملاكها العامة ، ان تتلقى سنوياً من ولاياتها ، بعد ان تزايد عددها ، كمية اجمالية ضخمة من الخيرات . بيد ان كل ذلك ، لا سيما الغرامة بمجد ذاتها وبعض الرسوم غير المباشرة ، الضئيلة اجمالاً ، والمعدة لاكلها ، لم يشكل اوقاراً لرعاياها الاقليميين : فالنهب الذي جعل الاستثمار عبئاً لا يطاق قد لجأ الى طرق اخرى .

ادار مجلس الشيوخ روما ادارة حكيمة فكنزت بصورة خاصة الذهب الاستثمار الخاص الذي لا يسك في الظروف العادية ؛ بيد ان القسم الاكبر من هذه الموارد كانت يلقي في التداول بفضل انفاق الدولة والمرتببات العسكرية ونفقات الاشغال العامة والعبادة . فانتقلت الموارد بالتالي من الجماعة الى الافراد مضافة الى الفوائد التي جناها المواطنون من الغاء ضرائبهم المباشرة وبيع القمح بسعر منخفض وتوزيعه مجاناً بعد ذلك . ولكن استثمار الافراد المباشر للتوحات والولايات قد اتسع اتساعاً غزيباً .

وكانت هنالك ، كما هو بديهي ، وفاقاً لما درجت عليه الجيوش آنذاك ، غنمة الجنود الفردية

تضاف إليها ، بصورة عادية منذ اوائل القرن الثاني ، المنح التي يهبها القائد جميع جنوده لمناسبة موكب الطافر . وترينا احدى الحوادث الطريفة الجنود الرومانيين انفسهم يستفيدون من مشتاهم لاستثمار قنوتهم بالمراباة المحدودة والتجارة على نطاق ضيق مع الاجانب . وليسوا في الحقيقة ، مع التجار الثانويين ، بمن فيهم مشترى الغنائم البشرية المعدة لاسواق الرق ، الذين يسرون دائماً وراء الجيوش ، سوى مقدمة جيش لجب من التجار والمضاربين الذين يتوافدون على البلاد فور تهدتها .

انتمى هؤلاء الى كافة الطبقات الاجتماعية - باستثناء الشيوخ - فكان منهم المواطنون الرومانيون و « الحلفاء » الايطاليون والاحرار والمعتقون ، فيعملون لحسابهم الخاص او يمثلون شركات كبرى ، ويستوردون او يصدرون ، مستعدين في الواقع لشراء كل شيء ونقل كل شيء وتسليف كل شيء بغية استلاب كل شيء . وغدت جزيرة ديولوس الصغيرة الواقعة في قلب بحر ايجه والمعادة الى اثينا في السنة ١٦٧ ، شرط ان تجعل منها مرفأً حراً ، احدى قواعد عملياتهم الرئيسية في الشرق وغيره حتى اليوم الذي امر فيه ميتريدات بتقتيلهم وبنهب الجزيرة في السنة ٨٨ . وقد وقفنا بواسطة الكتابات على نشاطاتهم المختلفة ، وثورتهم التي تثبتها الأبنية التي شيدها ، وجمعياتهم بشكل اخويات دينية ، وتأثيرهم أيضاً على السلطات النظامية التي استولوا في الواقع على صلاحياتها . ومرد ذلك الى انهم ، في ديولوس كما في غير مكان ، وحتى في البلدان الحليفة ، اصحاب اخاذات كانوا ام مستقلين حين يسمح لهم بالدخول اليها ، يحملون طابعاً مشتركاً على الاقل : فانهم يعملون في مأمن من نفوذ وقوة روما .

في عداد هؤلاء « التجار » يبرز عملاء جمعيات الملتزمين ( *Publicani* ) . جمعيات الملتزمين ويقصد بـ *Publicani* اولئك الذين يعنون بالـ *Publica* أي بشؤون الدولة المالية ، اولئك الذين تزمهم الدولة جباية واراداتها واستثمار املاكها وتنفيذ مشاريعها وتأمين تموين جيوشها ، الخ . وينطبق الاسم في الواقع على كبار الملتزمين الذين يتوجب عليهم ايجاد جهاز كامل من المساعدين والقبول بتسليف اموال هامة : يفسر اتساع شؤون الدولة وتنكرها لانشاء ادارة لا تستلزم سوى الاستعانة بصغار الملتزمين ، كيف انهم بلغوا مكانة كبرى . وترادف الكلمة في الواقع كلمة « فرسان » ايضاً ، وهم الملتزمون الحقيقيون المنتسبون كلهم الى هذه الطبقة الاجتماعية والممثلون اوسع اعضائها ثروة .

وكان من البديهي ، المسلم به ابدأ ، ان يقصى الشيوخ وأبناؤهم عن الالتزامات من حيث ان رقابة وادارة الاموال العامة شكلتنا احدى صلاحيات المجلس الرئيسية . وقد حظر عليهم بالإضافة الى ذلك اقتناء مراكب يزيد مجموعها عن ثلاثمائة قارورة أي ثمانية اطنان تقريباً . وقد اتخذ هذا التدبير قبيل الحرب البونيقية الثانية في مرحلة الصراع بين « الشعبين » و« الافاضل » . ولم يبلغ التدبير حتى في اوج النظام المجلسي لأنه يتفق اتفاقاً تاماً وبعض العقائد الراسخة في روما ،

كما رسخت من قبل في اليونان ، التي اعتبرت كل نشاط تجاري امراً معيباً . وفي الواقع ما كانت التجارة البحرية الواسعة - لم يكن هناك من تجارة كبرى سواها - لتكفي بهذا الحد الأدنى من المحمول ، فحظرت ، عن طريق هذه المداورة ، على غرار تلميحات الدولة ، على الشيوخ وابنائهم . فكانت النتيجة ان هاتين الطريقتين لتوظيف رؤوس الاموال الخاصة ، وفي كليهما بعض المغامرة مع انها وفيها الارباح في حال النجاح ، غدتا وكأنتها وقف على اوسع المواطنين ثروة بعد الشيوخ ، أي على الفرسان .

ولم يفت ذوي الاقدام بين هؤلاء ان يستفيدوا من ذلك . فتوجب عليهم العمل المشترك بغية جمع المزيد من رؤوس الاموال وتقاسم الاخطار ، وخصوصاً بغية توسيع إطار التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي قد يكون استخدامها مفيداً . ويعود اقدم توحيد للمصالح في سبيل مفاوضة الدولة ، على ما نعلم ، - وقد جرى ذلك بمناسبة دعوى في موضوع ضرر مقصود ألحق بأحد مجهزي السفن - الى الحرب ضد هنيبل . ثم تألفت جمعيات قانونية نعرف الشيء الكثير عن تنظيمها في القرن الاول . فهي ترتدي مظاهر أشبه بما ندعوه اليوم مجلس الادارة والمدير العام والمساهمين والمتعهدين : فقد اقتضى الحرص على توفير ادارة حسنة البحث عن الحلول المبتكرة . بيد اننا لا نعلم شيئاً عن عدد هذه الجمعيات ، واننا نرجح ان جمعيات سريعة الزوال قد تألفت للالتزامات الطارئة كتشييد الأبنية مثلاً . اما بصدد الالتزامات الكبرى ، كمناطق المناجم او ضرائب الولايات ، فلا ريب في ان عمل الجمعيات المجهزة كان دائماً في الواقع لان وجود لوازمها وموظفيها في امكنة الالتزام لا يترك مجالاً لأية منافسة .

يضع قضاة الاحصاء دفاتر الشروط ويجرون التلزيحات لمرحلة السنوات الخمس القادمة ، ولكن عوامل كثيرة تفضي الى تخفيض واجبات الملتزمين ، وليس التشدد الذي يبيده كانوا اثناء ولايته ، على الرغم من تدخل مجلس الشيوخ « الذي نزل عند توسلات ودموع الملتزمين » ، سوى تشدد استثنائي وعابر . وليس من جهة ثانية ما يمنع الجمعيات من القيام بنشاطات اخرى الى جانب النشاط الذي تتحمل مسؤوليته أمام الدولة . وان في ذلك لفائدة لها لأنه يؤمن استخدام عمالها ورؤوس اموالها استخداماً ابعده استمراراً . ولذلك فهي لا تتوانى عن القيام بها متعاطية الأعمال المصرفية بنوع خاص - وقد غدت عمليات تحويل النقود ونقل الأموال اختصاصاً من اختصاصاتها لأنها تؤلف بالنسبة لها واجباً اساسياً - والمراباة ، ولا يتوانى بعضها على الاقل ، عند الحاجة ، عن تعاطي التجارة الواسعة . ولكن تعهد هذه الشؤون الخاصة جعلها تتداخل في الشؤون ذات الطابع العام وتستفيد من التسهيلات المتوفرة لهذه الاخيرة بفضل تنفيذ هذه وتلك في الاماكن نفسها وبواسطة الرجال انفسهم ورؤوس الاموال نفسها . وقد رأينا فيما سبق نقص الرقابة التي يستطيع ممثلو الدولة ممارستها حيال تصرفات رجال المال في الولايات .

تآزر من ثم عمل « التجار » والملتزمين . وعمل الدولة لادخال المعادن الثمينة الى إيطاليا

بكميات ضخمة . فنذ اواسط القرن الثاني ، وبفعل تيار ذي اتجاه واحد متزايد السرعة لا يقابله تيار آخر على بعض الامة ، انجمت شبه الجزيرة الايطالية برؤوس الاموال في حال ان المناطق الاخرى في العالم المتوسطي اخذت تفتقر لمصلحتها .

## ٢ - النتائج الاقتصادية

لم يحدث ما حدث دون نتائج اقتصادية تأثرت بها الولايات وايطاليا على السواء .

ان الشرق الذي بلغ ، قبل وصول الرومان بزمن بعيد ، درجة رفيعة من التطور عالم الولايات الاقتصادي ، قد تألم من هذا البزل اكثر من غيره . وهو قد استطاع ، في البداية ، ان يعوض عنه بعض الشيء بفضل التقدم التقني في زراعته وصناعته اليدوية . انفتحت ايطاليا امامه سوقاً غنية بالمال ومتشوقة لارضاء حاجات جديدة ، في مصنوعات الفخفخة خصوصاً . وحولت الاسكندرية ورودس نحوها جانباً هاماً من تجارتها . ولم تعرف ديلوس يوماً الازدهار الذي عرفته ما بين السنتين ١٦٧ و ٨٨ ، اي في فترة انتشار التجار الايطاليين فيها بكثرة نادرة ؛ ولكن تفوق النفوذ الروماني ، اذا ما استثنينا مصر التي حال استقلالها المستمر دون اسوأ المظالم ، قد افضى منذ القرن الاول الى اوخم العواقب . فقد بيع في جزيرة ديلوس ، في يوم واحد احياناً ، حتى عشرة آلاف عبد يجر جلهم نحو ايطاليا . ولم يحصل ذلك دون ضرر . فقد اخذت ايطاليا تنتج بعض المصنوعات ، وهي لم تكف نفسها من بعض الاصناف فحسب ، بل صدرت بعضها الى الخارج ايضاً . فعرفت المصنوعات الشرقية الكساد بفعل ارهاقها بالرسوم وانكماش زبنها المحليين في اعقاب افتقار الارستوقراطيات القومية . وفي صقليا نفسها التي صدرت الحنطة زمناً طويلاً ، انثنى السكان عن العمل : لم تكن الجزيرة ، في اواخر العهد الجمهوري لتستطيع ان تلعب الدور الذي لعبته في تومين روما خلال القرن الثاني . فاصيب الشرق كله ، قبيل الحروب الاهلية ، بتقهقر اقتصادي اعتبره بعضهم داء عضالاً .

كان الغرب احسن حالاً لانه كان ابعد تخلفاً : وقد بقي فيه اثر الاغريق والقرطاجيين التربوي محدوداً . وهو قد ضم اكنية كبيرة من البلدان الجديدة التي اخذت روما تحت على استثمارها ، مدخلة اليها رؤوس الاموال وتجهيزات الانتاج والتقنيات . وقد اقدمت على ما اقدمت عليه بدافع اناثي محتفظة لنفسها بالقسم الاكبر من الارباح ، وبالارباح كلها احياناً ، كما فعلت في مناجم اسبانيا مثلاً . ولكن بعض هذه البلدان اخذت تحتل مركزها في الاقتصاد العام للعالم المتوسطي : غالباً الناربونية ، قاعدة العمليات التجارية المثمرة في اتجاه غالباً المستقلة ، وخصوصاً اسبانيا . فأفادت من ذلك عناصر غريبة قامت فيها قبل روما وعناصر قومية ايضاً : ويبدو ان مرسليليا وقادش عرفنا آنذاك ازدهاراً اعظم منه في السابق .

فما هو المستقبل الذي سينتظر الغرب اذا ما استمر النظام الروماني في التفاوضي عن هؤلاء

«التجار»، هؤلاء «الرجال المحترمين جداً»، الذين تولى شيشرون، في اشارته الى ارتفاع عددهم في غالبا وفي قدسه في الغالين، مديحهم وتقريظهم رغبة منه في الدفاع عن الحاكم فونتيوس، سنة بعد هجومه على الحاكم «فيريس»؟

تبدل كل شيء في ايطاليا أيضاً .  
إيطاليا :  
الانتاج والمقايضات  
يجب أن تتكيف الزراعة . فقمح شبه الجزيرة ، لا يستطيع منافسة الحبوب المستوردة ، إن لم يكن من غالبا ما وراء الألب بسبب الافتقار الى طريق ملاحية ، فأقله من صقليا وافريقيا ، ومن مصر أيضاً التي تتميز بانتاج أفضل ، ويرضى المنتجون فيها بمستوى حياتي أدنى . وضعت حرب هنيئيل أوزارها في السنة ٢٠٢ : فيين الستين ٢٠٣ و ٢٠١ بيع القمح في روما بربع سعره العادي ، وبيع في السنة ٢٠٠ بثمن هذا السعر . وستكرر بين آن وآخر الظروف الاستثنائية التي أدت الى هذا التدني . وحين تأخذ الدولة على نفسها ان تبيع القمح بسعر منخفض وان توزعه بعد ذلك بالجملة ، تضطر الى الحصول عليه من غير مكان بفضل الغرامات المفروضة عيناً أو عن طريق الشراء بأسعار محددة متدنية جداً يعينها حكام الولايات . وإي يعد انتاج الحبوب عملية رابحة في ايطاليا ، فعدل عنه المستثمرون بملء اختيارهم .

وجهاً من ثم عنايةهم الى تربية المواشي لأن الانعام يعسر نقلها مسافات بحرية طويلة ولأن لديهم عبيداً يسهل عليهم استخدامها «رعاة» . ووجهوا عنايتهم بنوع خاص الى الزراعات التي تتطلب معارف خاصة : زراعة البقول في السبخ وزراعة الأشجار المثمرة كالكرومة وشجرة الزيتون وشجرة التين . وقد دفعهم الى ذلك كل شيء . فهم يمتلكون رؤوس الأموال التي تتيح لهم الانفاق الضروري . وأظهر ارتفاع الثروة لدى المستهلكين أذواقاً أكثر طلباً . واستفادت ايطاليا ، أخيراً ، في ما يعنيننا ، من الخبرة والمعارف الزراعية الكثيرة التي حصل عليها الشرق الهليني وقرطاج ؛ وبعد ان أصدر مجلس الشيوخ أمره بهدم هذه المدينة في السنة ١٤٦ ، حرص على ترجمة البحث الزراعي الذي وضعه القرطاجي ماغون . فكانت هذه الأساليب الجديدة موضوع دعاوة رسمية ساندتها الاختصاصيون الايطاليون في الزراعة منذ كاتون .

ظهرت جدوى مثل هذه الجهود بشكل واضح . فقد أنتجت خلال القرن الثاني خور جيدة أشهرها خمر « فاليرنا » الكباني . ولكن الانتاج الراجح ، المتوسط الصنف ، كان أهم من المحاصيل البذخية . وقد بلغ من غزارته ، أن المسؤولين قد اهتموا لتصرفه ؛ فصدر قانون حظر بموجبه على البلديين ، حين تنظيم الولاية الناربونية ، زراعة كروم جديدة واشجار زيتون جديدة . بيد أن المعضلة لم تبرز بعد بكل خطورتها . فإن ما يحسن عمله ، كي تدرّ هذه الزراعات دخلاً سريعاً ، هو أن يعنى الملاك بمراقبتها شخصياً ؛ اما الشاب الأرعن الذي يعوزه المال ، فعليه ، كما يزعم شيشرون ، ان يبيع كرومه ويحتفظ بأحراجة . وقد بيع النبيذ

الاطالي في ديوس نفسها ، وابتاعت غالباً المستقلة ، طيلة القرن الأول ، نيزداً مستورداً من شبه الجزيرة . و اذا كانت هذه الاخيرة ، بسبب تقدم تربية المواشي ، قد اشتملت على مناطق ريفية المنخفض عدد سكانها كثيراً ، فانها قد اشتملت ايضاً على مناطق أخرى يلفت الانتظار ازدهارها وتقدم الزراعة فيها . وقد خصص لها العالم الزراعي « فارون » ، وهو معاصر لقيصر ، صفحة شهيرة امتدح فيها بجرارة نوع منتوجاتها ؛ ويجب ألا ننظر الى هذا المديح نظرنا الى مجرد مغالاة أدبية : فإن الاكتشافات التي أجريت في كمانيا ، حيث تنتثر في جوار بومبيي « مقاصف » تفسر المعاصر وسقائف صنع الخمر شهرتها ، تؤيد هذه اللوحة ايما تأييد .

لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في حقل الصناعة . فالاطاليون لم يحققوا أي اكتشاف حقيقي . وهم ، شأنهم شأن الاغريق ، لم يفكروا بابتكار الآلات ، وقد اكتفوا بتقنيات الصناعة اليدوية ، وأتاح لهم اتصالهم بالشرق تحسين تلك التي اعتمدها منذ أمد بعيد . وكان من شأن استيراد العبيد بأعداد لا تحصى ، وقد يفضل بعض الشرقيين منهم اسياهم على صعيد المعرفة ، أن ضاعف طاقات عملهم . فازداد الانتاج بالتالي ازدياداً عظيماً . وليست صناعة الكياليات ما وجها عنايتهم نحوها ، بل صناعة الضروريات الرائجة الاستعمال المنتجة بكميات كبيرة وبكلفة ضئيلة يمكن معها تصديرها حتى الى الشرق نفسه أحياناً . ولدينا عن هذا التقدم مثلٌ يميز توفره لنا الخزفيات التي نعرف عن صناعاتها القديمة ما لا نعرفه عن الصناعات الأخرى لأن حطامها لا يفي . فقد اقتدي في البداية بالخزفيات « الساموسية » ببرنيقها الأحمر ونقوشها الناقثة ، ثم حلت محلها ، قبيل وتبعيد العهد الميلادي الخزفيات المعروفة بـ « الأريثية » نسبة لـ « أريثيوم » ( أريزو *Arezzo* ) في اتروريا ، التي كانت المركز الأول لصناعتها . وقد صدرت الخزفيات الكبانية ايضاً ، لا سيما نحو غاليا . ثم انضمت صناعة المعادن ، لا سيما الشبه ، الى الخزفيات ، لتجعل من اتروريا وكمانيا أوسع المناطق الايطالية نشاطاً .

كانت النتيجة تجارة ناشطة ، لم تكن الصادرات فيها كمية مهمة ، على الرغم من رجحان كفة الواردات . وقد مثلت الحبوب الجانب الأكبر من هذه الأخيرة ، بينما اشتملت الأولى ، بنوع خاص ، على النبيذ والخزفيات والمصنوعات المعدنية . ثم أضيفت اليها تجارة المستودعات الوسيطة . قضت روما ، في السنة ١٤٦ نفسها ، على مركزين اقتصاديين هامين هما كورنثوس وقرطاجة . ولم تستطع ايطاليا ان ترث سوى قسط زهيد من تجارة كورنثوس التي يغلب انها توزعت على المرافئ الإيحية . ولجئنا ورثت تجارة قرطاجة ، أي ان التجارة ما بين البلدان الغربية تمت عن طريقها ، فلعبت ايضاً ، بقدر ما استلزم ذلك افتقار الشرق ، دور السمسار بين حوضي المتوسط . ويفسر تعدد هذه العلائق نشاط المرافئ الايطالية الذي برز في القرن

الاول بروزاً خاصاً في اثنين منها . اما الاول ، كما هو بديهي ، فثنائي روما - اوستيا عند مصب التيبر ، الذي استخدم في الدرجة الاولى لتموين المدينة ، لأن الصناعيين لا يعملون فيها للتصدير . وأما الثاني ، فهو بوتولي « Putéoli » ( Pouzzoles ) في كمانيا ، وقد تميز آنذاك بنشاط واسع جداً ، وبالتوازن التام في تجارته ، فعدا مدخلاً ومصرفاً لمنطقة كثيفة السكان ، وذات اقتصاد متطور جداً .

يجب ألا نخذعنا بالتالي زفرات علماء الأخلاق القدامى . فإذا ما نظرنا الى شبه الجزيرة كمجموع ، نرى أن الفتوحات لم تسره الى طاقات انتاجها ومقايضتها . فعلى نقيض ذلك دفعت بها الى الأمام بتزويدها ايطاليا باليد العاملة ورؤوس الأموال والتقنيات ، وبخلقها حاجات مجهولة تسمى بشق الطرق لإرضائها ، وبشدتها اليها شتى خيوط الحياة الاقتصادية العامة في العالم المتوسطي . أجل نحن لا ننكر أن هذا الازدهار الذي أوجده الانتصارات واستند الى القوة ينطوي على بعض الصنعة . وليس من شك في ان المنافسات الظاهرة ستبرز حالما تخف الأعباء التي تشل الولايات ، وحالما يزداد تقدم بلدان الغرب الجديدة في الثقافة والتجهيز ، وهما شبه مفقودين آنذاك . ولكن السعة الاقتصادية ، في القرن الأخير من العهد الجمهوري ، واقع راهن .

تقدم لنا ، روما في ايطاليا النشيطة هذه ، المكبة على الانتاج والمقايضات ، مشهداً مختلفاً كل الاختلاف . فالبطالة تزداد فيها باطراد يشجعها ، في اوساط المواطنين ، سخاء الدولة والافراد الاثرياء . تمارس فيها الصناعة اليدوية ، ولا سيما صناعة المهن الحظيرة ، طبقة كادحة من العبيد والأجانب . ولكن هذه الطبقة لا تعمل للتصدير : فنحن أمام حوانيت خشبية ، لا أمام مصانع . ان روما تتعاطى الاستيراد فقط : منتوجات غذائية بكميات ضخمة لتغذية سكانها المتزايدين باطراد ، تأتيها من المناطق القريبة والبعيدة ، ومصنوعات أيضاً من شتى الأنواع .

ولكنها تلعب مع ذلك دوراً رئيسياً في اقتصاد العالم الذي تسيطر عليه سياسياً : دور الوسط المالي المنظم الحركة ، وفي الواقع دور السوق الوحيدة لرؤوس الأموال . وهي تضطلع من ثم بمهمة لا سابقة لها ، لم ترثها عن أي مركز آخر ، لأن مدينة واحدة ، لم تجمع من قبل ، بالدرجة نفسها ، القسم الأكبر من الثروات القائمة في اطار على مثل هذا الاتساع . فاضطرت الى التجديد كما اضطرت الى تكييف أساليبها الدقيقة جداً ، وفاقاً لأهمية المصالح المواجهة واتساعها الجغرافي وبروزها في كل مكان ، ان لم يكن الى ابتكار هذه الأساليب ابتكاراً . ومن البديهي ان هذا التكييف كان في الوقت نفسه تدرجياً وأتالياً ، وتحقق وفاقاً لازدياد رؤوس الأموال الايطالية ، ومصالحها دون غيرها ، بغية الاستفادة منها بدخل أفضل وبمكاسب جديدة ، دونها اهتمام - وهو اهتمام لم يزعج المستفيدين في أي مكان آخر - لشقاء اولئك الذين يدفعون أثمانها .

ولكنه على الصعيد التقني فكيف يلفت النظر بمرورته وتنوع أشكاله .

كانت شراكة رؤوس الاموال احد التجديدات الرئيسية ، اقله على هذا الصعيد . وقد سبق لنا ورأينا التنظيم الممتاز الذي أدت اليه بصدد جمعيات الملتزمين . وليست هذه الاخيرة سوى الطراز الرسمي الاول : كانت الدولة تعترف بها كل خمس سنوات وتحتاج ، في مفاوضاتها ، لمعرفة أسماء مديريها وأهم مساهمها . ولكن مساهمات أخرى كثيرة لم يعلن عنها ، وأشكال شراكة اخرى كثيرة ، كانت تعبل خارج الجمعيات المصرح بها . وعلى الرغم من المنع الذي استهدف الشيوخ ، بصدد الاموال العمومية والتجارة على السواء ، فلم يمتنعوا بل اقرضوا الاموال واستخدموا المعتقن مستعيرين أسماءهم لهذه الغاية . وفيما يلي مثل فيه الدلالة كل الدلالة على مهارتهم ، لا سيما وانه غير مرتقب . فقد روى بلوتارك ان كاتون المتكشف نفسه اهتم للتجارة البحرية حائثاً دائنيه على تأليف جمعية قادرة على تجهيز خمسين سفينة وعاهداً الى احد المعتقن تتبع العمليات الجماعية حتى النهاية : وهكذا جعل توزيع المخاطر التجارة بواسطة القروض ، التي عرفها الشرق واليونان ، امراً أضمن الى حد بعيد من المغامرات الكبرى . وتعود هذه الرواية في وقائمه الى النصف الاول من القرن الثاني : فيمكننا بالتالي ان نتصور بسهولة ما اقدم عليه في القرن الاول رجال هم دون كاتون اخلاقاً .

والحقيقة هي ان رؤوس اموال كافة الطبقات المسورة في جميع نواحي ايطاليا ، اي الشيوخ والفرسان وغيرهم ، قد اخضعت آنذاك الى حركة محمومة . فانطوى توظيف الاموال في العقارات نفسها على بعض مظاهر المضاربة لأنه انما يستهدف الدخل الوفير وارتفاع الاسعار . وقد عكف بعضهم على انتاج المآكل والخمر النادرة المعدة لموائد ذوي الازواق الرفيعة . وضاعف كراسوس ثروته بتخصيصه ٥٠٠ من عبيده نجارين وبنائين ، وبابتاعه ، بثن بئس ، وابان الكارثة بالذات ، البيوت المجاورة لمركز احدي تلك الحرائق التي كثيراً ما اندلعت في روما القديمة . ومع كل ذلك فهو المال بالذات الذي آثروا الاتجار به عن طريق اقراضه لقاء ضمانات او عن طريق تشغيله في شؤون متنوعة . وكانت الساحة العامة القديمة في روما ، الفوروم *Forum* ، مركز مصفق حقيقي يتفق فيه على القروض والديون ووثائق التحويل على الثروات البعيدة والمساهمات في المشاريع المالية والتجارية . وقد بلغ النظام من الكمال ما جعل العمليات تتم ، للقسم الاكبر من قيمتها ، بوثائق مخطوطة تجنب نقل المعدن الثمين نقلاً فعلياً الى مسافات بعيدة . ويعوزنا اليوم ما حفظته ارض بابل ووصل الينا احياناً عن عهود ابعد قدماً : المحفوظات الخاصة برجال الاعمال . لكن مراسلات شيشرون تشهد بتعدد الصلات بينهم والتسهيلات التي توفرها لزيائهم واصدقائهم وبأهمية المصالح التي يدبرون شؤونها . فاذا صح ان العالم القديم قد نظم وطبق بتقنية المصرف الكبير في الاعمال ، فانما حدث ذلك في روما في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

بيد ان بناء على مثل هذا التعقيد لا يمكن ان يكون إلا سريع العطب بسبب التضامن الذي يوجد بين كافة عناصره . وقد برهن عن انه يتأثر بالشائعات : فما القول عن الاضطرابات والحروب الاهلية والصعوبات العسكرية ؟ وللأحداث البعيدة صداها الخاص اذا ما جرت في الشرق الأيحي ، أي في أغنى منطقة توظف فيها رؤوس الاموال الايطالية . وان خطب شيشرون التي استهدفت ، في السنتين ٦٧ و ٦٦ ، تكليف بومبيوس مهمة تنظيف البحر من القراصنة وتولي الحرب بعد ذلك ضد ميتريدات بعد ان أخفق فيها لوكولوس ، قد صادفت في الزمان الاضطراب الذي ستكون « مؤامرة » « كاتيلينا » ننتهاه في السنة ٦٣ . وتظهر هذه الخطب الخطورة الحقيقية التي ينطوي عليها قلق بل ازمة تهدد بالخطر مصالح عظيمة ، متداخلة من أعلى السلم الاجتماعي الى اسفله : وليس من ريب في ان هذه الازمة هي التي خلقت هذا الاضطراب بتجميد رؤوس الاموال وبنوع تشغيلها ، ان هي لم تقوضها ، وبجمل الدائنين على الالحاح في المطالبة بديونهم . ومنذ السنة ٥٠ ، ادت القطيعة بين قيصر من جهة ومجلس الشيوخ وبومبيوس من جهة اخرى ، الى ازمة ماثلة . فروما قد ضاعفت شجونها في الوقت الذي ضاعفت فيه ثروتها لأن الاطمئنان ليس نتيجة اقتصاد يتطور في هذا الاتجاه .

### ٣ - الطبقات الدنيا

كان للتطور الاقتصادي صداه في تكوين المجتمع وفي نشاطات ومصير طبقاته المختلفة . وقد قلنا ما يجب قوله ، بصدد الطبقة الحاكمة ، في مستهل هذا الفصل . فلا يزال امامنا سوى ما يتعلق بجمهور السكان الذين لن تمنعنا لامبالاة المصادر القديمة حيالهم من ترائي مصيرهم .

#### ١ - الرق وحرب العبيد

كان من نتيجة الحروب الظافرة والاثراء الذي عقبها ان دخل ايطاليا عدد لا عدد العبيد يحصى من العبيد . اجل كان هنالك عبيد منذ اقدم المهور : فقد استطاعت روما ، بعد « كانا » ، ان تجند منهم جوقتين . ولكنهم غدوا الآن جماهير غفيرة . وان قانون الحرب الذي تمشى عليه كافة المتحاربين - اصبح بعض اسرى هنيئيل عبيداً في اليونان - وقد غدّى الاسواق بهم منزلاً لها ، في الظروف العادية ، اسرى الحرب ، بل جميع سكان المدن المفتوحة عنوة في اغلب الاحيان . وقد حدث ما هو اسوأ من ذلك : التنكيل الذي لا يعرف للشفقة معنى . ففي السنة ١٦٧ ، بعد النصر واخضاع الاهالي ، اصدر بولس اميليانوس امره باختطاف وبيع ١٥٠٠٠٠ شخص من سكان الابير . وفي كل مكان اذن ، في البلقان وآسيا وافريقيا واسبانيا وغاليا ، باع قضاة المالية بالدلالة ، مراققي الجيوش من التجار ، الغنائم البشرية التي كانت تنقل بعد ذلك ، مواكب كثيفة ، الى الاسواق الخاصة : ويجب الانفسى ان قيصر قد امر ببيع مليون من الغاليين . وان المصادر الاخرى من قرصنة ، وعبودية دين - لم ينج منها سوى

المواطنين - واستيراد برابرة ، لا اهمية تذكر لها اذا ما قورنت بهذا المصدر . ولن تخف تغذية الاسواق بالعبيد ما دامت روما قادرة على خوض الحروب الظافرة . وقد انتهى الى ايطاليا ، اوسع البلدان المتوسطة ثروة آنذاك ، العدد الاكبر من هؤلاء العبيد ، او على الاقل افضلهم قوة وذكاء وجمالاً . وبديهي ان ليس لدينا اي احصاء في هذا الموضوع ، ولكننا لا نشك في ان العبيد الذين دخلوا شبه الجزيرة بلغوا الملايين .

كان العبيد فئات متفاوتة الكفاءات ، وقد استخدموا في شتى استخدامهم ومصيرهم الاعمال .

فكان هنالك عبيد للابهة يستخدمهم سيدهم للمتعة والتباهي ؛ وكان آخرون خداماً مدربين ؛ واستخدم غيرهم ، من المثقفين ، امناء سر يوثق بهم ؛ وقام آخرون بأعمال تتطلب خبرة واختصاصاً ؛ الخ . وقد ادى تدريبهم الى نوع من التجارة مارسه كاتون وكراسوس من قبله . وكانت اكثرية العبيد من الاغريق والشرقيين الاذكياء والماهرين . فبدأ تأثيرهم على المجتمع الرفيع يزداد اهمية منذ هذا العهد ؛ ومن ميزات شيشرون الفاتنة دالته العطوفة على انجيته في الحقلين الادبي والمالي الذين لم يفته ان يمتقهم . وفي اثناء حركة التفتي والاعدام التي تولاهما سيلا ، غض الطرف عن سرقات امين سره ، المعتق خريسوغونوس . وليس مينوذوروس ، اميرال اسطول بومبيوس ، سوى عبد معتق ايضاً .

وقد استخدم بعض العبيد عمالاً اختصاصيين في مشاريع خاصة صغرى . فاذا اتقنوا مهنتهم ، غدا السماح لهم ، لا سيما في المدن ، بممارستها لحسابهم الخاص ، لقاء اثابة معينة ، امرأ اعظم نفعا ، بحيث ان النظام اليوناني حول العبد صناعياً صغيراً او حانوتياً « مقيماً وحده » ، قد ساد روما ايضاً . وغالباً ايضاً ، على غرار ما حدث في اليونان ، ما منح السيد الحرية القانونية لا سيما وان هذا المنح ما كان ليمنعه من اضافة واجبات مالية الى الحقوق التي يخوله اياها القانون على المعتق . وهكذا انصهر هؤلاء العبيد القدماء بسرعة نسبية في سكان المدن وأثروا تأثيراً عميقاً في اخلاقهم . واذا ما خالف الحظ نشاطهم في العمل ، بلغ بعضهم مراتب رفيعة : فانما كان عبداً معتقاً ذلك الخباز الثري ، م . فيرجيلوس افريساسيس ، الذي ابنتى لنفسه ، في اواخر العهد الجمهوري او اوائل رئاسة اوغسطس ، على مقربة من المدخل « الاعظم » في روما ، الضريح المكعب المدهش ذا الكوى الواسعة المستديرة التي تمثل فوهات القرن .

بيد ان هنالك عبيداً آخرين ايضاً . نذكر منهم ، في الدرجة الاولى ، المسايقين ، المقتاتين جيداً والمدربين في مدارس كمانيا الضاحكة . ونحن سنراهم فيما بعد حين يعم الميل الى الالعب الدامية في كافة أنحاء العالم الروماني . وقد رسخ هذا الميل في روما في اواخر القرن الثاني ، فاستازم اشباعه ممثلين ينتظرم الموت كانوا عبيداً في اكثريةهم على ما نرجح . ونذكر في الدرجة الثانية عمال المشاريع الكبرى ، الاشغال العامة والمناجم . ولا حاجة لان تتوفر لدينا حولهم

المعلومات ، التي تنقصنا كلياً آنذاك ، لتقدير شقاؤهم بسبب ظروف ناصبة احاطت بعمل قاموا به فرقاً وافرة العدد . ونذكر اخيراً العبيد الريفيين وهم بدون شك اكثر العبيد المقيمين في ايطاليا عدداً : وانما همنا معرفة مصيرهم .

تكلم كاتون في بحثه حول الزراعة ، عن اولئك الذين تحيلهم في أملاكه ، ويقدر عددهم بالثلاثين . ويتضح من فحص القواعد التي يضمنها بصددهم انه لا يغفل رأس المال الذي يمثلونه ، فلا يرضى بأن يموتوا جوعاً او عملاً مرهقاً او ضرباً . واذا ما اشار ببيعهم عندما يتقدمون في السن او يمرضون ، فلا يشير بأن يباعوا مع « العربات والحداث العتيقة » فحسب ، بل مع « الثيران الطاعنة في السن » ايضاً . فكل شيء يؤول ، بالنسبة له ، الى مسألة انتاج ماثلة لمسألة انتاج المواشي التي يغذيها صاحبها ويحرص على ان لا ينهكها ولا يسيء معاملتها . ولا شك ، على نقبض عمال كاتون الذين يشتغلون في بساتين الكرمة والزيتون ، في انه توجب على أكثرية العمال الريفيين ان يكونوا رعاة ، لأن العناية بالقطعان ، وحدها تقريباً ، تتيح باستمرار تشغيل رجل يقتضي تعهده طيلة السنة . ولكن هذا العمل ، بالاضافة الى انه يبعد العبد عن رقابة مستمرة ، لم يغير شيئاً في طبيعة الحساب الذي كان على الاسياد ان يحسبوه والذي حال دون الافراط في القسوة وفي الاقتصاد الغذائي او غيره . لذلك ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اعمال العنف التي يأتياها ، في غياب السيد المتكرر ، وكيل هو نفسه عبد في اغلب الاحيان ، لا يجب ان نبالغ في تصور السجون المظلمة والتقييد بالسلاسل وعقوبات الشنق . ولكن يجب ألا ننسى النتائج الأخرى للحساب نفسه . فقد منع السيد ، إلا في الظروف الاستثنائية ، من اعتاق العبد الذي يعجز عن استمالة جميله او يجمع بعض المال الذي يبتاع به حريته . وقد منعه ايضاً من القبول بالحاذير والنفقات التي تستلعبها تربية اولاد العبيد ، وهم قليلون على كل حال بسبب ندرة النساء بين العبيد . وهكذا فقد انحط العبد الى مرتبة الحيوان وفقد كل امل بالعطف وبمستقبل أفضل ، فتألم في نفسه ، ان لم يكن في جسده ، كلما وعى طبيعته البشرية ولو وعياً غامضاً .

اذا لم يكن هذا الاحساس فطرياً فيه ، فقد كانت الحياة الجماعية كافية لأن تثيره  
حروب العبيد  
فيه لأنه يجد فيها ابدأ رفيقاً اعظم نباهة قد يكون منحدرأ احياناً من النخبة الاجتماعية في بلاده . اصف الى ذلك ان العبيد الآتين من الشرق الهليني قد جاؤوا بصدى الآراء او التيارات الثورية . ولا يدهشنا ان تكون أشد الثورات خطورة قد طارت شرارتها من صقليا وايطاليا الجنوبية أي من المناطق اليونانية المتأثرة تأثراً خاصاً بالتطور المؤاتي لاقتناء الاملاك الواسعة . وقد توصلت تدابير الأمن الشديدة ، في الظروف العادية ، الى كبح اضطراب خفي دائم الغليان : وكانت السلطات المحلية تتولى ذلك ، بمساعدة القضاة عند الحاجة . بيد انه حدث ثلاث مرات ، تفصل بين الواحدة والاخرى ثلاثون سنة تقريباً ، ان حادثاً محلياً ، وحتى عائلياً ، قد اثار ، لأنه لم يقمع فوراً ، حريقاً يغذيه شيئاً فشيئاً المثل الذي توفره الليانسين

اعمال العنف الاولى . وقد اطلق الرومان على هذه الثورات الكبرى اسم « حروب العبيد » لأن قمعها قد تطلب عمليات عسكرية حقيقية .

ففي هذه الحروب توجب على قوات الامن ان تقابل ، لا عصابات متشتمة ، بل كتلا تحس بالحاجة الى الاتحاد تضم بضع عشرات الالوف من الرجال احيانا . وكل مرة تولى قيادة هؤلاء الثائرين زعيم لا ريب في انه تحلى بصفات غير عادية حتى توصل الى فرض نفسه على مثل هؤلاء الاتباع ، واذا ما هوجأ ، كما تشير الى ذلك مصادرتنا ، الى اساليب المحرقة ، فان هذه الاساليب هي التي تفعل فعلها في جماهير لا يمكن ان تتصف بروح نقدية عالية . وكان لهؤلاء الزعماء مساعدوهم ، وقد حاولوا تنظيم زمرهم وانتهاج بعض الخطط العسكرية بواسطتها . فاحرزوا على قوى الامن المحلية وعلى الجيوش المعبأة بسرعة انتصارات عديدة . ولكن ضعف تسليح الثائرين قد ظهرت نتائجه الحتمية امام جوقات مدربة نظامية . وهل يمكن من جهة ثانية ان يفرض عليهم نظام ما ؟ فهم قد خضعوا لغرائزهم الثأرية البدائية مكدمسين الضحايا والخراب . فكان اندفاعهم بالتالي خطراً على الاسس الاولى للنظام الاجتماعي والحضارة . فتكونت ضد هذا الاندفاع في روما الجبهة الموحدة التي ضمت اشد الاحزاب تحاضماً . اجل كان من المستطاع ، في حمى الاشتباكات والحرب الاهلية ، تسليح بعض العبيد وتجنيدهم . ولكن اعظمهم جرأة قد تراجعوا امام الخطر الشامل : فاحس الايطاليون الاحرار بتضامنهم كما لو كانوا به امام ثورة في ولاية . فتوار سبارطة اهلينية ، في اليونان مثلاً ، قد تجاوزوا اقصى ما توصل اليه « الشعبيون » الرومانيون ونرجح ان السبب البسيط في ذلك هو انهم لم يهتموا ، على غرار الشعبين ، لمكاسب الفتح المادية .

انفجرت حربا العبيد الاوليان في صقليا على يد زعماء وجيوش من اصل شرقي ؛ ولم تنتقل العدوى آنذاك الا الى بعض النقاط من ايطاليا الجنوبية . وقد قاست الجزيرة الامرين من هذه الثورات ومن قمعها . وتفسر هذه الاخيرة جزئياً انهيار انتاجها الزراعي ، المموس في القرن الاول . وتفسر ايضاً تشدد الحكم ، حتى فيريس ، في توزيع العدالة ، لانهم مضطرون للاستمرار في تشديد الرقابة البوليسية حيال محاولات الدعاوة والاضطراب .

اما الحرت الثالثة فأعظم شهرة : وهي تلك التي تزعمها ، في ايطاليا هذه المرة ، رجل تراقي ، ربما من اصل ملكي ، هو سبارطاكوس . فقد جر وراءه اولاً ، في السنة ٧٣ ، رفاقه المسايقين في مدرسة « كابوا » ثم ، شيئاً فشيئاً ، ما لا يقل عن ٦٠ ٠٠٠ رجل : ملحمة غريبة مفاجئة ، دامية ووحشية الى اقصى حد ، تخللتها احداث اتصفت بالفظاعة حيناً وبالعظمة حيناً آخر . وليس اقل هذه الاحداث تأثيراً ، حتى اليوم ، ذلك الذي أرغم فيه هؤلاء المسايقون ، الذين كانت العائلات الكبرى تضطرم الى الاقتتال لمناسبة جنازة احد اعضائها ، مائتي زوج من الأسرى على الاقتتال بعد موت احد معاوين سبارطاكوس . ولكن عظمة هذا الاخير لا تتجلى

في تطبيق شريعة السن بالسن تطبيقاً فظيماً، بل في اتساع الخطة التي رسمها. فعلى نقيض سابقه، الذين قادوا رجالاً شرقيين بنوع خاص، اضطر هو، بعد الحروب ضد «الكبر» و «التوتوز»، وبعد نمو علائق روما بالبلدان الشمالية، إلى قيادة عصابات تضم كلتيين وجرمانيين في الدرجة الأولى. لذلك، فعوضاً عن أن يفكر بالسلب دون غيره، واقتناعاً منه بأن الفشل والموت سيكونان نصيبهم المحتوم في إيطاليا، قد قرّر أن يقودهم إلى الحرية الحقيقية بشق طريق أوطانهم لهم من الجهة الشمالية. ولكن المأساة التي لا نعلم أسبابها الحقيقية - ونرجح أن أحدها هو جاذب ثروة شبه الجزيرة - قد حدثت حين عاد إلى إيطاليا الجنوبية بعد أن بلغ غالباً ما وراء الألب ظافراً. فقد قرر عمله هذا مصير الثائرين. كان كراسوس قد أعطي صلاحيات استثنائية وجند عشر جوقات فدحرم حتى طرف شبه الجزيرة، بينما كان فيريس يفرض رقابة شديدة على صقليا. وجاءت النهاية في أوائل السنة ٧١ وطورد الهاربون في كل مكان ولم يرحم المنتصر وبومبيوس - الذي اصطدم في بلاد الأتروسك بإحدى عصاباتهم - شخصاً واحداً منهم: وقد نصب كراسوس على الطريق «الآبية» Appia بين كابوا وروما ٦٠٠٠ صليب علقت على كل منها رجل محكوم بالموت.

إذا ما نظرنا إلى الرعب الذي أثارته أدوار الأزمة رأينا أن الإرهاب الظالم لم يحل المعضلة. وعلمنا أن نكتفي بالافتراضات، أقله بصدد أواخر الجمهورية وأوائل الامبراطورية، لنفسر عدم اندلاع حرب أهلية بعد ذلك. واقرب هذه الافتراضات إلى الحقيقة أن الحروب الأهلية قد وفرت إمكانات عديدة لابعاد العناصر مغامرة وعنفاً. وفي سبيل تجنيدهم، اعتق الخصوم العبيد أو استقبلوا الفارين. وانتسبت قوات سكستوس بومبيوس، الذي كان مقيماً في صقليا وارغم اكتفيايوس فترة من الزمن على التخلي عن حقوقه للاتفاق معه، في أكرثيتها إلى هذا الأصل، وبعد أن استند إليها المنتصر حجة من حجج دعاوته، لم يرضياً في أن يستخدم جنود المغلوب وبجارته. ونحن نرجح أن اعتماد هذه الطريقة قد ساعد، بفعل انتهائية تخضع لمشاغل أخرى، على تجنيد الخطر الأكبر، حين لم تكن روما لتستطيع بذل الجهد الذي بذلته ضد سبارطاكوس ثلاثين سنة من قبل. وبعد ذلك، في عهد الامبراطورية، تضاعف الخطر تلقائياً، دون أن يعالج قط، بعد معرفة حقيقية بالضبط، بالادوية اللازمة؛ ولكن ما حدث، باستثناء بعض التوقف بعبء الحروب الظاهرة الكبرى، هو أن عدد العبيد قد أخذ يتناقص تدريجياً بسبب العدول عن السياسة الداعية للحرب وتزايد عدد المعتنقين وهبوط إيطاليا اقتصادياً.

## ٢ - الفلاحون الأحرار

إن ازدياد اليد العاملة العبدية، المقابل للفتوحات العظمى في القرن الثاني، ما كان ليحجر سوى العواقب الوخيمة على المصير المادي لرجال أحرار يعيشون من عملهم. ونحن نعرف، من هذا القبيل، متوسطي وصغار الفلاحين الذين كانوا يزرعون أراضيهم بأنفسهم. ولكنهم في

الحقيقة ألفوا ، في شبه الجزيرة التي عرفت فيما مضى اقتصاداً زراعياً بسيطاً، غالباً الى حد بعيد، طبقة وسطى ، وهامة ايضاً ، لأنهم قدموا لروما هيكلًا اجتماعياً وعسكرياً - جمع المشاة من بينهم - لا نظير له من حيث المتانة . فكل ما قد يصيهم يهدد بالخطر ، اول ما يهدد، الدولة التقليدية .

لا امراء في ان عددهم قد تدنى . وليست منافسة العبيد السبب الوحيد  
الازمة: الاملاك الخاصة  
وحتى الامم في ذلك لانها قد اضررت في الدرجة الاولى بالعمال الاحرار  
والاملاك العامة  
الذين يؤجرون سوا عدمهم للملاكين . بيد انها ، بصورة مباشرة ، وبتسهيل  
استثمار الاملاك الواسعة، قد اضررت بالاملاك الصغيرة . واثر واقع الحروب نفسه تأثيراً مؤسفاً؛  
فخلال السنوات الخمسة عشر التي امضاها هنيبعل في ايطاليا اتلفت الجيوش الارياف . ثم ان  
التجنيد المتكرر وطول مدة الحملات فيما وراء البحر قد سلخا الفلاحين عن املاكهم التي حرمت  
من ثم ادارة وعمل السيد . واذام عادوا من هذه الحملات بالقنائم، فقد اكتسبوا عادات لا تشجع  
العمل الشاق المستمر . ولكن جميع هذه الاسباب ، مباشرة كانت ام غير مباشرة ، تتضاءل  
امام تطور الاقتصاد الزراعي الايطالي . وقد سبق لنا وبيننا كيف استحال العيش على الفلاحين  
الايطاليين من بيع الحبوب باسعار متدنية فرضتها الواردات وكيف اضطروا لان يوجهوا  
عنايتهم الى نشاطات اخرى لا سيما تربية المواشي وزراعة الاشجار المثمرة . ولكن ذلك لم  
يتوفر الا لدوي رؤوس الاموال القادرين على توظيف المبالغ الضرورية لهذا الغرض . وقد توفرت  
رؤوس الاموال هذه باطراد للاغنياء ، المستفيدين الرئيسيين من اثرات الحروب . فتجمعت بالتالي  
الاملاك العقارية ونمت بينما هاجر الملاكون القدماء المستثمرون الى المدن ، والى روما بالتحديد ،  
او تحولوا الى عمال ريفيين مأجورين، بائسين بفعل منافسة العبيد .

وازدادت خطورة الداء بسبب وجهة استخدام الاملاك العامة في ايطاليا، وهي بالضبط ما  
كان بالامكان ان يوفر له الدواء . فقد شملت هذه الاملاك مساحات كبرى من الاراضي  
المصادرة لمنفعة روما حين الفتح او بعد الثورات ، وقد اغتنتها الخيانات التي حصلت اثر نداء  
هنيبعل . وطالما استعملت الدولة بعض اقسامها ، بين وقت وآخر ، لتوزيعها انصبه مجموعة او  
متفرقة على مواطنين رومانيين او حلفاء « لاقين » : فحدث من ثم بزل في طبقة كادحة قديمة او  
حديثة العهد وتألفت مرة ثانية طبقة من الزراعين الاحرار . ولما كان امر ادارة ممتلكات الدولة  
يعود لمجلس الشيوخ فان هذا الاخير هو من تولى هذا التوزيع . غير ان احد الهامين عن حقوق  
الشعب قد تجاسر مرة واحدة ، في السنة ٢٣٢ ، وطلب الى الشعب الموافقة على ان تفرز وتوزع  
على المواطنين الفقراء منطقة محتلة وراء الابنين بمحاذاة الادرياتيك . ولكن مجلس الشيوخ ،  
بفضل السلطة التي جعلته الحرب البونيقية الثانية يستمدها ويوطدها ، قد توصل الى تجنب تجديد  
هذا النهج الذي اعتبره نهجاً ثورياً . واستفاد من احتكاره للسلطة فقرر في اوائل القرن الثاني

بعض التوزيعات وانشأ بنوع خاص قرابة عشرين مستعمرة . ثم وضع حداً لهذا التوزيع : فالاملاك العامة ، في نظر الاوليغارشية المجلسية ، يجب ان تستخدم لغايات اخرى .

لقد بيعت منها بعض القطع فقط لان الخزانة العامة لم تشك من العجز الاندرا . وحاول الكثيرون استئجارها ، وتولى مراقبو الاحصاء التازيم الذي تناول اجمالاً مساحات كبيرة: ذاك كان مصير البراحات *Landes* والمراعي بنوع خاص . واخيراً كان مسموحاً لاي كان ان «يحتل» الارض التي لا يشغلها احد مقابل ضريبة سنوية الغاية منها التذكير بملكية الدولة . وعملياً ، اذا استمرت الجماعات المحلية ، عن طريق الالتزام او بدونه ، في استثمار اراضي الجدود التي سلخها منهم الفتح الروماني مبدئياً ، فإن الريفيين المقتدرين لم يستفيدوا من الاملاك العامة الا بهذه المداورة مستكلمين تغذية مواشيمهم القليلة في المراعي المشتركة . اما ما تبقى منها فقد استأثر به الاغنياء بالنظر الى ان استئجاره او مجرد استخدامه يستلزم ابدأ رؤوس الاموال ؛ وقد تألفت جمعيات من الملتزمين لتعاطي تربية المواشي كما وظف كبار الملاكين ولا سيما الشيوخ امواهم في الاراضي المجاورة لاملاكهم لان تشغيل ثرواتهم في الاستثمار الريفي كان وحده جائزاً . ولهذا السبب احجم مجلس الشيوخ خلال الربع الثاني من القرن الثاني عن توزيع القطع الفردية .

وهكذا لم يتلق الفلاحون الاحرار ، في ازمتهم الخانقة ، اي شيء يعرض عليهم ، وعضواً عن ان تساعد املاك الدولة على استمرار التوازن الاجتماعي فانها قد ضاعفت امكانات التوسع التي توفرت من قبل للاملاك الخاصة في التطور الاقتصادي .

لقد لوحظ نهج هذا التطور منذ العصور القديمة . ويبدل المعاصرون اليوم الحركة اصلاحية جهدهم في اكتشاف بعض مفارقاته . وأهمها اختلاف زمن حصوله وفاقاً لمناطق ايطاليا . لنستتن في الدرجة الاولى ايطاليا الجنوبية التي هي ، كما نظر اليها بوليب ، حديقة غناء مخصبة زهيدة الاكلاف . فقد كان ايضاً في شبه الجزيرة مناطق يعسر الوصول اليها من الساحل ولا يدخل القمح الاجنبي اليها ، اعني المناطق الجبلية في ايطاليا الوسطى . اما على مقربة من روما ، في اللاتيوم واوروريا الجنوبية ، فقد فضل الاثرياء توظيف رؤوس امواهم في الاراضي حتى يستطيعوا مراقبة استثمارها مراقبة اجدى . ومن جهة ثانية غدت ايطاليا الجنوبية كلها ، وهي التي قد عمها الخراب خلال الحرب البونيقية الثانية ، المنطقة النموذجية لتربية المواشي على نطاق واسع : ولعل نظامها الزراعي الراهن قد تحدّد منذ القرن الثاني قبل الميلاد .

اكتشف بعض المسؤوليين الرومانيين الداء ، اقله من خلال بعض نتائجه . فلمسوا الصعوبات في تعبئة الجنود ولاحظوا انخفاض مستواهم : حصلت حوادث مؤسفة مؤلمة لا سيما خلال الحملات على نومانس في اسبانيا . ولاحظوا ايضاً الارتفاع العددي في الطبقة الكادحة المدنية والردائل التي اذلتها . فبرز في ايطاليا النقص في الرجال الذي علموا ان اليونان شكت منه ولا تزال . اجل نحن نفترق الى المعطيات الواضحة حول الايطاليين الاحرار غير المواطنين ؛ ولكن قضاة مدنهم

قد اشتكوا احيانا من الصعوبة التي يصادفونها في جمع المتطوعين للجيش الروماني. اما المواطنون فان عددهم بعد ان بلغ الرقم القياسي ٣٣٧ ٠٠٠ في السنة ١٦٤ قد اخذ بالانخفاض ، من احصاء الى احصاء ، الى ٣١٨ ٠٠٠ في السنة ١٣٦ ، أي ما يقارب ٦٪ . فرأى الداء بعض المسؤولين الذين رضوا بفتح عيونهم وادركوا بسهولة احد اسبابه : طغيان الاملاك الواسعة واقتصادها العبدى على الاملاك الصغيرة : يعزو بلوتارك الى كلوس ان اخاه طيباريوس غراكوس ، حين مروره في اتروريا ، « رأى هذه البلاد الجميلة المقفرة التي لا زراع ولا رعاة فيها سوى الاجانب والبرابرة » .

برز كذلك اثر الافكار الداعية الى حب البشر وحتى الى المساواة التي طلع بها بعض المفكرين الهلنيين . فلا مجال مثلا لنكران هذا الاثر عند طيباريوس غراكوس . ولكن اذا وجب ربط اسم هذا المحامي عن حقوق الشعب بحركة الاصلاح استنادا الى مبادرته ونهايته المنجحة ، فان فكرة وكيديات هذا الاصلاح قد لاقت صداها لدى شيوخ من المرتبة الاولى ، من امثال «رئيس المجلس» آنذاك . وفي الحقيقة فكر هؤلاء الارستوقراطيون المستنيرين ، في الدرجة الاولى ، تفكير رومانيين مفعمين بالتقاليد القومية ، وبفهوم دقيق لمصلحة روما ايضا . وكلنا يعلم المضادة البليغة الشهيرة التي جعلها طيباريوس غراكوس بين الوحوش البرية التي تمتلك اوجرتها على الاقل وبين اولئك الذين يموتون ذودا عن ايطاليا وليس لهم بيت تأوى اليه عائلتهم . ولكننا نلاحظ ، اذا ما امعنا قراءة صفحة بلوطارك بكاملها ، ان الخطيب لم يقصد سوى المواطنين دون غيرهم الذين « يطلق عليهم اسم اسياذ العالم » والذين « لا يملكون ملدة » . فلا قيمة من ثم لاعتراض المعارضين انه يستحيل عليه التفوه بغير هذا الكلام امام جمعية من المواطنين .

فلم يفكر المصلحون ، لا في بداية حركتهم ولا بعدها ، بالاقليميين الذين كان استغلالهم وبؤسهم ، مع ذلك ، في الاساس من انهيار الفلاحين الايطاليين : وكلاوس غراكوس هو الذي نظم لمصلحة الملتزمين جباية الفريضة على ولاية آسيا . لا بل لم يفكروا في البداية بالاطاليين غير المواطنين الذين كثيراً ما لجأت اليهم روما في جمع المتطوعين لجيوشها والذين اقصاهم القانون الزراعي عن توزيع الاراضي ، مع انه اخضعهم ، شأن غيرهم ، لمبدأ استعادة الاراضي المقطعة . اجل لقد تطوروا بسرعة بصدد هذه النقطة واقترحوا ، منذ السنة ١٢٥ ، حلا يقضي بتعميم حق المواطنة في ايطاليا ، اي يجعل الايطاليين يستفيدون من القانون ؛ وان المثل الاعلى في المساواة القانونية الذي قالوا به لم يزل بعد ذلك من برنامج الشيعيين . ولكنهم لم يقولوا به الا لاعتبارات انتهازية ، اي رغبة منهم في جمع الحلفاء من حولهم والقضاء مسؤولية الثورة على خصومهم . واذا ما اوجبت المعضلة الزراعية بحث المعضلة الايطالية جدياً ، فانها تحتفظ في نظرم باولوية منطقية تتأيد في اولويتها الزمنية ، ولم يحملهم على التصدي للمعضلة الثانية الا تصميمهم على حلها هي .

هكذا افضى الاصلاح الى اصلاح آخر ، وافضى في الواقع تدريجياً الى عدة اصلاحات اخرى . ومرد ذلك الى ان الاصلاح الزراعي لم يكن ليتم الا على حساب الاوليغارشية العقارية التي ضمت اكثرية طبقة النبلاء المجلسيين . فاقترضى مواجهة مقاومة عنيدة تبديها هذه الطبقة اذ ان هزيمتها لا يمكن ان تعني سوى انهيار النظام السياسي الذي عرفته روما منذ الحرب البونيقية الثانية والذي القى في الواقع بزمام السلطة الى مجلس الشيوخ . امام مثل هذه النتائج لا يدهشنا ان يتخلى عن آل غراكوس بعض انصارهم الاول .

التشريع الزراعي  
بديهي انه يستحيل هنا عرض تطور التشريع الزراعي عرضاً مفصلاً لا تتفق عليه الآراء احياناً .

كانت نقطة انطلاق هذا التشريع القانون الذي اقره الشعب بنسأ على اقتراح طيباريوس غراكوس المحامي عن حقوق الشعب ، وقد تقدمه بصورة اكدية قانون آخر على الاقل . اختلف العلماء حول عدد هذه القوانين وتاريخها . ولكن لا نعبأ بذلك اذ ان قانوناً واحداً لم يطبق . وقد وضعت ايضاً ، منذ زمن قريب ، مشاريع كان مصيرها الجبوت . واستندت كافة القوانين او المشاريع الى المبدأ القانوني الذي احتفظ للدولة بمبدأ تملك جميع الاملاك العامة التي لم تنقل ملكيتها الى شخص آخر وفاقاً للأنظمة المرعية الاجراء : فكان باستطاعتها من ثم استعادة الاراضي « المحتلة » او المؤجرة والتصرف بها كما يطيب لها . ولم يعرف القانون الروماني ، وشأنه في ذلك شأن القانون اليوناني ، الاستملاك الذي تلجأ اليه الاصلاحات الزراعية الحالية . واكتفى قانون السنة ١٣٣ ، على غرار النصوص السابقة ، بتعيين حد اعلى ، على بعض الامية ، - ما يعادل ١٢٥ هكتاراً لرب العائلة من « محتلي » الاراضي ، يضاف اليها ٦٢٥ هكتاراً لكل ولد - تنزع بعده الاراضي العامة الايطالية من مستثمريها ، ومقابل ذلك يصبح هؤلاء مالكين شرعيين للاراضي الباقية . وتقسّم الاراضي المستعادة وتوزع على المواطنين انصبه مساحة كل منها ٧٥ هكتارات لا يمكن بيعها وتخضع لفريضة سنوية تسمح بمراقبة مصيرها : فتتكون مرة اخرى طبقة صغار المستثمرين التي اعتبرت ضرورية لعافية المجتمع والدولة .

ذاك كان النظام . وقد أثار في الواقع ، بسبب بساطة تصميمه ، صعوبات سرعان ما تمسكت بها المعارضة . ولم تعرف هذه الاخيرة كلاً في معارضتها فادى عنادها الى حوادث تعتبر من اعنف حوادث تاريخ روما الداخلي كموت طيباريوس غراكوس في السنة ١٣٣ وموت شقيقه في السنة ١٢١ . وكانت لها الغلبة احياناً : اجل لم تجرؤ قط على الغاء المبادئ المتفق عليها ، ولكنها علفت تطبيقها او اخرته او حصرته في مناطق نائية هي ثانوية في نظر طبقة النبلاء . ولكن الاصلاح ، بفضل سلبية طويلة من القوانين الزراعية ، اعتمد في النهاية ونقح ووسع توسعاً اعظم سخاء على المنتفعين به . ولنكتف هنا ببعض التعديلات . فلم يقتصر على

حصص الـ ٧,٥ هكتارات : بل توصلوا الى الـ ٥٠ هكتاراً ، وألقوا الضريبة المفروضة عليها ، الشيء الذي سهل ، من جهة ثانية ، نقلها الى الغير ، واعترض من ثم الهدف المنشود . ولم يقتصر على الأراضي المستعمدة من شاعليها : فقد ابتيع منها بمال الدولة . ورغبة في جعل التوزيع اكثر ثبوتاً ، جمعت الانصبه وانشئت المستعمرات . وسلكوا اخيراً ، بتخوف كلي ، الطريق المدة لان تكون طريق المستقبل ، بان شرعوا بتطبيق هذه التدابير ، ليس في ايطاليا فحسب ، بل في الاقاليم ايضاً حيث شملت الاملاك العامة كثيراً من الاراضي الخصبه . وقد سبق لشيبيون ، في السنة ٢٠٦ ، قبل ان يغادر اسبانيا التي انتزعها من البونيقين ، ان اسس ايطاليكا ، قبالة اشبيليا الحالية ، باسكانه فيها العاجزين والمتقاعدين من جنود جيشه . ولكن هذا المثل لم يقتد به بعد ذلك . ثم عادوا الى هذه الفكرة في عهد كلؤس غراكوس ، ولعل هذا العود كان مداورة للتخفيف من صعوبة استعادة الاراضي في ايطاليا ، فاقروا انشاء مستعمرة في افريقييا هي « المستعمرة الجونونية القرطاجية » التي تأسست على مقربة من الموقع اللعين الذي قامت عليه المدينة المهدمة في السنة ١٤٦ . فاخفقت المحاولة . ولكن انشاء نابونا ، في السنة ١١٨ ، قد عرف نجاحاً كلياً .

وتطور في الوقت نفسه المنتفعون بهذه القوانين . فقد اراد المصلحون الاولون تخفيض عدد المواطنين الفقراء بالاستفادة منهم فوراً . فسُح مندا ماريوس للكادحين بالانخراط في الجوقات وحرص جميع القادة الظافرين على ايثاق تعلق جنودهم بهم بتأمين المكافأة لهم ، فلجأ المصلحون الى القوانين الزراعية كي يوزعوا على الجنود انصبتهم من الاملاك بعيد تسريح الجيش . ويضاف هذا النصيب الى الفنيمة الفردية ، فيحدث التوق اليه اقبالاً على التطوع عندما تندلع الحرب : كان الريفيون البؤساء يرضون بالمخاطرة بحياتهم بضع سنوات رغبة منهم في تأمين الحصول على قطعة ارض بعد نهاية الحرب . لا ريب في ان الهدف الاجتماعي قد تحقق ، ولكن بمدورة مادية ، وبما هو اخطر من ذلك ، اي بانحراف اخلاقي . والدليل على ذلك ان الارض المقطعة لم تعبر عن اعتراف الدولة بواجبها في مساعدة المواطن على العيش من عمله بل اصبحت مكافأة على خدمات مؤداة . ولكن لماذا ادبت يا ترى ؟ في اغلب الاحيان ، لطموح قائد يستخدم جيشه في الحرب الاهلية دوغما خجل لا سيما وان انتصاره ، بما يستتبعه من مصادرات ونفي ، يوفر له الاراضي التي يستطيع اسكان جنوده القدماء فيها : وكان سيلاً اول من نهج هذا النهج . وقد وجب ان يأتي قيصر ويستصدر خلال قنصليته في السنة ٥٩ ذلك القانون الذي طبقه الى حد بعيد خلال دكتاتوريته ، حتى يعود الى توزيع الاراضي على المواطنين الفقراء على نطاق واسع ويستمر في الوقت نفسه في الانعام بسخاء على الجنود القدماء : فأسكن في كيبانيا ٢٠٠٠٠ رب عائلة لكل منهم ثلاثة اولاد على الاقل ، ولجأ بنوع خاص الى المعتقين المرسلين الى روما لاعادة بناء كورنثوس التي كانت قرطاجية قد هدمتها في السنة نفسها .

نتائج القوانين الزراعية على الرغم من اللجوء الى الاستعمار الاقليمي، بقيت ايطاليا ، دون ريب، قبل انظار الايطاليين . ويجب ان لا نقلل من اهمية النتائج التي اسفرت عنها الصراعات الحامية طيلة قرن تقريباً ضد استئثار الطبقات الحاكمة بالاراضي . اجل بقي عدد الاملاك الواسعة مرتفعاً لا سيما في ايطاليا الجنوبية : وقد سمح ببقائها النصيب المتروك لشاغلي الاملاك العامة ، وتولى العمل الباقي حصر الثروات العقارية الطبيعي عن طريق الارث ام الشراء . ولكن الملكية الصغيرة ، في عدة مناطق ، لا سيما المتوسطة ، كانت قد عادت الى الوجود . وألّف الملاكون الجدد بورجوازية بدت وكأنها مستقرة . فهل عملوا بسواعدهم ؟ لا يمكننا اثبات ذلك . ولكنهم اقاموا في املاكهم وراقبوا استثمارها مراقبة دقيقة . وتوفر لهم المال أكثر من ذي قبل ، لا سيما اذا كانوا جنوداً قداماء ، فاستطاعوا اعتقاد طرائق اوفر دخلاً : وليس ازدهار الكرمة والزيتون في اواخر العهد الجمهوري سوى ثمرة اتعابهم في اغلب الاحيان .

وليس هذا كل شيء . فقد افضى انتقال الملكية الى فرج سكان ايطاليا . اجل لا يمكننا اليوم قياس الصهر العنصري . ولكن تقدم الوحدة اللغوية ، وهي عماد قوي للوحدة الادبية ، يمكن تبعة خطوة خطوة . ففي القرن الاول زال استعمال اللغة الاتروسكية كما زال في بومبيي ايضاً استعمال اللغة الاوسكية *Osque* ؛ وقد أسهمت في هذا الزوال القوانين الزراعية ، تساعدها في ذلك عوامل اخرى كثيرة ، ولا فرق اذا استفاد منها المدنيون ام قدامى العسكريين .

لا سبيل لمعرفة ما اذا كان باعثو هذه النتائج قد ارادوها وارقبوها : فعلى غرار جميع الظواهر الاجتماعية ، يغلب ان هذه النتائج تمثل تسوية بين التطور التلقائي المتعدد الاسباب وبين الاعمال البشرية المقصودة التي تحاول تعجيل ودعم واستمالة او مقاومة نتائج هذا التطور . ولكن الحقيقة الثابتة هي ان مجهوداً كبيراً قد بذل بغية تقويم نتائج الفتح الوخيمة بالنسبة للفلاحين الاحرار ، وان هذا المجهود قد دلل أسوأ الصعوبات فلم يبق دون ثمرة . وامام هؤلاء الملاكين المتوسطين وتقدم اللغة اللاتينية تعود بنا الخيلة الى توطين المستعمرين اليونانيين الذي حققته بعض الملكيات الهلينية . ولكن الموضوع هنا انتزاع الملكية من الطبقة نفسها التي في يدها زمام السلطة . لذلك يجوز التأكيد بأن تاريخ العصور القديمة لا يعطينا أي مثل آخر شبيه بهذا المثل عن تدخل الدولة النافذ بغية التأثير ، على حساب فئة من مواطنيها ، على الواقع الاجتماعي ، وبغية اعادة تكوين طبقة هي في طريق الزوال .

### ٣ - الطبقة الكادحة المدنية

غير ان هدفاً على الاقل ، بين الاهداف التي سعى ورائها القائمون بالاصلاح الزراعي ، لم يتحقق بلوغه . فهم قد توخوا تخفيض عدد الكادحين الذين يتجمعون في روما ، حيث تفسد اخلاقهم ، باعادتهم الى العمل الحر في الحقول . ولكن هذا العدد لم ينخفض بل استمر في التضخم ؛

وجل ما نستطيع قوله هو انه كان من شأن هذا العدد ، لولا القوانين الزراعية ، ان يزداد أكثر من ذلك . وليس في واقع هذا الفشل ما يثير أية دهشة : فبين البؤس في البطالة والكدة المشكوك في نتائجه لم يترك الانحطاط الاخلاقي لذوي العلاقة مجالاً للتردد ، وقد وجب ان يبرز دكتاتور من امثال قيصر حتى يجرؤ على القيام حيالهم بعمل قسري ، ولو غير مباشر . اضعف الى ذلك ان خصوم القوانين الزراعية لم يكونوا ليهملوا حجة فوضى الحكم . ويمكن الحكم على مهارتهم بقراءة تحريضات القنصل شيشرون مقاوماً ، في السنة ٦٣ ، مشروعاً تقدم به رولوس : « قال هذا المحامي عن حقوق عامة الشعب في مجلس الشيوخ ان لعامة الشعب المدنية مزيداً من الاهمية في الدولة وانه يجب « تفرغ » المدينة منها . هذه هي الكلمة التي استعملها كأنه يتكلم عن فئطاس ما لا عن طبقة من خيرة المواطنين . اما انتم ... فلا تتنازلوا عما هو ملككم ، الرصيد السياسي ، والحرية ، والاقتراع ، والكرامة ، والمدينة ، والساحة العامة ( الفوروم ) ، والالعاب ، وايام الاعياد وغير ذلك ، ما لم تفضلوا على بهاء هذه المدينة ، بتخليكم عن كل ذلك ، الاستيطان ، بقيادة رولوس ، في جفاف مدينة « سيبونته » او في طاعون مدينة « سالييس » . فكانت الغلبة لشيشرون . وكانت الحجة مفحمة ، ولكن لجوءه اليها ، مع توفر غيرها لديه ، لم يخدم سمعته كرجل دولة .

لما كانت روما المدينة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم في ايطاليا ، فان الكادحين  
 الاهية ووحدة  
 الكادحين المدنيين  
 المدنيين الوحيدين الذين كانوا على بعض الاهمية العددية هم الكادحون الذين  
 اقاموا فيها . وكانوا كافين لتعمير اكثر من مدينة . وبسبب افتقارنا الى  
 المعطيات الاحصائية الاخرى ، نرانا مضطرين لأن نقبل بالعدد ٣٢٠٠٠٠ الذي كان ، حين  
 استلام قيصر السلطة ، عدد المواطنين المقيدين على لوائح توزيع القمح المجاني . ومع ذلك فلا  
 يكفي هذا العدد لايقاننا على الحقيقة الكاملة . فلو افترضنا انهم لم يدونوا في هذه اللوائح سوى  
 المواطنين القاطنين روما ، فهل أقصي عنها مبدئياً اولئك الذين بلغوا حداً أدنى من اليسار ؟  
 وما هو خصوصاً المعدل الذي يجب ان نضرب به هذا العدد اذا ما اردنا ان نأخذ بعين الاعتبار  
 عائلات الذين يتقاضون المخصصات ؟ فهو لا يعطينا بالتالي سوى مقياس لأهمية الكادحين ، ولكنه  
 في واقعه لا يخلو من قوّة التأثير . ويمكن ان يقدر تقديراً أفضل اذا ما قورن بتأكيد ذلك المحامي  
 عن حقوق الشعب الذي قال في نهاية القرن الثاني ان ليس في روما « ألفا رجل ممن يملكون  
 شيئاً ما » . وعلى الرغم من ان شيشرون لا ينفي هذا التأكيد حين يستشهد به ، فانه يبدو مغال  
 فيه جداً . ولكن التفاوت العددي ، على كل حال ، كان عظيماً جداً بين الاغنياء والفقراء .

ليست هذه الطبقة مدينة بتكاثرها - الذي نجعل مراحلها - لارتفاع عدد الولادات . واذا  
 ما اعوزتنا الارقام فان الشهادات تتفق اتفاقاً كافياً للاعراض عن هذه النظرية . فقد جاز للوالدين  
 الرومانيين ، على غرار الاغريق ، ان لا « يربوا » اولادهم اي ان يلقوا في الشارع مواليدهم  
 الجدد ، ولم يستخدموا هذا الحق ، على كل حال ، بمقدار استخدام الاغريق له . ولكن الوفيات

بين الاطفال كانت مرتفعة. فمن اصل الاثني عشر ولداً الذين انجبتهم كورنيليا والدة آل غراكوس، لم يبق في قيد الحياة سوى ثلاثة فقط. فما هي حال الطبقات الفقيرة ياترى؟ حين تقرر، منذ قيصر، تشجيع العائلات الكثيرة العدد، بدا وجود ولد ثالث مقياساً كافياً .

بعد استبعاد هذا السبب يمكن القول ان تكاثر السكان مرده الاستيطان الذي ليس من سر في اسبابه : زيادة دور المدينة سياسياً واقتصادياً ؛ نزوح الفلاحين الايطاليين المفتقرين اليها بعد ان اربعتهم او ارهقتهم حياة المأجورين التي ارغمتهم عليها ، في الريف ، خسارة الارض التي اعتاش منها جدودهم ؛ نمو الرق الذي كان يفضي ، بشكل شبه عادي في روما ، الى الاعتراق

واذا كان المستوطنون احراراً ، تمتع شطر كبير منهم بصفة المواطنين حتى قبل اقامتهم . اما الآخرون ، الحلفاء « اللاتين » او الحلفاء الايطاليون ، فان التشريع ، الذي عاملهم بكل سخاء في اوائل القرن الثاني ، قد غدا فيما بعد اشد قسوة ، ولكنه لم يتوصل قط الى الحيلولة دون حصولهم على حق المواطنة ، مع انه قد لجأ عند الحاجة الى مداورات لا تخلو من الغش . وحدث الشيء نفسه للجانب غير الايطاليين ، وهم قلة على كل حال في عهد الجمهورية . اما المعتقون فقد استفاد كل منهم من نظام سيده القديم . وهكذا فان التمييزات القانونية ، التي لا اهمية لها خارج العلائق بالدولة ، كانت تتلاشى خلال جيل او جيلين على الاكثر : ولم تقوض وحدة الطبقة الكادحة الرومانية .

يصح القول نفسه في التمييزات العنصرية . فالعناصر الوحيدة الغريبة حقاً والكثيرة نسبياً. قد وفرها العبيد المتعدو الاجناس : وما كان اعتاقهم ليحقق الا بعد فترة اختبارية يمارسون خلالها اللغة ويقتبسون العادات السائدة . بيد ان الشرقيين لم يتخلوا عن عباداتهم بسهولة ، لا بل انهم نشروا حولهم عقائدها وطقوسها . ومهما يكن من الامر فان الوحدة الادبية قد كملت بالتالي الوحدة القانونية. ولسنا نعرف في روما آنذاك ، بين جماهير سجسة بالفطرة ، خصومات شبيهة بتلك التي برزت في كبريات مدن الشرق كلاسكندرية مثلاً : ولن ترتدي الكراهية ، التي استهدفت اليهود والمسيحيين بعد ذلك ، طابع العنف الا بايعاز من السلطات .

البطالة  
كان من البديهي ، في مدينة بلغت هذا العدد الكبير من السكان ، أن تبرز في الفوارق الاجتماعية ومستويات الحياة المادية خلاقات شتى كثيرة . وليس من ريب في ان طبقة الكادحين هذه ضمت عمالاً شجعاناً وشرفاء ؛ فليست امكانات العمل ما اعوزهم . وقد بلغ بعضهم اليسار بمهارتهم وجدّهم ، لا بل توصلوا الى الانصهار في طبقة الاغنياء . ولكن معرفتنا بهذه الطبقات الوسيطة بسيطة جداً . ولا تلقي مستنداتنا ضوءاً آنذاك إلا على طبقات أشد غمراً ، واكثر عدداً. بيد انه يعوزنا معرفة النسبة التي تنطبق عليها، في هذه الطبقات، الصفات المادية، والاخلاقية ، التي تعزوها المصادر الى مجموعها . والحقيقة الوحيدة هي ، ان

مثل هذه الفوارق التي لم تبد ضرورية للمعاصرين آنذاك لا تبدو كذلك ضرورية لأولئك الذين يحاولون اليوم ادراك وتفسير ما حدث يومئذ في روما .

فنحن لا نسعى وراء المغالطة ، والقعقة الكلامية ، بل نقتصر على ملاحظة واقع عندما نؤكد ان القسم الاكثر نشاطاً ، في هذه الطبقة ، هو ايضاً اكثرها بطالة . وقد يكفي مجرد وجودها ، بسبب ضخامة عددها ، لأن يثقل على حياة المجتمع كله وعلى مصير المدينة نفسه . وبإستطاعتنا تصور ما يمكن ان تأتية بفضل سهولة العمل السجس التي توفرها لها بطالتها .

ما هو عدد هؤلاء الفقراء الذين يجهلون العمل المنظم ، ويتوصلون مع ذلك الى تأمين معيشتهم ؟ يستحيل تقدير نسبتهم في مجموع لا يقع هو نفسه تحت تقدير . ولكن هذه النسبة تتجاوز ، على كل حال ، تجاوزاً بعيداً ما يستطيع ان يقبل به مجتمع حريص في المحافظة على توازن عادي . وشرّ ما في ذلك ، من جهة ثانية ، هو ان هذه البطالة تقفل فعمل الطعم . فهي تجتذب الى روما ، بالإضافة الى الكسالى بالسليقة ، كافة اولئك الذين يلاقون صعوبة ما في تأمين معيشتهم من نتاج عملهم العادي ! فالكادحون العاطلون عن العمل في المدينة يرتفع عددهم ارتفاعاً مستمراً ، ولاحدود نظرياً لطاقتهم ما دام معيولهم قادرين على تحمل هذا العبء .

#### الطفيلية تستلزم الطفيلية .

#### الطفيلية

قامت الطفيلية في البداية على حساب الاغنياء . وقد انحرف نظام الزين القديم الذي استتبع حماية « السيد » الأدبية والقانونية عن مفهومه الأول . وقد اصبح من السهل وغير النادر ان ينتخب « السيد » دونما تقييد بأي تقليد عائلي ، كما اصبح من واجب السيد ، الذي لا فرق بين قدرته وثروته المتكاثفتين ، ان يؤمن للزبون حماية مادية ؛ هي أعطية مادية أطلق عليها اسم « سبورولا » التي تعني اشتقاقاً « السلة الصغيرة » المملأ بالمواد الغذائية ، ولكنها استبدلت تدريجياً ببعض القطع النقدية . وقد أضيف اليها ، كما هو طبيعي ، الإشتراك في ولائم الأعياد العائلية او الاحتفالات العامة . وما كان الاغنياء الحريصون على الدعاوة لأنفسهم لأن يقصروا سخاءهم في هذه المناسبات على زينهم دون غيرهم . فالولائم التي ينظمونها يقبل فيها الجميع ، ومن لا يستطيع احتلال مكانه حول الموائد التي تعدّ حتى في الشاحات العامة يعطى « السلة الصغيرة » وحتى « اناء الزيت والنبيذ » الذي يستبدل بمبلغ من المال ايضاً . وليس هذا السخاء سوى ثمن التأثير الاجتماعي والسياسي . ومن واجب الرجل الذي قدرّت له الثروة ان يفيد بها مواطنين أقل حظاً : فامتناعه عن ذلك دليل بخل أي دناءة نفس . أجل لم يجهل الشرق الهليني هذا المفهوم ؛ ولكن نظامه السياسي قد جعله ، عملياً ، مقتصرأ على الملوك . ومن حيث ان نبلاء الرومان قد تمثلوا بالملوك وتمتعوا ، كجماعة ، بسلطتهم ، فانهم قد تبناوا هذا المفهوم ، راضين بما يجره من موجبات : ويمكننا أن نتصور التجاوزات التي تدفهم اليها ثروتهم ومنافستهم على السواء .

أفضى منطق النظام الى الطفيلية التي انتشرت على حساب الشعب - الملك نفسه ، أي على حساب الدولة ، ولكن ببطء . فبينما بدأ عهد اسباغ النعم الكبيرة الخاصة في اوائل القرن الثاني ، اكتفت الدولة خلال فترة طويلة نسبياً بأن تكرر ، شأنها في الماضي وشأن اكثر من مدينة يونانية ، جزءاً من موازنة الاعياد لنفقات الولايم العامة . ولم يفتها من جهة ثانية ان تترك لمنظمي هذه الولايم من القضاة الحرية في ان يجعلوها ، بجودة اصناف ما كلها وبعدد المدعويين اليها ، تتجاوز الاعتمادات الرسمية ، اذا طاب لهم ، في هذه المناسبة ، ان يتباهوا بالانفاق من اموالهم الخاصة . ثم بدأت في ١٢٣ ، مع كلوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الخنطية » التي يكفي هنا ان نستعرض تطورها العام . يبدو ان قانون السنة ١٢٣ قد اقتصر على القليل من الموجبات ؛ فمن حيث انه ارغم الدولة على ان تبيع كل مواطن كمية شهرية معينة من الحبوب بسعر محدد ثابت ، كان بمثابة ضمان ضد ارتفاع الاسعار وطبق عملياً ، على ظروف روما الخاصة التي تجي عيناً الغرامة المفروضة على صقليا ، مجهوداً سبق للمدن اليونانية ان بذلته . ولم يتبدل القصد إلا بعد ذلك بواسطة مشاريع او قوانين تدخل على ثمن المبيع تخفيضاً عظيماً . واخيراً ، في السنة ٥٨ ، سن كلوديوس قانوناً يقضي بالتوزيع المجاني .

ان هذا التطور لمفيد ببطئه ، وباستطاعتنا ان نكتشف له اسباباً كثيرة لا تتنافى بل ترتبط ببعضها على ما نرجح: قصر نَقَس الاغنياء الحاكمين الذين لا يمكن لسخائهم ان يرافقوا ازيد عدد الافواه الواجب اطعامها ؛ اهمال المفهوم الاول للقوانين الزراعية واعتمادها لمنفعة قدامى الجنود وخدمهم تقريباً ؛ المزايدة المحتومة في التدابير المتراخية لصلحة طبقة كادحة اخذت تعي قوتها المتزايدة وتستخدمها ؛ اثره لا نظير له تحققة دولة توسع فتوحاتها توسيعاً مطرداً . وقد انطلق بعضهم من العدد ٣٢٠٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ واكدوا ان الانفاق السنوي قد بلغ آنذاك اكثر من ١٩ مليون فونك ( ١٩١٤ ) ؛ ولكن هذا الحساب يستند الى معطيات غير اكيده وغير ثابتة . ومهما يكن من الامر فالعبء ثقيل . لذلك ، وعلى الرغم من ان الدولة تستطيع حينذاك تحمله دون ان تفرض ضريبة مباشرة على المواطنين ، يجدر بنا ان نلاحظ ان قبولها بهذا العبء يرتبط ، شأنه شأن امور اخرى كثيرة ، بمفهوم الحق ، الذي يعطيه النصر ، في سلب اموال المغلوب ؛ فلماذا يجعل الاستثثار بمنافعه وفقاً على اقلية من الحكام ورجال الاعمال ؟

وهكذا فان المواطن الطفيلي ، سواء دان بفدائه للاغنياء الذين يجمعون او يستعيدون ثروتهم على حساب الولايات ، ام للخزانة العامة التي تمولها الغنائم والغرامات ، يعيش عيلاً العالم الذي فتحته روما او لا تزال مستمرة في فتحه ؛ ان المجتمع الروماني تحول الى نقابة نهاين .

اسباب التسلية  
تفسر كثرة المشاهد اعتبارات ووقائع مماثلة . اجل لقد سيطرت على نشوء مواكب النصر والالعب ومبارزات المسايين اعتقادات دينية موروثه عن الاتروسك . ولكن معناها التقوي ما لست ان زال . ولما كان جمهور المواطنين عاطلاً عن العمل ،

توجب توفير اسباب التسلية له . فصرف الذهن في ابتكار الألاهي وفي مقاومة مله بتنوعها وجدتها . ولما استحال جعل مواكب النصر أكثر تكرراً ، وزع استعراضها على عدة ايام وأدخلت عليها مشاهد تذكر بأهم حوادث الحملة ؛ ثم أحدثت ألعاب جديدة ، استثنائية في البداية ، ما لبثت ان أصبحت عادية . وكثيراً ما حدث ، بحجة الاخطاء الشكلية ، ان أعيدت الالعب يوماً ثانياً وثالثاً وأكثر احياناً ، حتى سبعة ايام ، منذ السنة ٢٠٥ . ثم تنوع وتحسن برنامجها : فأضيفت ، الى الاحتفالات والتهايرن الرياضية ومباريات العدو ، الرقصات الایمايية والتمثيلية المسرحية وعرض الحيوانات الغريبة وقطيعها ، واخيراً مباريات المسايقين التي لم يعد الافراد ينظمونها تقدمه لأرواح موتاهم بل غدت ، منذ اواخر القرن الثاني ، جزءاً لا يتجزأ من الالعب المنظمة باسم الدولة . وباستطاعتنا ان نسرده ، في الكلام عن هذا التطور ، تفاصيل لا تحصى . ولتكتف بثلاثة ارقام : أمر سيلابقتل ١٠٠ اسد ، فرقع بومبيوس هذا العدد الى ٣٢٥ وقبصر الى ٤٠٠ .

وسيتولى الاباطرة ما هو افضل من ذلك . ولكن النظام الجمهوري ، بصدده « الخبز » و « الالعب » ، لا يلزم موقفاً وجلاً : فقد حصل الشعب على قسطه من اللذات التي تسمح بها الثروة ، وخشي المسؤولون عن تأمينها له ، منذ ذلك الوقت ، ان يملّ نخطها الواحد .

وجدت هذه المشاهد والالعب والمبارزات المزيد مما يتممها في تلك التي وفرتها الانفساد والنف الانفساد والنف . ومرد ذلك الى ان الجمهورية لم تقص عنها عامة المواطنين كما استفعل الملكية بل برهنت عن سخائها النادر في تقديم المشاهد التي لا يمكن حتى للمتطلبين ان يحكموا على الحياة والتنوع فيها بأنها غير كافيين . وبما زاد في جاذبها ان ليس ما يمنع احقر الناس من ان يلعب فيها دوراً نشيطاً ، لا بل ان لعب هذا الدور ، الذي هو الامتياز الملكي بالذات ، كان ، نظرياً ، حقاً وواجب كل مواطن . ولكن شتان بين النظرية والواقع . فمن الجلي ان ابسط المستحيلات المادية لا يسمح لك ٣٢٠٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ ، حتى ولو كانوا قاطنين روما ، ان يجتمعوا كلهم ، أي ان يارسوا كلهم معاً نشاطاً سياسياً ، لا مستمراً فحسب ، بل مقتصرأ على العمل الحاسم الذي هو الاقتراع . وقد غدا هذا النشاط بالضرورة وقفاً على شبه محترفين ينضم اليهم احياناً فضوليون تستهويهم احدى المناقشات الكبرى . فهل يمكن ان ينتمي هؤلاء الاختصاصيون لغير العاطلين عن العمل ، او الهواة ، او المأجورين للتناقسين ؟

افساد : ولكن لا نستعملن الكلمة بدون ترو . فان الرابطة بين الحامي والحامي التي تفرض مساعدة السيد في الحياة العامة تعني ارتفاقاً في نظر المعاصرين . ولكن الرومان ، انطلاقاً من المفهوم الاول ، يرون غير هذا الرأي : لا استعطاء ولا شراء ، بل حماية وعرفان جميل توقيري . وكذلك يبقى السخاء الخاص الذي يتناول الشعب بكليته ، في نظرهم ، بعيداً جداً عن التصميم على الافساد الجماعي : انه انعام مجرد عن الغايات ، وان القوانين التي حاولت ، في القرن الثاني ،

الحدّ منه ، يجب ان تفسّر كقوانين تقيد النفقات المفرطة . ولكن هذه الفوارق لا تنافي الحقيقة العارية : فعدد الزين العظيم والمآذب والالاب تؤمن النجاح السياسي . اصف الى ذلك ان قوانين اخرى حاولت تنظيم « المنافسة » ، أي الدعاوة الانتخابية ، وعاقبت خصوصاً شراء الأصوات الفردية الذي مورس على اتساع وقحة متفاوتين . ففي السنة ١١٠ صاح جوغورثا قائلاً : « مدينة معروضة للبيع وناضجة للزوال اذا وجدت من يشتريها » . وهو انما يفكر بالحكام خصوصاً ؛ ولكن هؤلاء مرغون ، في الدرجة الاولى ، على شراء وظيفتهم التي تتيح لهم ، بعد ذلك ، ان يبيعوا انفسهم . ظروف جديدة للكسب لتسبح للقراء ، وضربات موجبة الى سير النظام الطبيعي .

وهناك ما هو اسوأ من هذا الالاساد المتستر او السفية : العنف الذي يدفع اليه الاخلاص المهوس لرجل او لقضية والضمير المسلكي الذي يتميز به الطاغوت المأجور لتنفيذ كافة المهام . وفي ارض الطبقة الكادحة المدنية تجمع عصابات المرجفين ، من المواطنين وغيرهم الذين تنفلت صحابهم وفظاظاتهم انفلتاً يزداد تكرره ، مقاطعة مناقشات الجمعيات والاقتراعات ومفضية احياناً الى الحريق والجريرة . ومنذ فاز طيباريوس غراكوس بمنصب الحامي عن حقوق الشعب ، اضطرت جميع الاحزاب لان تلجأ الى مساندهم ، لان العنف بدا وكأنه الحماية الوحيدة من العنف . فاستقرت الفوضى استقراراً دائماً : وهي مدينة بنجاحاتها المستمرة لوجود جمهور عاطل عن العمل تتولى عناصره المتطرفة ، في خدمة مستخدميها ، إرغام الباقين على الصمت حين لا تجرم وراهها جراً .

الاحتداد امر يسير حين نحاول تهذيب الاخلاق . وفي ما يعنيننا ، لا يمنع الوقوف البؤس والديون موقف الحذر من هذه المحاولات من النزول عندها قسراً ، حتى اذا اخذنا بعين الاعتبار نعرض الذين يلقوننا الدروس والذين تفسر ثروتهم الاحتقار الملبوس عند اكثر الناس انسانية . ولكن هذا الالمحطاط مصدره البؤس . فننذ القرن الثاني ، اتخذ التعبير « عامة الشعب المدنية » معنى ازدرائياً : فانثسي آنذاك ، بشكل نهائي ، المعنى القديم لـ « عامة الشعب » وتحدد معناها المزدوج ، المادي والادبي ، الذي يرافقها حتى اليوم . وان شيشرون ، الذي يمالق الجماهير حين يتوجه اليها ، ليعبر في ظروف اخرى عن اشمئزاه : « قدر المدينة ومثلتها » . لم تحل اية مدينة كبيرة منها ولا تخلو منها اية مدينة كبيرة حتى اليوم . بيد ان الخيف في روما ، في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، هو اهميتها العددية . ولذلك يمكننا القول بهذه الاستعارات على ان لا ننسى آلام هذه العامة ولا مسؤوليات اولئك الذين شاهدوا قيامها لامبالين ، فتركوها تنمو وتتألم ، مستخدمين عيوبها وسجسها ومحركين حماسها وغضباتها .

اجل ليست اسباب التسلية ما اعوزها . وان غذاءها شبه مؤمن تقريباً شرط ان يبقى عدد افراد العائلة محدوداً . وهي تجمع بصعوبة بعض النقود بقيامها بعمل غير مضمون يزيد في ندرته

وجود العبيد . ولكن ما مجموعه لا يكفي لسد النفقات ، ولسنا نذكر هنا بتلك التي تنجم عن البطالة نفسها . فما هو السبيل بنوع خاص لتأمين السكن في مدينة يزداد سكانها بسرعة مطردة ؟

ان تشييد المساكن الكبيرة الجماعية حيث يتكدس الفقراء محرومين من كل رفاهية ، تجارة راودت مخيلة ذوي رؤوس الاموال وانتظروا منها ارباحاً هامة . فالاجور مرتفعة والتشريع قاس على المستأجر . واذا كان الاختلاط يفسد الاخلاق ، فان الاستدانة والقلق الذي تثيره يفعلان فعل خير الثورة . وان مسألة الديون ، التي تجعل منها ادنى ازمة معضلة حادة لا تواجه المبذرين الاغنياء فحسب . فهي اعظم اقضاضاً بالنسبة للفقراء الذين ييحد المهيجون الفوضويون بينهم عدداً كافياً من البائسين لتعريض النظام السياسي والاجتماعي للخطر . وقد سبق ورأينا ان مؤامرة كاتيلينا قد صادفت في الزمن احد هذه الاندفاعات المحمومة . وكانت بداية الحرب الاهلية الكبرى الثانية منطلقاً لاندفاع آخر ، لا سيما وان بعض انصار قيصر قد اعتقدوا ان الساعة قد حانت ، بانتصاره ، لتحقيق كل مجبوحة ورخاء . وقد انتهز بعض الحاميين عن حقوق الشعب غياب الدكتاتور واقتروا ، في السنة ٤٨ ، وفي السنة ٤٧ ايضاً ، تأجيل دفع الاجور وإلغاء الديون ، ولم يعد النظام الى نصابه دون اشتباكات دامية . وحين عاد قيصر ، توفيق ، بعد صعوبات شتى ، الى سن قانون تقديمي يقضي بحسم الفوائد وتأجيل الدفع سنة واحدة والغاء سجن المدينين .

ان هذه الاضطرابات ، بتكررها وخطورتها ، تمّ عن شيء آخر غير السجس الخاص بهذه الطبقة : بؤس مادي وأدبي يجعل من ضحاياها أدوات في ايدي عنف أعمى .

## الخاتمة

ان هذا العرض أبعد من أن يستطيع تبيان كافة مفارقات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما وايطاليا . ولعل عيبه الاول انه لم يعط استقلالاً كافياً لطبقة لن تهب ريجها إلا في العهد الامبراطوري مع انها اخذت تبرز ، ناشطة جداً ، في العهد الجمهوري : اعنى بها « بورجوازية » البلديات الايطالية ، والطبقة الوسطى في المدن الصغرى . وهي في الحقيقة تكاد لا تتميز عن الفرسان الذين انضم اليهم أكثر اعضائها حظاً ، والذين لا يتميز جمهورهم ، بدوره ، عن الملتزمين العموميين . واتصفت بالنشاط فدانت هي ايضاً لاستثمار الفتوحات برؤوس اموالها الاولى ، حتى ولو وظفتها بعد ذلك في الاراضي التي راقبت تحسينها . غير ان دورها السياسي ، اذا كان دورها الاقتصادي هاماً ، قد بقي في العهد الجمهوري ولا أثر له تقريباً : ولكن عناصر بشرية نشأت فيها لن يفوت النظام الامبراطوري الاستفادة منها للادارة ، وحتى لتولي شؤون الدولة في عهد فسبسيانوس .

لذلك فان الكلام عنها كطبقة مستقلة تقابل الطبقات الاخرى لن يبدل شيئاً في الاستنتاج العام . فقد هدف كل هذا العرض الى تبيان مدى العمق الذي بلغه الفتح الروماني في قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الشطر الاعظم من ايطاليا . فهو قد حقق ، على دفعات قوية تلتها تقنية منظمة ارهقت المناطق التي اخضعت لها ، انتقال كنوز ، الى شبه الجزيرة ، كدستها اقدم وأغنى حضارات شواطئ المتوسط . وبفضل هذه الكنوز ، احدث في ايطاليا اقتصاداً دقيقاً وركيكتاً بفعل تركيبه . فأتاح للبعض جمع ثروات طائلة وهوّز البعض الآخر بمنافسة المصنوعات المستوردة والعميد الغريباء ، واوجد بالتالي تفاوتاً اجتماعياً بيننا وأثار معاضل عجز النظام ابداً في معالجتها عن اعتماد حلول غير الحيل واستخدام القوة ، او عن اكتشاف هذه الحلول نفسها .

ليست امية التطور الاقتصادي والاجتماعي ، بغية تفسير « موت » الجمهورية الرومانية ، دون امية التطور السيامي نفسه ، وقد وجه التطورين على السواء مدى الفتوحات وتوسّعها الدائم .

## هليانة روما: الديانة

لقد برز أيضاً تطور عظيم في حياة الرومان الأدبية ومعتقداتهم وطقوسهم الدينية ومثلهم الجمالية . ومع انه يشبه ، باتساعه ، التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، فانه ينطوي على بعض المميزات الخاصة .

من هذه المميزات انه اقل استقلالاً حيال التأثيرات الخارجية . ويمكننا في الواقع تحديد هذا التطور بكلمة واحدة : « هليانة » . ويدعي ان هذا التحديد موجز ، شأن كل تحديد . لذلك سنحاول في هذا البحث ان نضيف اليه ما ينقصه بالضبط . ولكنه على العموم تحديد مقبول : فان الاغريقي الذي ينزل روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، لا يستطيع ، دون اطلاق مسبق ، ادراك المعامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بينما هو لا يستغرب المشاغل الدينية والفنية والفكرية . ولا يعني ذلك ان قرب ومثّل الحضارة اليونانية ، الحاسمين هنا ، لم يترك أثراً هناك . فهناك ايضاً قد فعلا فعلهما وقد سبق وألحنا الى ذلك ، كأثر. مثّل الفاسيلفس (الملك) على القادة الظافرين . ولكن هذا الاثر ، المحدود دائماً ، لم يلعب سوى دور ثانوي ، ضائعاً بين العوامل الرومانية بالذات . وليس بالتالي ما يستحق المقارنة بما سيظهر الآن .

لما كان هذا التطور قد استطاع ان يجبل ، بصورة ابعد عمقا ، النفوس والعقول وفاقاً لنماذج اجنبية ، فهذا يعني بالضرورة انه كان مطلق الحرية في العمل . ولا عجب في ذلك . فالدولة والمجتمع قد ابديا مقاومة افضل لان الانظمة والمصالح قد ساندتها ، بينما كانت الحياة الادبية اكثر مطاوعة . وقد اسهم التطور الذي تناو لها في خلخلة التنظيم القديم لانه بدل مثال الانسان الذي توافق معه هذا التنظيم . ولكن نتائجه كانت ابطأ ظهوراً : فهو لم يصطحب اية ثورة فورية في نظام الطبقات المختلفة وعلاقتها المتبادلة . لا بل لم يتضح قط للمعاصرين ان الملكية الامبراطورية قد استندت اليه لتجمل من نفسها وريثة الفوضى الجمهورية . فعلى نقيض ذلك ، حاول النظام الجديد ، اقله في اول عهده ، مقاومة بعض الشخصيات التي اعتبرها المحافظون

على التقليد افساداً وشرراً . فعلى الصعيد الديني تظاهرت النزعة التي يمثلها اوغوستوس بالمحافظة على ما هو قديم . ولا فرق هنا اذا كانت صادقة وفعالة ام لا : ولكن الشيء الاكيد ان التطور الثقافي لم يرتبط ارتباطاً مباشراً ، بنسبة غيره ، بالتيار الذي افضى بروما الى نظام جديد .

ومن هذه المميزات ايضاً - وهو يرافق الاول - ان التطور ، على هذا الصعيد ، كان اسرع حصولاً . اجل لقد ازدادت سرعته وغدا اثره اعظم انتشاراً وعمقاً في القرنين الاخيرين من العهد الجمهوري . ولكنه اخذ بالبروز قبل ذلك بزمان بعيد . ويرد تقدمه النسبي الى انه اقل ارتباطاً بالظروف المادية ، ولاسيا الثروة . كان لهذه الاخيرة اثرها : وان نكران ذلك ، بصدد الفن مثلاً ، معناه المغالاة ، حتى الولودية ، في الخوف من التدنيس المادي . ولكن الارتباط ، على صعيد الديانة والادب ، لا يظهر بهذا الوضوح الملم . لذلك فقد اكتفى الرومان ، دون ان ينتظروا الفتوحات الكبرى واستثمارها ، بروابط ايسر وايسر اقامة . منذ عهد باكر ، لعب الاتروسك دور الوسيط مع الحضارة اليونانية ، بالاضافة الى اثرهم المباشر العظيم بفضل سيطرتهم . ناهيك عن ان الحضارة اليونانية لم تكن محصورة في الشرق المتوسطي . فمنذ القرن الثامن استوطن بعض الاغريق ايطاليا الجنوبية . وكانوا على صلة بكافة مناطق شبه الجزيرة . واقتبست عنهم روما الشيء الكثير حتى قبل ان تخضعهم . ومنذ ان بدأت تتدخل في اليونان البلقانية ، في اوائل القرن الثاني ، تكلم كثير من قاداتها وساستها اللغة اليونانية بسهولة : منذ ذلك الوقت ، جعلت النخبة الاجتماعية بثقافة اجنبية كان من الطبيعي ، بعد تسربها ، ان يزداد انتشارها . لا بل كان من شأن تفوق الحضارة اليونانية وجاذبيتها ونفوذها ، لو استطاع العالم الهليني المحافظة على استقلاله ، ان يضمن هليانة روما ، ولو ببعض البطء . ولكن فتحه قد زاد ، بفضل الصلات المتعددة ونقل الرجال ورؤوس الاموال من الشرق اليوناني الى ايطاليا ، في سرعة تطور ترقى اصوله ونتائجها الاولى الى عهود قديمة جداً .

اجل « ان اليونان المحتلة قد احتلت قاهرها اللفظ » . ولكن هوراثيوس ، حين أكد ذلك ، قد فكّر بأدب معين ، وحتى بعروض معين . لذلك فلنحذرن الامثال السائرة : اذ ان هذا الجار اللفظ لم ينتظر احتلال اليونان كي يلتبس دروسها .

## ١ - الديانة والحياة الدينية التقليديتان

تبدؤ سرعة هذا التطور بوضوح خاص في الحياة الدينية .

لم يأل الاختصاصيون جهداً في البحث عن الديانة الرومانية الاولى وادراكها . وقد ساعدت مجهودهم هذا ، ولا تزال ، ظروف مؤاتية : معلومات علماء الاجتماع وأصول الشعوب عن الذهنية الاولى ، تقدم الأسلية ، اعتماد أساليب المقارنة ، اخيراً ،

وخصوصاً ، - اذ ان هذه الظروف ليست وفقاً على الدروس عن الديانة الرومانية - الوفرة ، اقله النسبية ، في المستندات الموجودة المدينة ، هي ايضاً ، للتعمير الاستثنائي الذي عرفته اسماء وطقوس يرفع التحليل ، بجلاء متفاوت ، الستار عما يحيطها من معتقدات . ولذلك فقد ادى هذا المجهود الى نتائج اكثر اقناعاً ، بوضوحها ، من تلك التي ادت اليها حتى اليوم دراسة الديانة اليونانية مثلاً .

ليس في اي مكان غير روما ما يفرض بمزيد من الاقتناع ، المقارنة المؤثرة بين النزعات الدينية في شعوب العصور القديمة ونزعات شعوب اليوم المتخلفة . فعلى غرار هؤلاء آله الرومان الاولون القوة الحيوية والطاقة الخفية والقوة التي تتحكم بالعمل وتحققه ، سواء كان هذا العمل بشرياً ام مستقلاً عن الانسان ؛ والعامل ، يد او شيء جامد ، وهو غير منظور احياناً ، لا قدرة له بدون الارادة التي تستخدمه لعملها . فهذه الارادة اذن ، او ارادة غيرها تناهضها ، هي التي يتوجب على الانسان ان يحاول استمالتها حتى تنفعه اذا كانت متعطفة وحتى يبطل اذاها اذا كانت مضرة .

ان هذا الاعتقاد الذي استمر حياً ، يفسر ميلاً طبيعياً دفع الرومان الى ان يكرموا ، كآلهة او عقاريت تدير هذه الأعمال ، اقل عمل ، لا بل اقل مرحلة من مراحلها . وقد اعترف الرومان بعدد لا يحصى من « القوى » او الارادات وخصوصاً بجرعة احترام او تقديراً او صلاة قصيرة : فالطفل يرضع بفعل قوة من هذه القوى ويشرب ويأكل بفعل غيرها ، وتقوم « قوة » بالحراثة الاولى ، وغيرها بالحراثة الثانية والاسلاف وقلب الارض ونزع الأعشاب ، وتكونت « قوة » عقد جذع الحنطة ، واخرى تعطي الحبة غلافها ، الخ . ان هذا الاستعداد العقلي ، الذي لم يتلاش في يوم من الأيام ، قد ادى بسرعة الى تأليه مجردات هي خاصيات رمزية لبعض الآلهة ، ثم افضى ظهور الفلسفة الى اعتماد هذه الطريقة اعتماداً متزايداً : فكانت لكونكورديا ( اتفاق ) معبدها منذ السنة ٣٦٧ ، والليبرتاس « *Libertas* » ( الحرية ) ايضاً في السنة ٢٣٨ ، ولهونوس وفيرتوس ( الشرف والفضيلة ) في السنة ٢٣٣ ، الخ .

لم تمنع هذه النزعة المزدوجة الى تعميم ما هو الهى وتجزئته الى ما لا نهاية له من اعتبار بعض « القوى » اعظم شأناً من غيرها . ومن البديهي ان تسلسل مراتبها قد اختلف باختلاف الأوساط الاجتماعية وباختلاف الزمان . ويثير اكتشاف أسباب هذا التسلسل واختلافه صعوبات كبيرة ، لأن تأثيرات كثيرة ، تتفق تارة وتتناقض اخرى ، قد فعلت فعلها منذ عهد قديم جداً ، ولذلك فان الترتيب ، كما تجدر محاولته ، يرافقه بالضرورة ارتياب وتحكم .

ولا يعقل ان لا يكون الرومان قد ورثوا شيئاً عن اقدم شعوب ايطاليا الاصلية التي انتمت هي نفسها الى مجموع « المتوسطيين » . ولعله من الجائز ان ننسب الى هذا المنشأ عبادات تتجه في الواقع ، من وراء آلهة مختلفة الاسماء ، الى مبدأ الخصب ، ويبدو ترجيح المنشأ نفسه ممكناً

لبعض مظاهر عبادة الاموات لاسيا وان ارتباطها بالعبادات الزراعية ، عن طريق اعتقاد مشترك بالتجديد والبقاء ، امر طبيعي جداً من جهة ثانية .

ويتمثل اسهام الهندو اوروبيين بالآلهة السماويين : فان اسم جوبتير ، إله النور والزوبعة ، يحتوي على اسم زفس الذي اضيفت اليه في حالة رفع الاسم ، تسمية « Pater » ( الاب ) . وبما لا ريب فيه ايضاً ان عبادات المنزل ( فيستا ) والعائلة تتصل بالمنشأ نفسه .

واخيراً فملت بعض التأثيرات الاتروسكية واليونانية فعلا تنظيمياً بغية تقريب « القوى » المتجاورة واعطاء بعض الآلهة شخصية مميزة . ولكن الاتفاق ابعد من ان يتحقق آنذاك حول طاقتها وتجليدها وموعد مفاعيلها .

اضف الى ذلك ، ان هذه التأثيرات الأخيرة ، هما بلغ من قوتها ، لم تحد قط ، تعدد الآلهة بشكل محسوس ، من تكاثر مطرد لامتناه في عدد الآلهة الذين اعترف بهم الرومان . فقد عرفوا أكثر من جوبتير واحد خص كل منهم بنعت عبادي يميزه ، وبمعبد او مذبح ايضاً . فقد حمل هذا الاسم آلهة سياسيون : إله المدينة الاعظم الذي اقام له الملوك الاتروسك معبداً على الكابيتول ، وإله اتحاد المدن اللاتينية ، لاتييار ( Latiar ) او لاتيال ( Latial ) الذي كان له معبده على الجبل الالبي ؛ وآلهة سماويون ، فكان هنالك جوبتير لوسيتيوس ( Lucétius اللامع ) واليسوس ( Elicius المطر ) وفولغور ( Fulgur الزوبعة ) وسومانوس ( Summanus البرق الليلي ) وتونانس ( Tonans الرعد ) ؛ وآلهة تستجلب السعد ، فكان هنالك جوبتير فيريتروس ( Férétrius ) ، إله الشجرة التي تعلق عليها غنائم العدو ، ولايس ( Lapis ) ، الإله الذي تمثله صوافة ، ويطلب انه استمرار لعبادة الفأس في عهد ما قبل التاريخ ؛ وآلهة عسكريون ، فكان هنالك جوبتير بروونياكتور ( Propugnator المدافع المهارب ) ، وستاتور ( Stator « موقف » المارين ) ودينولسور ( Dépulsor « طارد » الأعداء ) وفكتور ( Victor المنتصر ) . وباستطاعتنا ان نمضي في التعداد بعيداً وان نقوم بتعداد مماثل لكثير من الآلهة .

يبدو على بعض الرضوح ، من ثم ، ان مجهود التنظيم ، الذي لم يصبح قط قياسياً ، والذي لم يتجل إلا بالمائة ، قد حقق نتائج محدودة جداً . ويمكن القول نفسه عن مجهود التوضيح . فان الرومان بفعل اعتقادهم بانتشار المبدأ الإلهي في الطبيعة انتشاراً شاملاً ، يبدون وكأنهم قد رضوا اهدأ عن مفاهيم مترددة ومبهمة . فهم لم يهتموا إلا بقناعة قصوى مدهشة ، لإعطاء شخصية لآلهتهم وحتى للتثبت من هوياتهم . فلا التشبيه ، ولا الميثولوجيا ، على ما تجيزه من فوارق ، شكلاً بالنسبة لهم حاجات او قناعات حقيقية ، حتى ولو تعلموا مبادئها على يد الاجانب . ودرجوا على ان يدخلوا على صلواتهم صيغاً متحذرة كهذه « ذكرأ كنت ام أنثى » او « أياً كان الاسم الذي تؤثر اطلاقه عليك » . ومنعهم الاعتقاد نفسه من ابداء أي اعتراض مبدئي

على استقبال إله جديد : فقد كفاهم في السنة ٣٩٠ ان يبنىء صوت مجهول احد المواطنين ، ليلاً ، بوصول الغالين قريباً ، حتى يشيدوا ، دوغما اعتبار آخر ، مذبحاً لأبوس لو كوانس او لو كوتوس ( *Aius Loquens ou Locutius* ) ( المتكلم ) . وهكذا ايضاً يمكن تفسير احدى خصائصهم الدينية البارزة ، أعني بها قابليتهم ، التي لا نظير لها في الشعوب القديمة ، حيال الآلهة الاجانب . فقد كانوا مستعدين لكل تقارب ، معتمدين دون صعوبة ما أسموه « بالتأويل الروماني » . أي اكتشاف إله يعرفونه ويعبدونه ، في الإله الاجنبي ، ولم يكونوا من جهة ثانية اقل استعداداً لتبني الإله الجديد باسمه الاجنبي دون ان يبحثوا في زوئهم عن إله مماثل او إله يدخل هذا الإله الجديد في الزون (الباتيون) .

الانسان امام الآلهة  
 مها يمكن من ارتفاع عدد هذه القوى الخفية المبهمة ، وربما بسبب عددها الذي حال دون رغبة المؤمن في ارضائها جميعها ، فقد حدث للمؤمن ان خشياً : ولكنه كان من المستحيل عليه ان يجها . وليس المقصود هنا بالشعور العاطفي : فكل شيء قد اقتصر على طقوس حددت تفاصيلها ووجب الخضوع لها .

لا ريب في ان هذه الطقوس قد ارتدت في الاصل طابعاً سحرياً مكرهاً للقوة التي تقسام الطقوس من اجلها . ولم يزل هذا الطابع عنها كلياً : فان استعمال بعض الادوات واللجوء الاضطرابي الى لباس التنكر يرتديه المشتركون في الطقوس ، وحتى الشخص الرئيسي ، كالقائد الظافر في موكب النصر ، لا تفسير آخر لها ؛ واستمرت بعض الصلوات ايضاً بمثابة رقى حقيقية ، ولم يتجاسروا في سواها ، إلا بكل عناية واهتمام ، على تعديل أية كلمة من كلماتها . إلا ان هذه الطقوس ، حين نستطيع فهمها ، ترتبط في مجملها بالاصول القانونية التي تنفرح ، مع ما يرافقها من ايماءات وصيغ ، عن السحر ايضاً . واننا لنجد احياناً مطابقة مدهشة بين ايماءات وصيغ مماثلة ، نقلت نقلاً احياناً من طقوس الى اخرى ، في ممارسة القانون المدني وممارسة الديانة . « فالتقوى » تعتبر قبل كل شيء آخر كعدالة نحو الآلهة ، أي كتنفيذ ، غاية في الامانة والدقة ، لكل ما هو متوجب لهم وما نعلم علم اليقين بأنه يرضيهم ، حتى نستميلهم لاستجابة ما نطلبه منهم . اضع الى ذلك ، في اغلب الاحيان ، ان الصلاة والذبيحة يرافقها نذر ليس سوى صفقة مؤخرة الاجل ، يعبر المؤمن فيه ، بكلمات يجتهد معها الحؤول دون أي تهرب يمكن ، عما يلتمسه وعما يتعهد بتنفيذه حين يستجاب ملتسمه .

اجل ليس هذا المفهوم خاصاً بالديانة الرومانية : فالانسان ، في ضعفه يستخدم كل وسيلة لديه تجعله يأمن شر القوى الفائقة الطبيعة . ولكنه لا يبرز ، في اية ديانة اخرى ، بمثل هذا الوضوح وهذا الشمول .

الديانة المائلية  
 كان هنالك تعبد خاص . ومع ان الدولة لم تفرض اية عقيدة ، فقد كان لها الحق في مراقبته . ولكنها لم تستخدم هذا الحق الا عرضاً ، وفي عهد متأخر ، بغية منع المبادات التي اعتبرتها خطيرة . ولذلك فقد ارتدى هذا التعمد اشكالاً مختلفة جداً . ونحن

نشأه خصوصاً في مظاهر العبادة المنزلية لا لانتنا نعرفها معرفة جيدة عند الرومان فحسب ، بل لانها عندهم اعظم شأنًا منها عند اي شعب آخر .

فهل كانت علّة ام معلولاً يا ترى ؟ وهل هي قاعدة تنظيم العائلة الرومانية الوطيد ام انعكاس وجودها السابق على الصعيد الديني ؟ لقد اخذ فوستيل دي كولانج ، بقوة منطقته المعروفة ، بالتفسير الاول جاعلاً من العائلة بعد ذلك الخلية الاولى التي كونت المدينة بانضمامها الى خلايا اخرى . ولكن اكثرية الناقدين الساحقة تميل منذ زمن بعيد نسبياً ، كما يبدو ، الى التفسير الثاني . ومهما يكن من الأمر ، فان هذه العبادة قد جاشت بجيوية ومقاومة اقوى منها في العبادات الرسمية .

استلزمت عبادة فيستا العائلية ، التي لم يكن مذبحها سوى الموقد المنزلي الذي لا تنطفئ ناره ، والذي تلقى فيه القرابين في ساعات معينة ، فيندلع منه اللهب الراقص ، ويقدم له رب العائلة قرينته حال زواجه منها وطفله حال ولادته . واستلزمت ايضاً عبادة « جن » العائلة الذي غالباً ما تمثله حية مرسومة على الحائط قرب الموقد ، وهو روح الجدود والقوة الحيوية للذرية المتجسدة في رب العائلة ، بينما كان لربة العائلة إلهة حامية هي « جونون » . ولم تهمل العبادة شئ « قوى » المنزل وحياته ، ابتداء من آلهة البيت ( *Pénates* ) الذين اشتق اسمهم من كلمة *Penus* ( المون ) . وقد دخل عليها آلهة من الخارج لاسيما الـ « لار » ( *Lares* ) آلهة الاملاك : فنذ او اخر القرن الثالث يتأيد وجود « لار » عائلي .

وما كانت الديانة المنزلية لتنسى الموتى . ولكن عبادتهم على ما يبدو ، كانت الجزء الاضعف فيها ، ما لم يشتركوا ، كجدود ادين ، في عبادة جن العائلة ورئيسها . ولكنهم اعتبروا مستمرين في حياة غامضة ، دون ان يشعر ذوهم بمجاجة الى توضيح اقامتهم تحت الارض . وكان من المهم ارضائهم بالقرابين ، وقد عنى اسم « مان *Mânes* » ، الذي ظهر في عهد متأخر نسبياً ، الموتى الذين امكن ارضائهم . اما اهل الموتى الآخرين ، الـ « لارف » ( *Larves* ) والـ « ليمور » ، فقد جعلهم يعودون الى الأرض ، قلقين ومؤذنين : حاولوا من ثم طردهم من المنزل باحتفالات خاصة . وهناك اكثر من سبب يجعلنا نشك في ان كل ذلك كان رومانياً حقاً في الأصل . وانما تجدر الاشارة الى ان الذعر الذي استحوذ على الاتروسك لم يتسرب قط الى هذه العبادة .

لما كانت حياة الروماني القديم العادية حياة فلاح ، فقد رافق العبادة المنزلية ديانة فلاحين بالضرورة عبادة لمنفعة الاملاك ، معدة للمحافظة على المواشي والبذور والحصاد وازدهارها . ولدينا ، بهذا الصدد ، في بحث « كاتون » في فن الزراعة ، تفاصيل عديدة دقيقة عن الاعياد الواجب الاحتفال بها والذبائح الواجب تقديمها والصلوات الواجب تأديتها وتطواف الحيوانات الواجب تنظيمه حول الاملاك . فكل عمل من اعمال الحياة الزراعية يجب ان يرافقه

عمل ديني يلتبس بنجاحه او يحاول تهدئة غضب اله المكان ، قبل القطاف ، تقدمه نبيذ وامعاء خنزيرة لـ « سيريس » ، ونبيذ وبخور ونوع مختلف من الحلو يضاف الى كل منها لـ « جانوس » وجوبيتر ؛ وقبل تخفيف شجر الغابة او الشروع باحياء الارض ، تضحية خنزير ؛ الخ . وكان يتولى تقديم هذه القرابين فرد من الأفراد ، كرب العائلة للعبادة العائلية . ولكنه بذلك كان يسهم في الأزدهار الجماعي : فقد اقتنع « كاتون » بانـه مواطن فاضل حين يقوم بواجبه كملاك فاضل .

ومن جهة ثانية تسربت المشاغل الزراعية تسرباً عميقاً الى الديانة الرسمية ايضاً . اجل لم تأت أبعد الروزنامات قدماً ، التي نسب تحديدها الى الملك « نوما » ( *Numa* ) ، على ذكر جوبيتر الكابيتولي ؛ ولكن العدد الاكبر من الاعياد التي لحظتها هذه الروزنامة وغيرها قد مثلت ، بمواعيدها ، وطقوسها حين يمكننا تفسيرها ، وبالآله موضوع العبادة ، أعياداً من الحياة الريفية . وقد اشترك عدد كبير من عظام الآلهة في هذه الحياة منذ القديم او اشتركوا فيها بمداورة ما . فكان هنالك « جوبيتر ليبر » ( *Jupiter Liber* ) إله الكرمه وأعياد للنبيذ الجديد . وقد كان « نبتون » ( *Neptune* ) إله الينابيع قبل ان يغدو إله البحر . واشتق اسم « ساتورن » *Saturne* من كلمة *Sata* التي تعني « الاراضي المزروعة » . وان « مارس » *Mars* نفسه ، الذي اعتبر في النهاية إلهاً للجيش والحرب ، قد قام في البداية بدور ليس دون هذا الدور شأناً كبحام للعمل الزراعي ومحاصيله : فهو من أقيمت لأجله احتفالات « التطهير » بتطواف دائري تعقبه ذبيحة كبرى ، وصفها « كاتون » كما وصف الصلاة ايضاً ، مورداً كلماتها الكثيرة التدقيق ، ان تمتع وتطرد وتبعد الامراض المنظورة وغير المنظورة والجذب والتخريب والكوارث وآفات الفلك ... » .

الديانة الرومانية القديمة هي قبل كل شيء آخر ديانة ارباب العائلات والفلاحين : ويجب ان نفكر هنا بما كانت عليه ، زمناً مديداً ، حياة الطبقة الحاكمة اقتصادياً واجتماعياً في روما حيث اتاح التملك قيام واستمرار العائلة المجموعة حول رئيسها . وليس عرضاً انها كانت في الوقت نفسه ديانة حقوقيين : فليس من التحكم ان نكتشف فيها ، مع اعترافنا بأن هذه المشاعر قد بلغت في هذا الشعب درجة خاصة من القوة ، الحرص على المصالح وتفهم الواقع ، وكلاهما محتومان ، او أقله أكثر طبيعية من الظواهر الصوفية الحارة ، في ملاكين ورؤوساء كتل عائلية يتحملون اعباء المسؤولية . فكان من المتوقع ان تتبدل أمور كثيرة كي تتبدل نفس البشر وتبدل معها ديانتهم ؛ ولكن هذه الديانة ، بفعل القوة التي يوليها التقليد ، قد قاومت التبدل مقاومة عنيفة .

تبنّت المدينة بين الآلهة الكثيرين عدداً كبيراً ، ولم تكف عن تبني آلهة جدد ، الكهنوت دون ان ترضى ، في أي حال ، بالتخلي عن إله قديم واحد . وسيتباهى اوغوستس بأنه أعاد بناء ٨٢ معبداً في روما : فاذا ما فكرنا بالمعابد السلمية والمذابح البسيطة جاز لنا ان

تتخيل عدداً مرتفعاً جداً . وقد اقتضى هذه العبادات الرسمية من يؤمنها ويحتفل بأعيادها باسم الدولة . فعاد نصيب كبير من هذا العبء ، كما في المدن اليونانية ، الى القضاة الذين هم الوراثة الرئيسيون للسلطات الدينية التي تمتعت بها الملكية القديمة ، لاسيما حق استطلاع الحظ وتقديم الذبيحة باسم الجمهور والتعهد بالنذور التي تقيدته . ولكن بينما كان لدى الاغريق كهنة دائمون قليلون ، كان لروما عدد كبير منهم .

ان كلمة « *Sacerdoce* » تنطوي على واقع من الصعب جداً تحديده بسبب فقدان كل صفة مشتركة حقيقية . لا بل ان التحديد السليبي نفسه يجب ان يفسح مكاناً للاستثناءات . واذا ما نحن أهمنا اقل هذه الاستثناءات خطورة ، يكفي ان نقول ان أعضاء لم يؤلفوا اكليروسا او هيئة كهنوتية . فجاءاتهم قد بقيت مستقلة بعضها عن البعض . وكانوا جميعهم مكرسين ترافقهم صفتهم الكهنوتية حتى الموت . ومع ذلك فقد عاشوا في الوقت نفسه حياة المواطن العادية دون ايقاف نشاطهم السياسي الذي قد يرغمهم ، مثلاً ، على التفتيح عن روما وتولي قيادة احد الجيوش . إلا ان وظائفهم لم تكن شاغلة ، ولم تجعل منهم وسطاء بين المدينة والآلهة . فقد قاموا خصوصاً بدور القيمين والمستشارين الدينيين لدى السلطات العامة . بيد انه يجدر القول مرة ثانية هنا ان أياً من هذه التأكيدات لا ينطبق تماماً على كافة الأعضاء . فقد مثل الكهنوت الروماني سلسلة من المؤسسات المتلاصقة التي ظهرت في تواريخ مختلفة واستجابت لرغبات مختلفة بمصادرها ومبادئها وتنظيمها . لا بل لا يجوز القول ان الكهنوت يجمع فئاته قد خضع لتطور عام : فكان للتطور سرعته الخاصة في كل من الفئات التي تناولها ، وقد تملص بعضها منه .

فبالنظر الى مثل هذا التنوع في الفئات الكهنوتية والى عددها الكبير ، نرانا عاجزين عن استعراضها استعراضاً كاملاً ، لذلك نكتفي ببعض الأمثلة .

كان هنالك كهنوت فردي . حافظ « ملك الذبائح » ( *Rev Sacrorum* ) على الصلاحيات الدينية التي لم تنتقل الى القضاة . وأشرف على الذبائح والولائم المقدسة والاعیاد : وليس هذا سوى دور تمثيل . وكان هنالك ١٥ كاهناً خاصاً افرد كل منهم لإله معين ؛ وقد خدم ثلاثة منهم إلهاً عظيماً ، جوبيتر ، ومارس ، وكويرينوس ( *Quirinus* ) . واحيط دياليس ( *Diulis* ) ، كاهن جوبيتر ، بأعجاب عظيمة ، ولكنه اخضع ، كما أخضعت امرأته « الكاهنة » لمراسم عبادة مازمة جداً ولألف تقييد ، كلها قديمة المنشأ وغالباً ما يخيم الغموض على تفسيرها . فيجب ألا يلبس الجلباب ويشذب الكرمه ويستهلك شراباً او طحيناً مختمراً ويرتدي ملابس كتانية او غيرها مما يقتضي عقدة او حلقة ، ويلبس او يمتطي الحصان ويرى سلاحاً او يشاهد ميتاً ، الخ . وتفسر شدة هذه المحرمات ، دون جهد ، كيف ان هذه الوظيفة ، في اواخر العهد الجمهوري ، قد بقيت شاغرة طيلة ثلاثة ارباع القرن بسبب عدم تقدم مرشح اليها بين الأشراف الذين استبقيت لهم .

ومع ان الفيستاليات ( *Vestales* ) قد انتظمن في هيئة ، فانهن قمن ايضاً بدور نشيط ككاهنات . كن ثلاثاً في البدء ثم غدون ستاً ترئسن احداهن ، « الفستالية العظمى » ، وكانت مهمتهن الرئيسية الانتباه الى العناية بالنار المقدسة ، رمز حياة المدينة ، التي يجب ان تشتعل باستمرار في معبد « فيستا » . وكن ينتخبن صغيرات من العائلات الكبرى ، ويقمن في المعبد الذي يجب ألا يلجه أي رجل . وكن يؤدين ، من جهة ثانية ، نذر عفاف تعرضن مخالفته لأن تدفن حيات في حال ان عقوبة السوط تكفي لمن تكلف منهن العناية بالنار فتركها تجبو . ولكنهن ، في سن الثلاثين يعدن الى الحياة العامة ويستطعن الزواج .

اما اعضاء بعض الاخويات ، كاللوبيرك ( *Luperques* ) والسالين ( *Saliens* ) والأرفال ( *Arvales* ) ، النخ ، فقد احتفلوا باعياد طقوسها قديمة جداً تستلزم التطوافات وسباقات العدو والرقصات والأغاني . ولكن احتفالهم ، في الحقيقة ، ترتبط بالعبادة العادية . وعلى نقيض ذلك فان هيئة العشرين قاضياً وكاهناً تكفي بايفاد بعض اعضائها للقيام بالطقوس التي لا حرب « عادلة وتقوية » بدونها ، اي معلنة وفاقاً لقواعد القانون الانساني والديني ، ولا معاهدة مقبولة شرعاً : فإعلان الحرب يلقي احدهم بقوة نبله لارأس لها في ارض العدو بينما يحمل آخر اعشاباً مقدسة مجموعة من الكابيتول يسلمه إياها احد القضاة .

ولا تتعدى الطقوس الظرفية ايضاً تلك التي يقوم بها ، بفعل دعوة إلهية ، الاحبار المجموعون في هيئة من ثلاثة او خمسة اعضاء اولاً ، ثم من تسعة ابتداء من القرن الثالث ، واخيراً من ١٥ منذ سلا ، يرئسهم « الحبر الأعظم » ( *Pontifex maximus* ) . انطلق هؤلاء من وظائف وضيفة واعترف التاريخ القديم كله بان اسمهم عنى « صانعي الجسور » ، ويبدو هذا المعنى الاشتقاقي واجباً على الرغم من تردد بعض المعاصرين . فقد اسندت إليهم ابدأ مهمة العناية بحجر « سوبيسيوس » ، الوحيد والمهم جداً ، الذي وصل ضفتي نهر التير ، ويغلب انه بني من الخشب فقط دون اية قطعة معدنية . ولكن تطوراً لمجهله جعلهم يسمون الى مصف حراس التقليد ، ومفسري الأنظمة ، وقضاة القانون الديني ومنظمي ومراقبي التعبد الرسمي . وبصورة خاصة راقب رئيسهم الفيستاليات ؛ وكانت مراسيم الهيئة حول الاخطاء الشكلية ملازمة للقضاة وللكهنة الآخرين . فن الطبيعي اذن ان يتمسك اوغوستس وجميع خلفائه بحمل لقب « الحبر الأعظم » . واذا ما اقصرنا الكلام على العهد الجمهوري ، نرى ان تقدم سلطة الاحبار على حياة روما الدينية قد ادخل النظام إليها ، ولكنه اسهم ايضاً في إحاطتها بالخطر والتمسك المفرط بالشكليات .

وكانت مهمة هيئة العرافين المؤلفة من ثلاثة ، ثم من تسعة ، ثم من خمسة عشر ، تطبيق تقاليد العلم التفاؤلي ، لا سيما بموجب مراقبة طيران الطيور داخل بقعة محددة في الفلك وبواسطة القضيب المنحني الذي امسى الشارة الرمزية للعرافين : ومن حيث انهم يعرفون ما اذا كانت

استمدادات الالهة موافقة ام غير موافقة ، فان آراءهم يجب ان تتقدم كافة افعال الحياة العامة .

وانيطت العرافة ، عن طريق استقراء امعاء الضحايا ، ولا سيما كبدها ، باختصاصيين اطلق عليهم اسم *Haruspices* ينتمون باغليبيتهم الى اتروريا بسبب ما اشتهر عن الاتروسك من اتقان هذا العلم والاحتفاظ به .

احل التقليد في عهد الملوك الاتروسك لاتباع مجموعة من الأوامر الطقسية وهتافات الغيب صادرة عن عرافة كوم *Cumes* في كمبرانيا ، ابي في منطقة يونانية . وبغية المحافظة على « كتب العرافة » هذه ، واستشارتها - حين تبرز الحاجة الى ذلك لمجلس الشيوخ - وتفسيرها ، نظمت هيئة من عضوين ، ثم من عشرة في القرن الرابع ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، كان يشار اليهم بهذا التعبير « القائمون بالذبايح » مع ذكر عددهم . فهم يكلفون ترؤس الاحتفالات التي يستصودرون امرأ بها بعد استشارة الكتب . وان سلطة هذه الكتب اعطت الهيئة دوراً فعالاً جداً في ادخال العبادات والطقوس الهلينية الى روما .

لا نذهبن الى ابعد من ذلك في استعراض الكهنوت الروماني . فهو كاف لتبيان كهنوت الدولة عدد الفئات الكهنوتية وتنوعها والامية والمرتبة اللتين احتلها-بعضهم في تنظيم المدينة . كانت مثل هذه المؤسسات شبه مجهولة في المدن اليونانية . ولكن معرفتنا بها في روما ، على ما رأينا ، لا يستنتج منها انها ابتكار روماني : فان لاكثر من كهنوت بما استعرضنا ، كما نرجح ، اصوله في العادات الاتروسكية او الايطالية . اما ما يلفت النظر، وما قد يكون رومانياً حقاً ، فهو ، على الرغم من تعدد هذه الفئات ، نفوذها والدور الذي سمحت لها المدينة بان تلعبه في حياتها بالذات : ويفسر هذان الراقعان احدهما الآخر ؛ على كل حال ، فقد كان لها خلال زمن طويل ، يدوم بالنسبة لاكثرها حتى آخر العهد الجمهوري ، قوة جاذب حقيقية ، ومن الطبيعي جداً ان يعلق قيصر ، الذي لم يكن بعد متقدماً في مراتب الأجماد ، اهمية استثنائية لنجاح ترشيحه للقب « الحبر الأعظم » ، فلم يكن ذلك ، بالنسبة له مجرد لقب ، بل وظيفة من الدرجة الاولى . ولكن شيبون الافريقي كان « سالياً » الشيء الذي اوجب عليه ، في زمن العيد ، ان يبقى شهراً واحداً دون تنقل من مكان الى آخر ، وهو واجب مزعج حقاً لقائد من القواد . وقد تباهى شيسرون بلقب العرافة . وفي العهد الذهبي للنظام المجلسي ، سعى النبلاء وراء وظائف الكهنوت ، وقد بلغ منهم انهم جمعوا منها اكثر من واحدة حين استطاعوا الى ذلك سيلا . وكانت هذه المهام ، شأن مناصب القضاء ، « اجماداً » تذكر بعناية في الكتابات المدفنية التأبينية ، التي تنوه بمراحل تألب الراحلين منهم في المناصب : وكان اغلبها في البداية ، شأن مناصب القضاء ايضاً ، وفقاً على الاشراف ، وقد احرزت عامة الشعب نصراً ، في السنة ٣٠٠ ، حين فتحت لها ابواب الهيئات برفع عدد اعضائها الى تسعة ، على ان ينتمي خمسة منهم

الى: هذه الطبقة . وهدفت الحركة الشعبية بالاضافة الى ذلك ، اقله فيما يتعلق بالهيئة الحبرية ، الى تغيير طريقة التعيين بواسطة الهيئة نفسها : فقد فرضت ، في اواخر القرن الثاني ، ان يتولى المواطنين انتخاب سبعة عشر قبيلة ، بالقرعة ، بين القبائل الخمس والثلاثين الراهنة ، واذا ما النى سيلا هذا الاصلاح ، فان اعادته في السنة ٦٣ قد جاءت في الوقت المناسب لتسمح بانتخاب قيصر حبراً اعظم .

كل ذلك يكشف لنا بوضوح الطابع الديني العميق الذي ترتديه المدينة الجمهورية . فالحياة السياسية والحياة الدينية فيها قد ألفتا كلاً واحداً يقوم به الرجال انفسهم . حمل رب العائلة مسؤولية العبادة المنزلية . وتوجب كذلك على المسؤول الروماني ان يتحلى في آن واحد بمخبرة ديدلية وخبرة سياسية ، كما توجب على عمله القانوني ان يتخطى القانون المدني والقانون العام ويشمل القانون المقدس . وقد لفت شيشرون النظر الى ذلك بحق : « ان الذين اكتسبوا المزيد من المجد في حسن ادارة شؤون الدولة مكلفون الاهتمام بالديانة ، كما ان اوسع مفسري الديانة علماء مكلفون بالمحافظة على الدولة » . وقد عم الاعتقاد بأن روما مدينة بعظمتها لتعطف الآلهة الذي قابله ، بكل نزاهة ، ارضاء لمتطلباتهم بلغ دائماً الحد المطلوب ، دون ان يتخطاه .

المثل الأعلى هو التوازن ، او ما دعي « بالصلح مع الآلهة » .

العبادة العامة

فاذا ما حدث ان اختل ، بفعل خطيئة بشرية لم يعلم بها احد ، فان الآلهة يظهرن استياءهم الحق « بالمعجزات » . ولم تنطو هذه الاخيرة ، بحسب مفهومها الاوّل الذي لم يتبدل قبل اواخر الألف الثالث ، على أية دلالة طبيعية على المستقبل ؛ وليس من مفسر يستطيع ان يقرأ فيها مستقبلاً لا تنبئ به . فلا معجزة مفيدة اذن . بل كلها ، الصاعقة ، والفيضان ، ومطر الجحازة ، وولادة المسخ الغريب الخلق ، وعرق او حركة التمثال في المعبد ، وصعود الثور الى السطح ، الخ . تشير ، بانقطاع مجرى الامور الطبيعي ، الى الغضب الإلهي . فيقدم بها احد القضاة تقريراً الى مجلس الشيوخ الذي يتخذ المقررات او يشك في عمله فيلجأ الى الاحبار او الهيئة الموكلون اليها امر استشارة كتب العرافة او مستطعمي امعاء الضحايا ، وينتظر اجوبتهم للتداول فيها . وهكذا تصدر الاوامر باقامة احتفالات التطهير والتكفير التي تشكل « علاج » المعجزات وتعيد الصلح .

كان من الافضل ، في سبيل تجنب فترات تأزم غير مقص ، اذ ان كل شيء يتم وفقاً لاجراءات حازمة مدهشة ، بل مستكره ، الانتباه بعناية ودون ملل الى تأدية كافة واجبات الجماعة نحو الآلهة . فانصرفت السلطات الى ذلك . وكان لكل معبد عام نظامه الذي حدده العرف للقدماء و « قانون » حقيقي للجدد ، وفصل الاحبار في صعوبات التفسير . فكانت النتيجة طغوساً لا يحصى لها عدد ، تخلو منذ زمن بعيد عن فهمها ، كما ان العلماء المعاصرين ابعد من ان يفهموها فهماً افضل .

فهناك في الدرجة الاولى ، الذبيحة ، أي تقديم الغذاء للإله . ليس من ريب في ان الذبيحة البشرية قد اعتمدت في العصور القديمة . وقد عادت الى الظهور بين الحين والآخر . ففي السنة ٢١٦ ، تحت تأثير الغلق الذي أثارته كارثة « كانا » وبعد استشارة كتب العرافة ، دفن زوجان ، يوناني وغيالي ، لا يزالان على قيد الحياة ، واذا ما أكد « تيت ليف » *Tite - Live* ، بهذا الصدد ، ان الطقس « ليس رومانياً على الاطلاق » فقد يقصد بملاحظته احدى طرائق الاحتفال فقط . بيد ان هذه الضحايا البشرية ليست دموية . فقد اكتفي على العموم ، بظواهر خداعة كالأشخاص الخشبية السبعة والعشرين التي أُلقي بها في نهر التيبر أثناء عيد الارجيه ( *Argées* ) . ولم يذبح سوى الحيوانات المختارة . فلكل إله تفضيلاته ولكل احتفال تقاليدته فيما يعود للنوع والجنس والسن - حيوان لا يزال رضيعاً ، او نبئت اسنانه العليا والسفلى ، او بلغ أشده - واللون وانعطاف الجزء : ففي احتفال التطهير العام الذي جرى في ظروف مختلفة ، فرض « مارس » ذبيحة قوامها خنزير ونعجة وثور . ولم تقدم الدولة ، شأن الافراد ، على الاستعاضة عن الحيوانات بأشكال من الخبز والشع . ولكن ضحاياها ترافقها قرابين أخرى أيضاً ، زهور وسنابل وطحين وحلويات وحليب وعسل ونيبذ الخ . وليس لكل ذلك من قيمة ، على كل حال ، إلا اذا لم يبد الإله استعداداً مضافاً بإشارات غير موافقة ، كتلك التي يستطيع الاختصاصيون إبصارها جلياً بفحص امعاء الضحايا . ومن المهم جداً ، فوق كل ذلك ، ألا يرتكب أي خطأ او اهمال في القيام ببعض الایماء واستخدام بعض الصيغ في الصلوات والندور : بينما يتوجب على الحاضرين المحافظة على صمت مطلق . ومن شأن اقل اخلال بأحد هذه الشروط ان يجر الى بطلان العمل وإيجاب إعادته .

وهناك الأعياد ، الثابتة او المتنقلة ، التي يعود أمر تحديدها للأخبار . فقد ورد ذكر خمسة واربعين عيداً في الروزنامات الكتابية التي وصلت الينا ، ولا تحجم الدولة عن التدخل ، مكتفية بنشاط الأفراد ، الا في عدد ضئيل منها . وقد تنوعت الطقوس بصدد الاعياد بنوع خاص مضاعفة المراسم المختلفة المنشأ والذميمة التفسير . فلنأخذ مثلاً ، بين امثلة اخرى كثيرة ليست دونها غنى بالالغاز والاحاجي ، طقوس « حصان تشرين الأول » في عيد « الاكويريا » التي يحتفل بها في الخامس عشر من هذا الشهر : اكراماً لمارس . يقلد جيد الحصان الأيمن في العربة محرزة السبق عقداً من خبز ، يذبح كاهن مارس الخاص الحيوان الذي يتنازع رأسه سكان محلتين بغية اثباته في هذا البناء او ذاك ، يحمل العداؤون الذنب الى منزل الحبر الأعظم حيث يرفعونه فوق الموقد حتى يتساقط دمه عليه . تحتفظ الفيستاليات بما تبقى من الدم مع رماذ الحملان المستخرجة من بقرات مذبوحة في عيد آخر ، مع العلم ان هذا الرماد نفسه يستخدم لتطهير المواشي في عيد ثالث . ولن يعجب احد من التردد والاقرار بالجهل حين يتوجب تفسير طقوس على مثل هذا التعقيد .

الفت الألعاب المشهد الرئيسي ، والوحيد احياناً ، في الأعياد التي تجري هي فيها . ويشير

كل منها مسائل شائكة جداً في اغلب الأحيان : تاريخ ظهورها كالعاب غير اعتيادية ، ثم تقريرها كالعاب عادية ؛ طقوسها الأولى وتطورها ، منشأ ومغزى العناصر القديمة في هذه الطقوس . فبدون ان تتعرض لهذه المشادات يكفينا اقصار الكلام على ما هو اكثر بساطة وأقرب الى المعقول . ان للتقليد ، الذي يُحِل في العهد الملكي تأسيس ابعاد الألعاب قديماً ، « الألعاب الرومانية » ، اكراماً لجوبتير الكابيتولي ، التي بقيت ابدأ « الألعاب العظيمة » وحق « العظمى » ، والتي شيد من اجلها « الملعب المستدير الاعظم » ، نصيباً كبيراً جداً من الصحة . فقد استازمت منذ البدء تطوفاً ورقصات ايمائية واستعراضات وحركات جماعية وتمارين . ثم اضيفت الى برنامجها السباقات ، والمصارعات ، وفي النصف الاول من القرن الرابع ، عرض ممثلين عرفوا باسم « هيستريون » ، وهو اسم اتروسكي ، و « لوديون » ؛ ومنذ عهد باكر نسبياً ، ووفقاً لمادة تمتت عليها شعوب ايطالية اخرى ، تركت حدة ذهن الممثلين الشعبيين المرتجلين لنفسها العنان ، بهذه المناسبة ، في انواع التمثيليات المضحكة . فاعدت بذلك ادخال التمثيليات المسرحية على الطراز اليوناني ، في عهد لاحق . منذ القرن الثالث فعل التأثير الهليني فعله دون وسطاء ؛ فله يعود الفضل في الملاكمات والجوقات المنظمة والمهازل والمآسي . وعلى الرغم من ذلك استمرت بعض العادات الاتروسكية سائرة . ومن هذه العادات ، على الرغم من اقتباس اسمها عن اليونانية ، عادة « البامبا » او التطواف الذي تفتتح به الألعاب الرومانية حتى في اواخر العهد الجمهوري والذي يقفوا اثر موكب الظافر حتى في لباس القاضي الذي يرئسه . ومنها ايضاً عادة مدعوة لانتشار غريب ، هي معارك المسايفين التي ضمت الى الألعاب العامة في اواخر الألف الثاني دون ان تدخل على برنامجها بالذات .

فقدت الألعاب اخيراً طابعها الديني ؛ وكانت قد فقدته في اليونان ايضاً الى حد بعيد . فنظر اليها الحاضرون نظرتهم الى مجرد مشاهد . وان في الهوى الذي أثارته لدى الجماهير تعليلاً لمضاعفاتها السياسية التي سبقت الاشارة اليها ولتطويل مدة كل منها ولتزايدها ، فقد استغرقت الألعاب الرومانية خمسة عشر يوماً في عهد قيصر . وظهرت « الألعاب الشعبية » بعدها بأمد قصير ، وأضيفت اليها بعد ذلك اكراماً لابولون وسيريس والام الكبرى ( *Grande Mère* ) وقلورا ( *Flora* ) . وفي اواخر العهد الجمهوري غطت الألعاب العادية خمسة وستين يوماً من ايام السنة . وأكملتها ألعاب ظرفية بعضها عام « ينذر » خلال الحروب والبعض الآخر خاص كالألعاب « المأتمية » اكراماً للوتى . اما الألعاب « القرنية » المعدة لافتتاح قرن جديد — ولكن طرائق الحساب عديدة — فلم تبلغ بعد الشأن والروعة اللذين سيعطيها اياها اوغسطس .

تلك هي الطقوس العبادية الرئيسية في الجمهورية الرومانية . اجل لقد كانت هنالك طقوس كثيرة غيرها : ولكن هذا البحث ، تجنباً للاطالة ، لا يستطيع ان يتناول بالوصف ، على الرغم

من طرفتها ، لا « الالتماسات » التي يزور المؤمنون أثناءها المعابد طيلة أيام عدة بغية استئزال انعامات الآلهة على المدينة او بغية تأدية الشكر لهم ؛ ولا « المآكب » المقدمة لإله أو عدة آلهة التي يشترك فيها القضاة والكهنة والمواطنون العاديون ايضاً ؛ ولا المآكب المقدمة للآلهة الغريباء حيث توضع رسوم الآلهة وفاقاً للجنس ، على غرار الآدميين ، على أسرة أو على كراس ؛ ولا « الوسادات » التي توزع هذه الرسوم عليها بغية السماح لها بمشاهدة الالعب او السماح للمؤمنين بتأدية واجب الاحترام لها ؛ الخ .

العبادة والدولة  
 مها يكن من الامر ، فقد قيل ما فيه الكفاف للاعتراف بأن المشاغل الدينية تعتبر بين المشاغل الرئيسية في الدولة الرومانية . وهي لا تنفصل عن المشاغل الاخرى ، بل ترافقها ابدأ وتشترك معها اشتراكاً حميماً . وهي نتيجة وجود روما ، والواجب الاول الذي يفرضه هذا الوجود عليها ، وشرط مستقبلها .

اجل ليست الفكرة مجديدة في التاريخ القديم . لا بل نحن نرجح ، اذا ما اقتصرنا على الحالات المميزة ، ان مصر وبلاد ما بين النهرين قد خصتنا الديانة بنصيب مماثل في حياة الدولة . ولكن يجب ألا نقارن إلا ما يمكن مقارنته ، سواء في شكل الدولة او ذهنية الرجال الذين تضمهم : ففي كل مكان وزمان ، حرصت الملكية على الابقاء على الانظمة الدينية التي اعتبرتها بمثابة سور من اعز اسوارها ، وليس تضامن العرش والمذبح ابتكاراً من ابتكارات القرن التاسع عشر الذي اشتهر بمناذاته بالحرية المدنية والدينية وبمعاذاته للاكليروس . فلا يبرز تميز روما من ثم إلا بمقارنتها بالمدن اليونانية بنوع خاص . الفرق بينها ، في الحقيقة ، فرق في الدرجة لا في الجوهر : فان ما يستمر هنا خاضعاً للتسوية معتدلة ، ينمو هناك نمواً عظيماً جداً . ولكن هناك أكثر من ذلك ، اعني الفرق في التفكير ، اذ لا نصادف إلا في روما ذلك الحرص القانوني وذاك التمسك بالشكليات اللذين سيطرا على تفسير الفرائض العبادية ولم يجد عنها المسؤولون . كان الروماني رجل واجب ، ولعله كان بنتيجة ذلك رجل حتى ايضاً .

## ٢ - المستحدثات

الروابط الدينية  
 بالحضارة اليونانية  
 كان الاغريقي اوسع مرونة وأعمق تمييزاً . وهو لم يدن بهذا العمق وهذا الاتساع الى سرعة تطوره فقط . وليس من ريب في ان لنجابتة الخاصة نصيباً كبيراً في ذلك ، اذ ان سرعة هذا التطور ليست نتيجة المصادفة . فهو قد كان شاعراً وفناناً قادراً على تخيل الاساطير والاشكال العارمة بالسحر والظرف والحياة . وكان عالماً وفيلسوفاً يعيل بالسليقة الى ان يذهب الى ابعد حد بتفكيره حول الكون والطبيعة ونفسه بالذات . وقصد تجاذبته نزعة عقلية تقوده الى أعظم الانكارات جسارة ونزعة صوفية غذاهما ابدأ اتصاله القديم المستمر بالشرق ونفخ فيها التعاميش الذي اوجده فتح الاسكندر قوة

عجبية نادرة . اما روما ، فقد استطاعت ، بفضل ثروتها ، ان تضيفي على الاحتفال بعباداتها فخفة ما كان العالم اليوناني ليستطيع مضاهاتها . ولكن العالم اليوناني قد برهن عن تفوق واضح في كل ما لم يكن ثروة مادية ، أي في الفكر والعاطفة الدينية والذوق في مظاهره الخارجية .

كان من الممكن ان يبدي الرومان ، بفعل تعلقهم بتقاليد ملازمة محددة ، مقاومتهم لكل جديد . ولكننا رأينا ، في ما سبق بيانه ، ان مفهومهم الواسع للالهيات لم يكن ليقتبل بهذا التعصب . ولعلمهم شعروا ايضاً ، شأن آدميين كثيرين ، بحاجة الى شيء آخر هو القناعة العاطفية والفكرية والجمالية التي لم توفرها لهم عباداتهم الخاصة . ولم يبلغ بهم الامر ، في عهد الجمهورية ، ان يسمحوا بتفتح التقوى الفردية في صوفية حارة متحررة من شتى ضروب الضغط . فقد حرصت الدولة على الاستمرار في التنظيم والرقابة . بيد انها قبلت بعبادات وطقوس غريبة دون ان تعي انها بذلك تفتح ، للمستقبل ، ابواب المدينة لحصان طروادة .

والدليل على انها قامت بذلك دون جزع وتردد ان الاقتباسات الاولى قد حصلت في عهد ميكر جداً . لم يتم ذلك باقصال مباشر باليونان نفسها ، او اقله لا يمكننا إثبات ذلك على ذمة روايات يشك في صحتها ، بل عن طريق الاتروسك والشعوب الايطالية حيث تركت الحضارة اليونانية اثرًا عميقاً لا سيما في الاتروسك . اصف الى ذلك ان هذا الاثر قد صادف ، في روما ، ارضاً خصبة متمثلة بالجماعات الهندو اوروبية المنشأ التي كانت لها بعض النزعات الدينية . واقتصرت السيطرة على كمانيا في القرن الرابع وعلى كافة أنحاء ايطاليا الجنوبية في القرن الثالث على تسهيل استمرار تسرب - تعود بدايته الى ما قبل التاريخ - سابق للوقت الذي كان باستطاعة روما فيه ، حين وعت قوتها ، ان تحاول ، بدافع الكبرياء ، - ولكنها لم تحاول - مقاومة تقليد المغلوبين .

يحذر بنا ان نعطي فكرة عن اهمية الاقتباسات القديمة ، دون حاجة  
الاقتباسات القديمة  
منا الى تعدادها وخصوصاً الى توقيتها والبحث عن طرق حصولها .

منذ العهد القديم جاء روما من اليونان آلهة ينغرنا ان ننتهمهم « بالجاهزين » سواء حافظوا على اسمائهم اليونانية ام لا : ابولون الذي كان موضوع اكرام عظيم لا سيما في مدينة فييس القريبة ؛ سيريس ، التي ليست سوى ديميتير ( Demeter ) ؛ مركور الذي هو هرمينس Hermès نفسه ؛ كاستور وبولوكس ، الخ . ومنذ هذا العهد ايضاً مثلت بعض الآلهة اليونانيين آلهة ايطاليين تبنتهم او « قوى » جسدتها ، ولم يحصل هذا التمثيل قط دون تنقيح منقول عن النماذج اليونانية : فاقتربت ديانا من ارتيميس ، وجولون من هيرا الخ . ففدا من ثم الزون الروماني ، في جوهره ، تابعاً من توابع الزون اليوناني ، ان لم يكن نسخة وفق الأصل عنه . اما الميثولوجيا فقد اقتصرت ، منذ ان وجد ادب روماني ، على نقل او تقليد الميثولوجيا اليونانية .

وتبنت روما بعض الطقوس ايضاً . وقد سبقت الاشارة الى مدى التحويل الذي طرأ على

برنامج الألعاب القومية الكبرى ، بحيث استلزم هذا البرنامج تمثيلات مسرحية على الطريقة اليونانية . واذا صعب علينا تحديد زمن دخول المكاتب المقدمة للآلهة الغريباء ، مع ما تتطلبه من أسرة ووسادات ، فليس من ريب في انها مقتبسة عن الطقوس اليونانية . ويبرز الاثر نفسه بوضوح في ممارسة العرافة . فلم تتح الطرائق الرومانية سوى معرفة ما اذا كانت استعدادات الآلهة مؤاتية ام غير مؤاتية . ولذلك فقد لجأوا ، بغية التزود بالنصائح ، الى هاتفي الغيب من الاغريق . وقد جاء في التقليد ان آخر الملوك تاركوينوس قد اوفد من يطرح الاسئلة على ابولون في « دلفي » . وكي لا يقطعوا هذه المسافة الطويلة اكتفوا على العموم باستشارة الكتب التي ابتاعها الملك نفسه من « العرافة » ( Sibylle ) ، نيبية ابولون في كوم . فلا عجب من ثم اذا ما ادت هذه الاستشارة اكثر من مرة الى تبني عبادات وطقوس يونانية . ولتأخذ مثلاً عبادة الاله الشافي اسكلابيوس : ففي اوائل القرن الثالث ، وبمناسبة انتشار احد الاوبئة ، ارسلوا الى بلاد ارغوس من يطلب اسكلابيوس في ابيذوروس ( Epidaur ) مركز عبادته الرئيسية ؛ نزلت الحية التي تمثل « قوته » الى اليابسة في الجزيرة التيبيرية حيث شيد معبده ؛ تولى الاله المعالجة فيه ، كما في المعابد اليونانية ، بأن أرسل الى المرضى الذين يقضون ليلهم فيه ، أحلاماً فسرها الكهنة واعطوا « الوصفات » اللازمة . ثم أخذت « المعجزات » تدريجياً ايضاً ، كما حدث في اليونان ، تعتبر دلالات على المستقبل ، لا دلالات غير مؤاتية فحسب .

قد تجيز بعض العلامات الاعتقاد بأن الجماهير قد برهنت ، في هذه الحقبة  
 ازمة الحرب  
 القديمة ، انها اكثر قابلية لمثل هذه الأشياء الجديدة من مجموع المسؤولين . بيد  
 البونيقية الثانية  
 ان هؤلاء ايضاً قد اضطروا الى تغيير موقفهم . وقد اضطروا الى ذلك خلال  
 الحرب البونيقية الثانية بنوع خاص ، حين هزت مداومة الخطر الضمير الديني في روما كلها حتى  
 أعماقه . وقد وصف كافة المؤرخين القدماء الدوار الجنوني الذي استحوذ في بعض الفترات على  
 النفوس . فكتب تيت - ليف ، بصدد السنة ٢١٣ : « خيل ان تغييراً مفاجئاً أصاب البشر أو  
 الآلهة . فلم تلغ الطقوس الرومانية خفية فحسب ، أي بين جدران المنازل ، بل ان جمهوراً من  
 النساء لم يتقيدن ، حتى في الخارج ، في الفوروم وعلى الكابيتول ، في ما يعود للذبايح والصلوات  
 الى الآلهة ، بالعرف الموروث عن الجدود » . اتخذ المجلس بعض التدابير آنذاك ، فأمر بتسليم  
 كافة « مجموعات التنبؤات وكتب الصلوات والدراسات حول الذبايح » ، وحظر « تقديم  
 الذبيحة في مكان عام أو مكرس ، وفاقاً لطقس جديد أو غريب » . لكن هذه الابتغاءات  
 التأثيرية قد بلغت من القوة حداً لم يعد من مورد للحاكمين إلا محاولة تقنينها : ولم يهتموا ، كما  
 سئى ذلك ، لاثلاف الأوراق التي سلمت اليهم دون ان يطلعوا عليها .

بيدو كوينتوس فاييوس مكسيموس ( Quintus Fabius Maximus ) ، في مرحلة الهزائم  
 الأولى الكبرى ، وكأنه تجسيد التقوى الطقسية . وفي الحقيقة نمت هذه التقوى ، بفعل حثته

المنظم ، مع ما تستلزمه من شدّة : فبسبب إخلال بنذر العفاف دفنت إحدى الفيستاليات حياة وانتحرت أخرى ، بينما مات شريكها في المخالفة تحت ضربات العصي التي كالمها الخبر الأعظم بنفسه . ولكن هذا التدقيق لم ينحصر في العبادات الرومانية بالذات ، لا بل إن صلات « المتمهل » ( *Temporisateur* ) ببلاد الأتروسك ، قد فتحت أمامه آفاقاً أوسع . فهو الذي كرّس « الجبل ايريكس » ( *Eryx* ) ، الذي كان فيما مضى حصن السيطرة البونيقية في غربي صقليا ، معبداً لفينوس الايريكسية ( *Vénus Erycie* ) : فكانت هذه الإلهة المتعددة العنصرية ، وهي صقلية متأثرة الى حد بعيد بعشرت الفينيقية وافروديت اليونانية ، الإلهة الاولى التي قام معبدها داخل النطاق الروماني . وفي السنة ٢١٦ أوفد أحد اعضاء طائفها ، المؤرخ فايوس بيكتور ، لاستشارة هاتف الغيب في دلفي ، ولم يهمل شيء مما أوصى به هذا الهااتف . وقد حظيت عبادة أبولون العراف آنذاك بنفوذ كبير . فأرسلت بانتظام الى دلفي قرابين من أصل الفنائم المجموعة من العدو . وفي السنة ٢١٢ ، وبموجب نبوءة اكتشفت في مجموعة صودرت في السنة السابقة وأيدتها استشارة كتب العرافة ، نظمت إكراماً للإله ألعاب أثارت الحرارة الشعبية وما لبثت ان أصبحت سنوية : ومنذ البداية اعتمد الطقس اليوناني بشكل صريح بصدد الذبيحة التي تفتتحها .

كانت اليونان متصلة بآسيا الصغرى ، ومنذ زمن بعيد كان لأسطورة « اينه » ( *Enée* ) التي تربط روما بطروادة ، صفة رسمية . وهكذا ، في اواخر الحزب ، وبتيمة استمالة طالع جديد اليها ، قبيل حملة شيبليون على افريقيا ، قرّر الرأي على الاقتباس عن عالم غير العالم اليوناني . وقد جاءت فكرة هذا المسعى عن كتب العرافة ايضاً التي اضاف اليها هاتف الغيب في دلفي نصائح عملية . وفي السنة ٢١٤ اخيراً ، عاد وفد يرئسه شيخ تولى فيما سبق منصب القنصلية مرتين ، من فريجيا ( *Phrygie* ) حيث حصل في « بسينونتي » ( *Pessinonte* ) ، بفضل الملك البرغاموسي أطال الاول ( *Attale 1er* ) ، على « الحجر الاسود » ، رمز « سيبل » ( *Cybèle* ) « أم الآلهة » و « الام الكبرى في جبال ايدا » ( *Ida* ) . وعملاً بما فرضه هاتف الغيب ، حمل « افضل » رجل في المدينة ، كان ب . كورنيليوس شيبليون نازيكاً في نظر المجلس ، الإلهة من المركب الى شاطئ « اوستيا » ( *Ostie* ) ، ورافقتها « السيدات الرومانيات الاولى » الى روما حيث احتلت مكانها ، هي ايضاً ، داخل « النطاق » الروماني . لا سيبل لنكران أهمية هاتف الحدث الشهير الخالد الذكر . فللمرة الاولى تنظم في روما عبادة إلهة شرقية ؛ وقام بخدمة معبدها خصيان فريجيون كانوا يتجولون في الشوارع ، أيام الاعياد ، بأزيائهم وينشدون ترانيمهم القومية الغريبة . يحذر بنا ألا نهمل الاحتياطات المتخذة : منع عبادة اتيس ( *Attis* ) الشبيهة الى حد كبير بسيبل ، وتحضير الانتماء الى الاكليروس على المواطنين : ولكن الخطوة الاولى قد خطت واستعقبها خطوات .

القلم  
بيد ان هذه الخطوات لم تحدث فوراً . فغداة الحرب بدا النظام المجلسي اقل حفاوة :  
ولعله خشي انتقال العدوى الى الجيوش المرسله الى اليونان وآسيا . وما لبثت  
مقاومة العادات الجديدة ، التي تجسدت في كاتون وتأييدت في فترة تسلمه منصب قاضي الاحصاء ،  
ان ظهرت على الصعيد الديني .

تظهر لنا هذه المقاومة خصوصاً في فضيحة الرقصات الخلاعية ، حيث لا يزال الغموض  
محيطاً بنقاط عديدة ، على الرغم من جهود المؤرخين ، ولكن ملابسها الكثيرة لا تحول دون  
بقائها قضية دينية في الدرجة الاولى . في السنة ١٨٦ اكتشفت الشرطة الحكومية او تظاهرت  
بأنها اكتشفت ان أسرار ديونيسوس قد حقت تقدماً مخيفاً في جميع أنحاء ايطاليا الجنوبية  
وتسربت الى روما نفسها ، وان فجوراً مخزياً يقترف فيها مقترناً بالاختلاسات والتقتيل ، وان  
المؤامرات تعد فيها لا لإفساد الاخلاق فقط بل لإفساد المجتمع والدولة أيضاً . فتوالت آنذاك ،  
طيلة خمس سنوات ، التحقيقات والشايات والاستجابات وأعمال التعذيب . وانفجرت  
اعمال القمع : دخل السجون سبعة آلاف شخص تقريباً وقضي على عدد كبير بالاعدام بعد  
محاكمة سريعة .

ليست قضية الكتب البيثاغورية دون هذه القضية مغزى مع انها دونها عنفاً . كانت روما  
حتى ذلك العهد قد افسحت المجال للبيثاغورية ، تلك الفلسفة المتشعبة بصوفية حافظت ، على  
الرغم مما اعترضها من صعوبات ، على حيويتها في ايطاليا الجنوبية ، ولا سيما في طارتنتا . ومن  
حيث انها لم تنفّر الرومانيين ، فأنا نرجح ان تلطيفات ملموسة قد ادخلت عليها . ومهما يكن  
من الأمر ، فان التقليد الذي جعل من الملك « نوما » تلميذاً مباشراً لبيثاغور ، قد حفظ ، فبا  
يعود لعهود اقل قدماً ، ذكرى قرارات رسمية مؤاتية . ولعل « كاتون » نفسه ، قبيل السنة ٢٠٠ ،  
حين مر في طارتنتا ، اعار اذنأ صاغية لبعض الأحاديث . ومع ذلك ، ففي السنة ١٨١ ، حين  
اكتشفت في احد المدافن نصوص بيثاغورية تعزوها احدى الكتابات الى نوما ، كان كافياً  
للمجلس ان يعلنها احد القضاة ، بعد الاطلاع عليها ، متنافية والديانة الرسمية ، حتى يأمر  
باحراقها دون أن يقرأها احد .

ولكن انى لمثل هذه الديانة الفاترة التي لا تهتم للاجابة على سؤال مقض  
يطرحه الفرد حول مصيره بالذات ، ان تجرد ، في عون السلطات دون  
سواء ، الوسائل لمقاومة مناجحات عقائد افضل تجهيزاً واعظم نفوذاً ؟  
عدم جدواه :  
ادخال العبادات الشرقية  
وأنى لها ايضاً ان تقاوم العدوى بينا الرومان موجودون في الشرق وبيننا الشرق ، اقله بواسطة  
العبيد ، موجود في روما ؟ فالموضوع ، منذ ادخال سيبيل وتوسع المصالح الرومانية ، لم يعد موضوع  
الآلهة الذين كيفتهم ونقتهم الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بل اولئك الذين خوّتهم العالم الهليني  
وتبناهم ارضاء لفرديته المخالفة الصواب ، واولئك الذين توفق العالم الشرقي الى ابقائهم

بعيدين عن كل تأثير يوناني ، احيانا . اجل كان من المعترف به ، في القرن الاول ، ان تتلقى الشخصيات الرومانية المرموقة ، اذا ما مرت في اثينا ، مبادئ اسرار الفيسس ( *Eleusis* ) . ولكن هذا نفسه لم يعد كافياً اذ ان الشيء الذي لا مفر منه قد اخذ بالظهور .

قارن بعضهم احيانا قضية الرقصات الخلاعية بالاضطهاد التي سوف تتناول الديانة المسيحية . ولكن المقارنة عرجاء ، اذ ان المحاكمة الامبراطورية ستلاحق الديانة المسيحية كديانة بينما لم يتجاسر مجلس الشيوخ ، في السنة ١٨٥ ، على تحريم ممارسة الطقوس الديونيسية على المؤمنين الزاعمين بانها مفروضة عليهم بنذر شخصي . فقد اجازها لجماعات محدودة يجب ان لا تتجاوز رجلين وثلاث نساء لا يخضعون لتنظيم ولا تربطهم عهود متبادلة ، ملازماً اياها بالاعلان عن نفسها للسلطات وبالخضوع على موافقتها بحسب القانون . ولكن هذه التسوية انطوت على محال هو استمرار الرقابة الشديدة . فاخنى الدهر على المرسوم المجلسي ، وفي اواخر العهد الجمهوري ، احتفل باصرار ديونيسوس في منازل كثيرة من « بومبيي »

اما ما تبقى ، مما لم يتناوله اي اضطهاد ، فلم يكن بحاجة لاي سماح بالدخول . وسنعود فيما بعد الى كل ما كان مدعواً للشهرة . فلنكتف اذن بالاشارة الى انه قامت في روما ، في زمن قيصر ، طوائف بيناغورية على جانب من التأثير ، وان وجود عبادات شرقية مختلفة في ايطاليا لامر ثابت ؛ فمئذ الحملات على « ميتريدات » ، استورد الجنود عبادة عرفوها في آسيا هي العبادة الدموية للإلهة الكبادوكية « ما » ( *Mai* ) التي اسرعوا واطلقوا عليها اسم « بلتونا » : اثناء العيد ، وفي وسط الشارع ، ينشد كهنتها الاغاني ويحرقون اجسامهم بالفأس المزدوجة التي ترمز الى الإلهة ؛ وستكتشف في احد معابدهم أوان خزفية مملأ باللحم البشري . ومنذ القرن الثاني نشاهد عبادات سيرابيس ( *Sérapis* ) ، وايزيس الاسكندرية في ديلوس حيث يتعاطى التجارة ايطاليون كثيرون ، وفي بوزوليس ، المرفأ الرئيسي في ايطاليا ؛ وتدخل ايزيس روما في عهد سيلا . ثم يدخل « ميترا » نفسه ايطاليا بواسطة قراصنة كيليكين سابقين وجنود اشتركوا في حملات بومبيوس الشرقية . ولعل صمت المصادر حيال آلهة آخرين من قبيل المصادقة لا من قبيل عدم وجودهم في ايطاليا . ومها يكن من الأمر فان روما تجتذب اليها ، في عهد مبكر ، عرافين ومنجمين شرقيين لا يخامرهم شك في انهم سيجدون فيها زبناً كثيرين .

من الثابت ان الدولة قد تحاشت ان تتبنى اية من هذه العبادات تبنياً رسمياً . لا بل ان المجلس قد اتخذ احيانا تدابير بوليسية سريعة الزوال : طرد المنجمين في السنة ١٣٩ ، وفي اواسط القرن الاول اصدر امره تكراراً يهدم معابد ايزيس التي شوهدت حتى على الكابيتول .

ولكنها استيقاظات باطلة ، وفادرة على كل حال . فباستثناء عبادة « ما - بلتونا » ، ستعرف هذه العبادات الشرقية ، وعبادات اخرى كثيرة ، في تاريخ لاحق ، نجاحات مذهبة واسعة

جداً . اجل لم تكن بعد في اواخر العهد الجمهوري سوى في مرحلتها الأولى . ولكن وجودها ينبيء بالمستقبل ويحضّره .

ان موجة التدين القلق هذه عمت الطبقات الاجتماعية الدنيا بنوع  
المظاهر الاجتماعية والسياسية  
خاص . فهي بفعل تألمها أكثر من غيرها قد شمعت أكثر من غيرها  
التطور الديني  
بمحااجة الى التأثر والوعود . اصف الى ذلك انها كانت على اتصال  
بومي وودي بعبيد يلتمى الكثير منهم الى الشرق . وقد بدا هذا الميل نفسه خطراً للحكام .  
اجل ، لقد اعتبروا الديانة امراً ضرورياً للشعب . فنذ اواسط القرن الثاني لم يتردد بوليب ،  
الذي عاش قريباً من شيبون اميليانوس ، في ان يرى في العبادات الرومانية بناءً صناعياً مصمماً  
خير تصميم لخير الدولة والمجتمع : « يخيل الى ... ان الوجل الخرافي يحمي مصالح روما ...  
وبتسمية هذه العاطفة ، انما فكروا بالشعب في الدرجة الاولى . قد لا يكون هذا الاحتياط  
ضرورياً في دولة لا تضم سوى العقلاء ؛ ولكن لما كانت الجماهير تتصف بتقلب الرأي والاهواء  
المشوشة والاحقاد العنيفة والغير المتبصرة ، تستحيل السيطرة عليها إلا بالخوف من كائنات غير  
منظورة ، وبشئ انواع الاوهام » . وقد نجد هذه الفكرة عند كثيرين غيره بأقل وقاحة في  
التعبير . ولكن العبادات الغريبة ، من حيث هي تتوجه الى مؤمنها دوننا اهتمام للاطارات  
الاجتماعية التقليدية ، كانت في نظرهم خطراً ممكناً على النظام الضروري للمجتمع والدولة .

لذلك ، قامت النخبة الاجتماعية ، في ما يعنها ، بجهود كبير للابقاء على تنفيذ كافة  
الطقوس . أما دلائل التخلي التي يمكن ملاحظتها فنادرة ، ولا أهمية حقيقية لها : الاهمال في  
ترميم بعض المعابد ، والشغور المستمر ، منذ آخر السنة ٨٧ ، في منصب كاهن جوبيتر الخاص .  
وفي القرن الثالث ، قام بين المسؤولين أنفسهم ، من يتظاهر بالاحاد في ممارسة وظائفه بالذات ،  
ولا يتقيد بنصائح العرافين . ولكن مصلحة الدولة ، خلال الحرب البونيقية الثانية ، والتضامن  
الطبقي ، بعد الحرب ، وضعا حداً لهذه الجسارات : وان احتقار قيصر للعراقيل الدينية التي  
أقامها ، في السنة ٥٩ ، زميله في القنصلية ، في وجه قوانينه ، يمثل الشذوذ الوحيد عن القاعدة .  
ولكننا عبثاً نبحث عن تقوى حقيقية ورام هذه الظواهر المؤثرة . فلم يقم في الارستوقراطية  
الحاكمة ، على ما نعلم ، أي مشايخ للعبادات الشرقية بالذات ، التي تركت للشعب ؛ بل على  
نقيض ذلك ، قام بعض الملحدين ؛ وقام بنوع خاص تلاميذ مذاهب فلسفية تنظر الى الالهة  
التقليديين كما الى رموز أو. خاصيات . ويبدو ويشرون معبراً عن الحقيقة ، حين يكتب  
في بحث عن العرافة : « على العاقل ان يحافظ على عادات الأجداد بالتقيد بالعبادات والطقوس .  
ويرغنا جمال العالم ونظام الأجسام السماوية على الاعتراف بوجود كائن أزلّي يتوجب على  
الانسان إكرامه ، والاعجاب به » ؛ حكمة سياسية من جهة وتفسير فلسفي من جهة ثانية ؛  
لقد زال الايمان من الديانة الرسمية .

أعطى العالم الهليني ، باستمراره في ممارسة ديانة الأولمب القديمة ، المثل عن هذه المواقف . ولكنه أعطى ، كذلك ، المثل عن المثالية الديفية التي توفر للملكية مرتكزها : الانسان المتفوق الذي يختاره الإله ويلهمه . أتى لروما من ثم ان تنجو من العدوى ؟ فقد سمح شيبون الافريقي ، قبلاً ، بأن تنتشر حول ولادته الالهية أساطير مماثلة للأساطير التي انتشرت فيما مضى حول ولادة الاسكندر ، وأمضى ساعات كاملة في معبد جوبيتر السكايتولي يناجي « أباه » الذي ينعم عليه بنصائحه ، فاتهمته مصادرها بالخرقة والخداع . واقتفى الكثيرون اثره منذ اواخر القرن الثاني ، على الرغم من عنادية عند كبير منهم كانوا أشد اشمئزاً من ان يحافظوا على أقل ايمان ، وأبعد مهارة من ان يملوا التظاهر بأنهم مختارون من الله منذ الأزل . واتجه تفضيلهم الى فينوس ، والدة « اينه » وإلهة روما القومية . فعزا سيلاً انتصاراته الى فينوس « السعيدة » ، وتبنى هذا اللقب لنفسه ؛ والتمس بوميوس النعمة من فينوس « المنتصرة » ؛ وأدى قيصر بأبهة العبادة لفينوس « الأم » ؛ إذ ان عائلته ، آل جوليوس ، تنحدر منها مباشرة .

وهكذا ، فيينا كان كل شيء يخلخل الدولة الجمهورية ، وسين لم يعد هيكلها الديني سوى مجرد ظاهر ، تباهى أشد خصومها خطراً ، امام الجماهير المستعدة لأن تؤمن بكل معجزة ، بالانعامات الفائقة الطبيعة التي دانوا بنجاحاتهم لها . فانضم التطور الديني من ثم الى التطورات الأخرى في سبيل القضاء على النظام القائم

## الفصل الخامس

### هليانة روما:

### اليقظة الفنية والفكرية

بدأت اقتباسات روما الفنية والفكرية عن الحضارة اليونانية ، شأن اقتباساتها الدينية ، قبل تدخل الدبلوماسية الرومانية والجوقات الرومانية في قلب العالم اليوناني بزمن طويل : فان التأثيرات التي اصابته الاتروسك وانتقلت بواسطتهم قد فعلت فعلها منذ عهد مبكر جداً ، كما فعل فعله ايضاً مثل اليونان الكبرى وتعليمها عن طريق كبرانيا والشعوب الايطالية . ولعل الاستدانة ، على هذا الصعيد ، من هذه الحضارة المتفوقة ، قد فاقت الاستدانة على صعيد المعتقدات الدينية . فليس هنا من معطية سابقة ، ولو بدائية ، يكفي تنظيمها وتصعيدها وانماؤها ، بل طاولة شبه ملساء ، او شعب خشن جداً استيقظ ، بصلاته غير المباشرة ، على مشاغل جديدة ؛ ومنذ ان برزت مثل هذه المشاغل في روما واخذت تلقى فيها رضى ليس على شيء من السخرية ، نترامى اثر الحضارة اليونانية .

بيد ان هذا الامر قد برز بقوة نادرة منذ ان بسطت روما سيطرتها المباشرة على ايطاليا الجنوبية . وقد شعر المؤرخون القدماء ، من هذا القبيل ، باهمية الاستيلاء على طارنتا في السنة ٢٧٢ و اشاروا اليها . فاستعرض آنذاك للمرة الاولى ، في احد مواكب النصر ، بعض الاسرى اليونانيين أو المستغرقين ، والتائيل ، واللوحات ، والزخارف والنقوش التي ازدانت بها مدينة يونانية كبرى : غنيمة مزدوجة اجاز قانون الحرب المنتصر التصرف بها تصرفاً واحداً ، وكان لامتلاكها اثر واحد دائم ، اذ قد اكمل الاسرى العبيد ، بقولهم وبانتاجهم ، التربية التي وزعها ، صامتاً وساحراً ، مشهد التحف الفنية . ولم يكن ذلك ، في الزمن ، سوى الانتقال الاول بين انتقالات بشرية ومادية ، على مدى واسع ، ضاعفتها الانتصارات اللاحقة وتمادى فيها ، بعد الانتصارات ، استثمار الاقاليم اليونانية استثماراً لا يعرف للشفقة معنى . وان التقدم الذي احرزه العالم اليوناني منذ زمن بعيد قد جعل من فتنة هذه التحف وهؤلاء الرجال قوة لا تقاوم : فاستسلم الرومان لها دونما صعوبة لا سيما وان تمرنهم قد بدأ قبل ذلك العهد .

مها يكن من الأمر ، فاتهم لن يلبثوا ان يدينوا بالكثير لفن اليونان وفكرها . ولكن الى اي حد ستركون هذا السحر يفعل فعله فيهم يا ترى ، وماذا سيفعلون من هذا الدرس ؟ كان بإمكانهم ، اذا ما استفادوا من خبرة الغير وحافظوا على ميزتهم ، ان ينقلوا التقنيات الجريئة الكاملة الى خدمة نزعاتهم الخاصة . وكان بإمكانهم ايضا بفضل القوى الجديدة والثروات المادية التي فاض بها شبابهم ، ان ينوبوا ، على طرق شقها مثقفهم ، عن حضارة يونانية اتعبها مجهودها وانتهكها السلب الذي كانت خاضعة له . وكان باستطاعتهم اخيراً ان يبقوا تلامذة منقادين لاساتذة قد يستمروا في التقدم عليهم ، او اقله مجرد زبن لعملاء ماهرين في إرضاء اذواق اوجدوها فيهم .

ثلاثة امكانات غذا كل منها ، هنا او هناك وبحسب المهود ، امراً واقعاً . وليس من ريب ، على العموم ، اقله خلال العهد الجمهوري ، في ان الامكان الثالث هو الذي كان غالباً : وعلى الرغم من الفوارق التي سنشير الى اهمها ، ومن الازدهار الادبي الذي برز اخيراً في روما ، فان روما آنذاك قد دخلت في فلك العالم الذي اخضعت له لسيطرة قسوتها المغرورة الجشعة .

## ١ - الفن

لا يستدعي هذا التأكيد ، تحفظاً يذكر بصدد الفن .

لما كانت روما قريبة جداً من مركز حضارة زاهرة هو اتروريا ، فقد دانت لها الامم الاثروسي بفنها البدائي . فالملوك الاثروسك الذين اعطوها انظمتها الاولى كمدينة انعموا عليها بابنيتها الاولى ايضاً . وقد اجمع التقليد على ان يذكر بين هذه الأبنية المعبد المكرس على جبل الكابيتول لجوبيتر ولاقرانه من الآفات. فقد رمتهم ، واعيد بناؤه وربما حوّر اكثر من مرة ، وبقي على الدوام المعبد الرئيسي للديانة الرسمية . وقد حافظت روما ابدأ ، حتى بعد ان وطدت استقلالها بالقضاء على الاستبداد الاجنبي ، على الروابط الثقافية التي شذبتها الى بلاد اسياها القديما . ثم احتلتها تدريجياً ولم تهمل الكسب الفني الذي احرزته باحتلالها : فكم وكم من عملية استلاب مجهولة اقدم الرومان عليها في مدن اخرى قبل عملية استلاب الـ ٢٠٠٠ تمثال من فولسينيا في السنة ٢٦٤ ؟ لذلك فقد جاءت التربية الاولى من الاثروسك بنوع خاص .

تميزت هذه التربية ، من جهة ثانية ، بالسرعة ، في مدينة لم تخل ، كما رأينا ، من الموارد المالية ، وتجنبت النخبة الاجتماعية فيها ، التي أحسنت استقبال نخب المدن الايطالية الاخرى ، كما رأينا ايضاً ، احتقار ما من شأنه تجميل اطار وجودها . ومن الخطأ الفادح الاعتقاد بأن الرومان ، في القرون الاولى من العهد الجمهوري ، لم يكثرثوا بالمشاغل الجالية . فعلى الرغم من استمرار صفة حياتهم الخاصة بذلتوا الجهد لكي يكرموا بأبهة الآلهة الذين دانواهم بالنجاح لرضاهم ، وقد حرصت كل عائلة كبيرة على تخليد ذكر الجدود الذين أكسبوا الشهرة . لا بل ان بعض الرومان على الاقل

قد شعروا بسحر الفن الديني اللطيف الذي تعلموه بواسطة جيرانهم . اجل يبدو انهم افتقروا الى العبقرية الخلاقة ؛ ولكنهم يستقبلون التحقيقات الاجنبية بسهولة ، وقد حدث ان استساغوها بمرونة .

الفن البدائي  
منذ القرن الخامس شيدت روما عدة معابد . وقد عكست معابدها طرازاً اروسكياً طبع هندسة العمارة الدينية الرومانية بطابع دائم . تميز هذا الطراز عن الطراز اليوناني ببعض الصفات الخاصة التي يجدر بنا ، دونما حاجة الى تبيانها كلها ، ان نشير الى أهمها ، او بالحري الى تلك التي تظهر بأجلى صورة في شكل هذا الطراز . فقد بقي تلاصق قاعات المعبد الداخلية الثلاث ، مثلاً ، التي فرضها جمع بعض الآلهة في ثوالث ( جوبيتر وجونون ومينرفا ؛ سيريس وليبير وليبيرا ) طرازاً كلاسيكياً دائماً في معابد جوبيتر «الافضل والاعظم» ( *Optimus Maximus* ) أي جوبيتر الكابيتولي . ثم ان الرومان قد شيدوا عدداً كبيراً من معابدهم على مصطبة او قاعدة على بعض الارتفاع في البناء ؛ فاضطروا من ثم الى تجهيز سلم يؤدي الى جبهة المدخل بينما انتصب جدار القاعات الخلفي ، والجدران الجانبية في أغلب الاحيان ، على حافة القاعدة تقريباً .

شيدت هذه المعابد الاولى بالأخشاب ، واستخدم كثيراً ، في سبيل صيانتها وتزيينها ، الخزف المتعدد الالوان ؛ وكانت هذه العادة واسعة الانتشار ، ليس في اتروريا فحسب ، بل في كمانيا وايطاليا الوسطى ايضاً . ولم تسفر أعمال التنقيب في روما ، حتى اليوم ، عن اكتشاف أي شيء يذكرنا بمجموعة ابولون في فيديس . ولكنه يتوجب علينا ، مع ذلك ، القول بأنهم لجأوا بمهارة الى التزيين الناتىء بواسطة لوحات التليس الترابية التي نضدوا فيها النقوش السعفية الشكل والرؤوس الصعراء الوجه وابتكروا مجموعات التماثيل لأعلى جبهات المعابد وللمثلثات في الجبهات نفسها وللتماثيل المنصوبة داخل المعابد . فن الثابت ان فن التشكيل بالقرين قد اعتمد بالتفضيل طيلة قرنين او ثلاثة قرون في روما ، وقد حدث ، حتى في عهد سيبلا ، انهم لجأوا اليه ، احتراماً منهم للتقليد ، لتزيين المعابد الجديدة ، بينما كانوا قد اخذوا يستخدمون للمدافن والتماثيل المدفنية النصفية ، مواد أغلى ثمناً واقل قصماً .

وفتر فن التصوير طريقة أخرى للتزيين . فان الذوق الذي أوحى به للرومانين ، وهو قديم ايضاً ومقتبس عن الإبروسك والكبانين واللاتين ، قد استمر زمناً أطول . وقد لجأوا اليه في داخل المعابد وعلى جدران المدافن تحت الارض وحتى على جدران الابنية العامة ، ان لم يلجأوا اليه آنذاك - ترتقي اقدم رسوم بومبي الى زمن أكثر تأخراً - على جدران المنازل الخاصة . ولم يأنف بعض اعضاء النخبة الاجتماعية من ان يتعاطوه شخصياً ؛ فهناك معبد دشن في اواخر القرن الرابع بعد ان زين جدرانه بالرسوم المدعوك . فابوس فحمل ، بفضل ذلك ، لقب «المصور» الذي انتقل الى ذريته . لم يبلغ الينا شيء من التصوير الديني . وعلى نقيض ذلك ،

ظهرت في احد مدافن الاسكويلىنوس بقايا مشاهد تاريخية ، معركة ومفاوضة ، رسمت في القرن الثالث على الارجح ، يبرز فيها نشاط قائد روماني يدعى ك . فايوس . وكذلك فقد أمر م . فاليريوس مكسيموس ميسالا ، في اوائل الحرب البونيقية الاولى ، بتصوير معركة ظافرة على جدار قاعة جلسات مجلس الشيوخ . ومن الجائز ان نرى ، في اختيار هذه المواضيع ، ظهور ميل مبكر سوف يُمنح الفن الروماني إجناحاً دائماً نحو تمثيل الأحداث الواقعية التي تستعاد بوقار اظهاراً لمجد روما ومجد حكامها وآلهتها : المعارك ، الاستعراضات الظافرة ، الذبائح ، الاحتفالات العامة .

جلي ان هذه المشاهد التاريخية قد جمّلت ونظمت بدافع من حرص الفنانين على إظهار عظمة تحريك العواطف ، كما ستجملها وتنظمها فيما بعد النقاشة العظمى . وعلى نقبض ذلك ، فقد برزت منذ اوائل عهد صورة الشخص المصنوعة بالتراب او المنقوشة ، واقعية فظة جداً وكأنها تمند في ان لا تخفي أية بلية من بلايا الطبيعة او السن . وقد تولدت هذه الصور من قوالب شمعية تؤخذ عن وجه الموتى بغية صنع « الصور » والاقنعة والتماثيل النصفية التي تحفظ في الاروقة العائلية ويؤلف منها موكب في جنائز الحفدة . لم تبلغ الينا أية قطعة قديمة من هذا النوع ، وانما يمكننا ان نتخيلها بالاستناد الى مجموعة الرؤوس شبه الهزلية التي سارت على هذا التقليد حتى اوائل الامبراطورية ، وهي مجموعة تحرك النفس ولا تعرف للشفقة معنى .

لذلك يستهوننا ان نعرف ما كان من امر التماثيل التي يغلب انها نصبت في روما منذ عهد باكر اكراما لأبطال قوميين ، وحتى لألقبيادس وبيثاغوروس : فهذان الاخيران هما اللذان لم يتردد مجلس الشيوخ في أن يعترف بأنها ، كل فيما خصه ، الاولان بين الاغريق بسالة وحكمة ، واللذان امر هاتف غيب دلفي ، حين استشير أبتان الحرب ضد السمينيين في القرن الرابع ، دون أي ايضاح ، بأن تنصب لهما التماثيل . واذا ما تعذر الكلام آنذاك عن الصور المتقنة ، فما هو الحد الذي بلغه النقاشون ، حتى الاجانب منهم ، الذين توجب عليهم ان يأخذوا اذواق زبهم بعين الاعتبار ، في مسعاهم لتحقيق تعبير مثالي شامل ؟ ولكن المصادر القديمة التي تشير الى هذه التحف لم تترك لنا وصفها .

بدت اذن بعض المقاصد الجمالية على الصعيد الجماعي . اما البنخ الخاص ، بإبتناء مظاهر تكريم الموتى ، فلا نعرف منه سوى نتاج صناعة تعددين الشبه الناشطة والمتقنة جداً منذ ذاك العهد عند الاتروسك والمنتشرة بواسطتهم في جميع أنحاء ايطاليا الوسطى . ومن اطرف هذا النتاج مرايا وعلب مستديرة مزدانة برسوم محفورة بالازميل . ويبدو منذ القرن الرابع ان المركز الرئيسي لهذه الصناعة كان برينستا *Préneste* ( بالسارينا الحالية ) ، احدى مدن اللاتيوم . واما المرأة « فيكورني » ، وهي واحدة من اجمل امثالها ، فتحمل كتابة تثبت انها صنعت في روما على يد فنان اجنبي لاحدى نساء برينستا . واستوحى الفنانون طريقتهم والمشاهد المصورة من الرسوم

المصورة على الخزفيات المزخرفة ، وقد صدرت اليونان القديمة زمناً طويلاً - كورنثوس أولاً ، ثم أثينا - هذه الخزفيات الى ايطاليا ، ثم استوردت ، ابتداء من القرن الرابع ، من اليونان الكبرى ، ثم من فاليريا ، وهي مدينة قريبة جداً من اتروريا والتبير ، شمالي روما .

الحضارة اليونانية والحضارة  
الاطالية والحضارة الرومانية

تمثل الصور المحفورة على مرآة فيكوري احدى حوادث رحلة الارغونوط :  
والاثر اليوناني جلي فيها باختيار الموضوع وبمعالجته ، ولعلتها تقليد  
لتحفه من تحف فن التصوير العظيم . وباستطاعتنا ان نسردها امثلة اخرى  
كثيرة عن الاثر اليوناني في الفن الروماني البدائي . ثم ان اكثرية التحف التي عرفت مباشرة او  
عن طريق الوصف لا يمكن ان تقسر الا باللجوء الى الميثولوجيا اليونانية او الديانة اليونانية .  
ونحن نعلم من جهة ثانية مدى اقتباس الاتروسك عن الفن اليوناني . كما ان اليونان الكبرى  
وكبانيا قد ضمتا مراكز اخرى للنشر هذا الفن . وقامت اخيراً علائق مباشرة احياناً : فنند  
اوائل القرن الرابع اتى الفنانان اليونانيان ، داموفيلوس ، وغورغاسوس ، وهما مصوران على  
الارجح ، الى روما بغية زخرفة معبد سيريس .

ولكن هناك بعض الطوابع وبعض الميول التي لم ترد قط في اليونان الحيوية نفسها مع انها لم  
تكن بمجولة تماماً فيها : قد يمكننا التجادل حول قيمتها الجمالية ولكن لا يمكننا التجادل حول  
حقيقة وجودها . لا يجوز ، على ما يبدو ، نسبتها الى الرومان دون غيرهم اذ اتنا لا نجد لها في  
روما وحدها بل نجد لها دائماً في فن مدن اخرى من اللاتيوم ايضاً وحتى في كافة انحاء ايطاليا  
الوسطى . واذا ما استهدفت جهود المؤرخين اليوم استخلاص هذه الميزة ، فان اكتشافات علم  
الآثار لا تهيب بنا الى نسبتها الى الرومان فحسب بل الى الايطاليين عموماً . وليس في الحقيقة ما  
يثير الدهشة في ذلك . فالحضارة الاتروسكية نفسها ، حتى اذا سلمنا باصولها الشرقية ، قد  
استساغت إرثاً ايطالياً ونزعات ايطالية . اضع الى ذلك ان روما ، على الرغم من اسطورة  
«اينه» الطروادي ، لا تمثل جسماً غربياً في شبه الجزيرة . وما كانت عناصر سكانها الاولى لتختلف  
كثيراً عن عناصر سكان المدن المجاورة . اما ما يكون شخصية روما بينها فهو في الدرجة الاولى  
موقعها في مكان اشغال وبالتالي تلاقي البشر والمحاصيل ؛ وهو في الدرجة الثانية مصيرها العجائبي  
في تحقيق الفتوحات . وقبل ان تصبح عاصمة العالم فانها قد اصبحت عاصمة ايطاليا مبتلعة وناقلة  
باسمها للمستقبل كل ما بقي من الميزات الايطالية الخاصة .

الاشغال العامة الكبرى

هل كان يمكنه ظروف اخرى ورجال آخرين تأمين بقاءات اكبر عدداً  
وابعد مغزى ، وتميزاً احلى عذوبة؟ قد يصح القول بذلك . انما يجدر بنا ،  
على كل حال ، الاعتراف بان روما ، بفضل عنادها الصبور والجرأة التي عرفت كيف تبرهن  
عنها في وجه المسائل العملية ، قد خدمت ما ابقت عليه من هذه الحضارة الايطالية .

لا شيء ، في هذا الصدد - اذ لم يكن هنالك من حد فاصل بين الفن ، الذي قلما يكون

اختياريا ، وبين الاشغال الكبرى ذات المنفعة العامة - يعطينا شهادة ابلغ من تحقيقات مهندسيها الاول . فقد كان علمهم وتقنياتهم مدعويين لان يبقيا احد اختصاصات روما المجيدة . برزا منذ هذا العهد القديم وبقي اسم ابيوس كلوديوس ، الذي لقب « بالاعمى » ( *Caecus* ) في شيخوخته السقيمة ، مرتبطاً بمشاريع عظيمة كانت منطلقاً ، طيلة قرون عدة ، لسلسلة متصلة الحلقات دامت ما دامت روما بالذات .

تولّى منصب قاضي الاحصاء في السنة ٣١٢ وبنى « القناة الآبية » التي جرّت الى روما مياه ينبوع يبعد مسافة تتجاوز ١٦ كيلومتراً . اجل لقد امكن ، في الريف الروماني ، توصلا لهذه الغاية ، استخدام أقنية سابقة محفورة لأعمال التجفيف توفرت للاتروسك والايطالين الخبرة القديمة فيها . وعلى الرغم من ذلك فان تحقيق هذا المجرى تحت الارض كان نجاحاً جميلاً لا سيما وقد جهّز على أكثر من ١٥ متراً عمقاً في بعض الاحيان ، بعلو ١٤٥٠ متر وبعرض متر تقريباً . ولم تستند القناة الى الاقواس إلا مسافة قصيرة جداً ( ٩٠ م ) فوق منخفض في المدينة . ومنذ السنة ٢٧٢ ، استلزم قناة جديدة ٣٠٠ متر من القناطر . ولما كان ارتفاع عدد سكان المدينة والاهتمام برفاهيتهم قد زادا باطراد ، فقد أفضى ذلك تدريجياً الى أبنية ازدادت أهميتها شيئاً فشيئاً ايضاً : « فالقناة المارسية » التي شيدت ما بين السنة ١٤٤ والسنة ١٤٠ قد بلغت ٩٢ كيلومتراً طولاً منها ١١ كيلومتراً على القناطر . لا شك في ان الاغريق ، منذ زمن بعيد ، - تعود قناة اقبالينوس في ساموس ، مع النفق الذي استلزمته ، الى القرن الرابع - قد حققوا مثل هذه الاعمال المعدة لتموين مدنهم بالمياه . ولكنهم لم يحققوا ، ولم يصمموا على ما نعلم ، أعمالاً على مثل هذه الأهمية .

تجدد الملاحظة نفسها بصدد الطرقات . فان شعباً أخرى قد أنشأت طرقات في السابق : وهنالك تقليد ، يشك فيه كثيراً على كل حال ، يعزو الى الرومان انهم استوحوا في ذلك أساليب القرطاجيين في صقليا . ولكننا لا نستطيع ان نعظمهم فضلهم في إنشاء اول الطرقات الطويلة المدى . فحين كان ابيوس كلوديوس قاضي احصاء ايضاً ، وضع تصاميم الطريقة « الآبية » ولزم اعمالها ، وهي التي وصلت روما بـ « كالا » - ١٩٥ كم - في كمانيا ، والتي سيدعوها احد شعراء العهد الامبراطوري « ملكة الطرقات » . وقد اخترقت المستنقعات البونتيية بخط مستقيم فوق ردمية بلغت ٢٨ كم طولاً . واعتمدت في إنشائها الطبقات الحجرية التي شدّها الملاط الى بعضها البعض وتناقصت قياسات حجارتها بين الاساس والسطح ، واللوحات التي غطت هذا السطح فيما بعد ، فكانت اول تطبيق لتقنية ستمطي ، طيلة قرون وتحت كل سماء ، في الجبال والمنخفضات ، براهين أخرى كثيرة عن تفوقها . وفي العهد الجمهوري اخترقت ايطاليا بنوع خاص ، في كل الاتجاهات ، طرقات عظيمة ماثلة تولت الجمهورية بعد ذلك تعميمها على الاقاليم على نطاق واسع . لكن هذه الطرقات لم تستخدم للسير السريع . فان هدفها الرئيسي

كان تسهيل انتقال القوات المسلحة والبريد ؛ كما ان عمليات المساحة قد استندت اليها في تقسيم الاراضي . فجعل منها هذا الدور العسكري والاداري ، مع اتساع شبكتها ، دعامة من اوصل دعائم السيطرة الرومانية على ايطاليا اولاً وعلى الامبراطورية بعد ذلك .

فهل كانت هذه المشاريع وهذه النزعات رومانية يا ترى ؟ العدل يقضي ، في الحقيقة ، ان نصفها بالاطالية ، او باللاتينية على الاقل : اذ ان عائلة كلوديا سايبينية المنشأ . فيجب بالتالي ان لا نضفي قيمة نوعية على العنصرية التي يفسر الانصار البشري الباكر استخدامها التقليدي في مفهومها العريض . واذا ما تم الاتفاق على ذلك ، فان الاشارات الوجيزة السابقة الى هذه الاشغال العظيمة تكفي للدلالة على ان التصميم على قهر الطبيعة المعادية واستخدام الطرائق الفعالة في هذا السبيل قد سبقا ، في روما ، قيام الاتصال الودّي بالحضارة اليونانية خلال القرن الثالث . فقبل هذا الاتصال توفقت جرأة مهندسيها الى الانطلاق وأثارت سواعد عمالها الاعجاب - ولكن كم بينهم من العبيد ؟ - كما قام جنودها ، في كل مرحلة ، ببناء معسكرهم .

قبل ذلك بألوف السنين ، حققت حضارات الشرق الادنى الامبراطورية اعمالاً اعظم ضخامة . فهل كان ما أتته ابعده تجرداً عن المصلحة يا ترى ؟ يجدر بنا ان نجد مقياساً مشتركاً للمصلحة . فان اليد العاملة ، مندفة كانت ام راضية بنصيبها ، التي استنفدت قواها في خدمة الآلهة وابنائهم او خلفائهم الملكيين ، قد آمنت بأنها توفر للجماعة ، على الدوام ، احسانات قوى كلية القدرة . اما الرومان فقد كونوا ، عن المنفعة العامة ، فكرة اقل غموضاً واقل بعداً . فن حيث ان ديانتهم كانت ديانة قانونية ، او دنيوية اذا صح التعبير ، فانها لم تفتح امامهم آفاق مثل هذه الاعتبارات . ومن حيث هم لم يؤدوا واجباتهم مسبقاً لأهنتهم ، بل اكتفوا بنحوهم بوعود مشروطة ، فانهم قد تحاشوا القيام بتعهدات على مثل هذا النطاق . وهم قد كيفوا بجهودهم ، لا ضناً به ، بل اقتصاداً ، وفاقاً للكسب المباشر الذي ارتقبوه منه . ولم يبرز كبرياؤهم في الاعتداد بقوتهم وثروتهم إلا بعد حين ، وقد بقي زيغانه الشنيع امرأ نادراً .

لا يجدينا ، على كل حال ، ان نسير الى ابعده من هذا الحد في مقارنة تصرفات على مثل هذا التباعد ؛ فالمقارنة المفيدة يجب ان تجرى مع الاغريق . في الحقيقة تفوق الرومان عليهم على هذا الصعيد : اجل لقد اعوزهم ذلك الانسجام المرن وذلك التألف السهل بين المنطق والتأثير اللذين احل الفن اليوناني في المرتبة الاولى . ولكن ما ان شعروا بمجاز المنفعة التي فهموها على طريقتهم والتي لم تحتلف قط عن طريقة الاغريق ، حتى برهنوا ، باكراً جداً ، كما رأينا ، عن حدة خيال وسعة تفكير . وحين توفرت لهم بعد ذلك وسائل خلق ما هو اعظم ، عرفوا كيف يضيفون على تحقيقاتهم العملية ، الحالية من الزخرفة ، والمطابقة ، منذئذ ، لمثل أعلى من الجمال الوظيفي ، طابعاً من الجلال الصافي .

نقل التحف اليونانية  
حافظ الرومان اذن ، فيما يعيننا ، على عبقريتهم الخاصة . ولكنهم لم يحافظوا عليها على صعيد الفن الحقيقي .

فقد حدث امر جديد هو احتلالهم لاطاليا الجنوبية وصقليا وشبه الجزيرة اليونانية وآسيا الصغرى المستغرقة . وقد حدث معه ، لا استلهاهم فناً لم يكونوا ليجهلوه ، بل استئثارهم وتمتعهم المباشر بكل ما استطاعوا ، مادياً ، نقله الى وطنهم بعد ان اختاروا ما طاب لهم اختياره من نتاج كدته ارفع الشعوب فناً .

وليست الامثلة ما ينقصنا عن هذا الاستيراد الضخم للتحف الفنية . لن نعود مرة اخرى الى مواكب الظفر التي كانت تقدم ، طيلة ايام عدة احياناً ، لاجباب الجماهير ، الفنائم التي تشترك فيها . فلننظر بالاحرى الى تصرفات الفنصل ل . موميوس الذي هزم ، في السنة ١٤٦ ، الجيش الآخي على مقربة من كورنثوس . ويعود الفضل الاكبر في شهرة هذا الحدث الى تقليد تالاب طنبع بعض الروايات بطابع مضحك فاطهر هذا الروماني بظهور الحشونة والبربرية . واذا هو اقدم على هدم كورنثوس بعد نهبا فانما فعل ذلك نزولاً عند أمر مجلس الشيوخ ؛ وان بوليب ، الذي شاهد زمر الجنود يلقون باللوحات الشهيرة ارضاً ويلعبون عليها بالكماح ، يمتدح اعتداله وتجرده الشخصيين . وما ان علم بقيمتها حتى اسرع والغى بيع لوحة ، ضربت يجمالها الامثال ، الى الملك البرغاموسي اطال الثالث واحضرها الى روما حيث وضعها في معبد سيريس . وعندما انذر ملتزمي نقل اللوحات والتماثيل الى ايطاليا بوجوب التعويض عما يفقد منها بغيرها ، فان انذاره يكون اقرب الى الصواب اذا ما نظرنا اليه كفكاهة لا كانذار حقيقي . اصف الى ذلك ان اعادة الاعتبار للرجل ليست هنا من الامة بمكان : فان قيمته كحالة نموذجية تختلف كلياً . وفي نظر « بلين القديم » ، اذا كان القادة الظافرون في آسيا الصغرى ما بين السنة ١٩٠ والسنة ١٨٨ قد ادخلوا الى روما عادة المصنوعات الفضية المنقوشة والأقشنة الثمينة والاسرة المنزلة بالشبه ، ان موميوس قد ادخل عادة المصنوعات الشبهية الكورنثية واللوحات الفنية . وقد عزا احد معاصري اوغسطس الى مغائمه اكثر واجمل التماثيل التي ازدانت بها روما . فحين كان قاضي احصاء في السنة ١٤٢ وزع القسم الأكبر منها على كل الحياء المدينة تقريباً واستطاع بالفائض منها ان يوزع الهبات على البلديات الايطالية وحتى على مستعمرة ايطاليكا في اسبانيا .

هذا مثل بسيط بين امثلة اخرى كثيرة . ولكن المجال ليس مجال احتداد وتظاهر بالفضيلة . فان فاتحين كثيرين قبل الرومان قد اعتمدوا طريقة الاستلاب هذه التي تغري ، حتى اليوم ، اكثر من منتصر معاصر . ولعل الاغريق وحدهم انقطعوا ، منذ اواخر العصر القديم ، عن استلاب كنوز « البرابرة » الفنية لانهم قبلوا . على هذا الميل — وليس هذا اقل الدلائل مغزى على استقلالهم الجمالي . ولم يبد خصومهم ، الفرس والقرطاجيون والجلاطيون مثلاً ، ترفماً مماثلاً .

أما الرومان ، فقد سبق لهم ونهجو هذا النهج في حروبهم ضد الاتروسك ، ولم تنطو الأساليب التي اعتمدها في العالم اليوناني على أي جديد باستثناء وفرة دخلها النادرة التي تفسرها رحابة هذا العالم ، وما يمكن ان ندعوه بكثافته الفنية . ولم تستلب الممتلكات الخاصة استلاباً منظماً إلا من قبيل العقوبة الفردية أو الجماعية ، وغالباً ما تحلى الرومان بظرف تقوي قضى باحترام المعابد بين الممتلكات العامة . ومع ذلك ، فقد كانت النتيجة اوبلاً وتكديساً في مدينة لن تلبث ان تطفح بهذه التحف .

وساعد على ذلك ان النقل الذي اجري لحساب الدولة قد رافقه في الوقت نفسه أو في وقت لاحق نقل اجري لمصلحة الأفراد . وحصلت كذلك صفقات واغتصابات سهلتها تسهيلاً نادراً التفاوت المالي والاداري الذي أوجده الفتح بين الأسياد والرعايا . فما هو مصدر الشحنات الفنية المجموعة في مركبين غرقا في القرن الأول قبل الميلاد ، واكتشفا في اوائل القرن العشرين ، الأول في انليكثيروس ( Anticythère ) جنوبي البلونيز ، والثاني في مهديه على شاطئ تونس الشرقي ؟ هل هي غنائم حربية استولى عليها سيليا في اليونان ابان العمليات ضد ميريديات ؟ أم صفقات وطلبيات ؟ أم مجموعات أرسلها السامرة بغية بيعها في أغنى الأسواق أموالاً ؟ مهما يكن من الأمر ، فليس أبلغ ، في استعادة الماضي ، من تنوع - أعمدة ، وقطع رخامية وشبيهة ، وتماثيل مختلفة الاشكال والقياسات ، ونقوش ناتئة ، وأوان ، الخ .. - وجمال بعض القطع الذي يلفت الأنظار : بفضل هذه الاستيرادات المستمرة ، جمعت روما ، التي غدت مدينة - متحفاً ، ثروات فنية يونانية تفوق ما جمعتها أية عاصمة هيلينية عظمى .

يكشف هذا العناد المستمر في تحقيق هذا المطلب ، دونما ريب ، عن سيطرة الفن اليوناني والفنانين اليونانيين شعور بكبرياء جشع فطري عند حديثي النعمة : كان من واجب الشعب - الملك على نفسه ان يبرز الملوك الهلنيين ، وان تبرز مدينته مدنهم والمدن الجمهورية اليونانية ، كأثينا ورودوس ، الذائعة الصيت بفخامتها . ولكنه قد وعى في الوقت نفسه مفهوم واجب الاحترام الذي يؤديه المنتصرون لتفوق المغلوبين الفني .

قارب بعضهم أحياناً بين ما حدث في روما ، خلال القرن الثالث وفي اوائل القرن الثاني ، وبين الصدمة التي شعر بها الفرنسيون في اواخر القرن الخامس عشر بعد ما قطعوا جبال الألب ودخلوا ايطاليا . فاذا كانت كل مقارنة قابلة للانتقاد ، فان هذه بنوع خاص تموه الحقيقة تمويهاً . فبصرف النظر عن أهمية الاتصالات السابقة ، يؤخذ عليها ، في الدرجة الاولى ، انها تهمل فقدان أية حركة توازي النهضة في البلدان اليونانية وفي روما : وما المقصود هنا ، دونما تعرض لمصادر الوحي ، سوى حركة فنية جديدة وقوية ، ربما أسهم فيها هنا وهناك فنانون قوميون .

يلاحظ « بلين القديم » ، في اواسط القرن الثاني ، انبعث الفن اليوناني بعد تقهقره السابق : ولكنه يعني ، وهذا امر آخر ، استعادة الازدهار المادي . شهدت الحضارة الهلينية من قبل

عادة المجموعات . ودرجت هذه العادة في روما مستهدفة التحف اليونانية وغيرها . فقد جمع الرومان منها ما يعود للعهد الكلاسيكي ، وما لبثوا بعد ذلك ان جمعوا ما يعود للعهد القديم أيضاً . وشهد الشرق ، في نطاق تجارة المصنوعات الفنية ، ازدياد النشاط في اوساط هذه التجارة التقليدية ، أثينا ورودوس وبرغاموس ، التي تردد اليها أثرياء الرومان مبتاعين منها لأنفسهم أو لأصدقائهم أحياناً ، كما فعل اتيكوس ( Atticus ) الذي وثق الناس بسلامة ذوقه . ثم دخلت هذه التجارة روما مع ما يرافقها من حرف تابعة ، كالترميم ، او طفيلية ، كالترفيف . فكان من شأن هذا الولوج بالماضي ، انه أضر بالتجديد الذي بدا ، مع ذلك ، وكان كل شيء يشجعه : انتشار التقنيات ، ووفرة الأموال ، وامثلة التحف المدروسة على هيئة ، وتميز بعض النزعات الإيطالية . ولكن كل ذلك بات دون جدوى . أجل لم تكن كثرة النتاج السابق لتسد حاجات زين مترايدين باطراد . ولذلك ، فالنتاج الجديد لم يهبط ، بل أخذ في الاتساع بنسبة الطلب المتزايد وبفعل انتشار الثروة ؛ ولكنه لم يتبع أي تيار مجدد ، ولم يعشه أي نسخ جديد . فاقصر أبداً على النسخ ، وعلى بعض الاقتباسات احياناً عن أصول برهنت عن نجاحها في البلاطات والمدن الهلينية .

غير ان هذا الجمود ليس مثاراً لمزيد من الدهشة ؛ فقد كان للاغريق ، بعد كل حساب ، مصلحة في استثمار مهارتهم وصيتهم . ولكن ما نجد مزيداً من الصعوبة في ادراكه هو كيف ان القليل القليل من الفنانين الرومانيين أو الإيطاليين ، على الرغم من الظروف الكثيرة التي توفرت لهم للحصول الفني ، قد لاقوا آنذاك من التقدير ما أتاح للمصادر أن تحافظ على اسمائهم . فحق او اواخر العهد الجمهوري - ولن تتبدل هذه الحال ، في العهد الامبراطوري ، إلا بكل بطء - لم تذكر هذه المصادر فناً رومانياً يحمل اسماً لاتينياً ، سوى كوسوتوس المهندس المماري . في السنة ١٧٥ كتفه الملك السلوقي ، انطيوخوس الرابع ، اتمام معبد زفس الاولي في اثينا الذي أوقف بناؤه منذ اواخر القرن السادس ، والذي لن ينتهي ، على كل حال ، إلا بعد مرور ثلاثة قرون . كان هذا الملك معجباً جداً بالعادات الرومانية ، فأكسبه ذلك ، وغير ذلك من الغرابات ، ما اشتهر عنه انه نصف مختل . ولكنه كان ماهراً في العناية بشعبيته ، لا سيما في اثينا . ولذلك يفري بعض العلماء أن يروا في كوسوتوس مواطناً رومانياً حديث العهد ، يوناني الاصل ، أضاف الى اسمه الصيغة اللاتينية .

ان صفة التحكم في هذا الافتراض اليائس تنطوي على بعض الرمزية : انها لحالة فريدة وشبه مشينة أن يكلف اغريقي فناً رومانياً القيام بهذا العمل . وعلى تقيض ذلك فليس من سبيل لاحصاء الطلبات المنفذة في البلاد اليونانية ، والصناعيين والفنانين اليونانيين المجموعين رضاً او قسراً والمنقولين فرقاً كاملة والمستدعين أو الآتين باختيارهم الى ايطاليا للعمل في خدمة الرومان . فاذا ما انطوى نتاج مغفل ما على بعض الجمال فان تحليل نمطه يدفع بالنقاد في اغلب الاحيان

الى نسبته الى فنان يوناني مجهول . اجل قد تبدو استنتاجاتهم مشوبة بذلك المسيل للاواعي نحو الحضارة اليونانية الذي لا يتخلى عنه مؤرخ الفن الا بصعوبة . ولكنها في الواقع تتفق مع كل ما نشاهده من العلاقات الفنية بين الشعبين . وللدلائل الصغيرة بلاغتها احياناً : فقد درج الرومان حتى ذلك العهد على استيراد المرمر من الأتيك ( *Attique* ) والجزر الايحية ولم يستخدموا مرمر ايطاليا في روما قبل عهد قيصر .

وليس اقل بياناً ان رومانياً واحداً لم يتذمر من هذه السيادة الأجنبية . فالتقليد الذي لا ينضب معينه في الكلام عن انتقادات كاتون اللاذعة ضد فساد الأخلاق والبلذخ والفلسفة والشعر نفسه والطب عند الاغريق ، لا يروي عنه اي انتقاد ضد فهم : ولعله اكتفى بالاعتراض على عدد التماثيل المفرط— ولكن اصبح له مثاله اخيراً— وعلى استخدام الصور الالهية لاهداف دنيوية . والحقيقة هي انهم خضعوا جميعهم للتيار ولم تبد المتع التي جنوها منه وخيبة العاقبة لاي منهم . ولم تفنهم قط حطة فنههم او بالاحرى عدم وجوده . نحن لا نشك في ان الوطنيين المثقفين قد تألموا من ذلك بعد ان زالت النشوة الأولى التي أثارها فيهم الاعتقاد بان هذه البدائع اصبحت منذئذ ملكاً لهم ، ولكنهم لم يعترفوا باستدلالهم . فان شيشرون الذي بحث بشغف عن التحف اليونانية كي يزين بها مقاصفه والذي دفع ثمنها غالباً على الرغم من مشاغله المالية قد تظاهر بنسيان اسم بوليكليت احتقاراً حين وقف خطيباً في جمهور كبير . اذا كان هذا الاسم قد راوده دوناً جهد في القسم الاول من كتابه ( *Tusculanes* ) ، فانه بذلك يحاول تفسير خضوع روما حيال الفن اليوناني بلا مبالاة الجدود المرعبة : « لو أدي لفايوس الاكرام الخليلي بوهبته التصويرية ، وهو رجل ينتمي الى ارفع طبقات الاشراف ، اما كنا احصينا بين الرومان فنانيين عديدين من امثال بوليكليت وباراسيوس ؟ » اما في الواقع ، فقد اكتفوا كلهم بعذر واه ، معلى او ضمني : كان للرومان ، فاتحي العالم وحكامه ، مشاغل اخرى اعظم شأناً .

النقاشه  
يجوز لنا والحالة هذه ان نمر مرور الكرام بنتاج ليس رومانياً إلا يحنسية زبنة .  
فنقتصر خصوصاً على الفنون العظمى .

ان منتجات النقاشه لا يحصى لها بعد . فالدولة ، او بالاحرى القضاة الذين يمثلونها والذين تباروا بذخاً بالاسهام فيها بثروتهم الخاصة ، وزعت المزيد منها على الساحات العامة والأبنية القديمة او الحديثة في « المدينة » . وقد بلغ من زحمة الغوروم بتماثيل النبلاء التي أقامها ذوروم او النفعيون انه تقرر ، منذ السنة ١٥٨ ، ان يزال منه كل تماثيل لم تصدر اجازة رسمية باقامته . ولم يحمل الأغنياء متعتهم الخاصة ومقتضيات العرف السائد فزينوا منازلهم في المدينة ومقاصفهم وحدائقهم . وحدث مثل ذلك في جميع أنحاء ايطاليا حيث سارت المدن الصغيرة على خطى المدينة الكبيرة . فقامت حركة لا تقاوم ، شبيهة بتلك التي جرّت وراها المجتمع الهليني منذ أواخر القرن الرابع ، مقتبسة طرائقها وتحقيقاتها على كل حال ، على انها أقوى منها لأنها

أقل ذوباناً في الزمان والمكان وأوفر موارد مادية ، فجرت وراءها كل المجتمع الإيطالي الرفيع والمتوسط .

لا ينتظر من هذا الانتاج ، الرائج والوفير ، كما لم ينتظر ذلك من قبل من الفن الهليني ، ان يكون في مجموعه انتاجاً من النوع الاول . ونحن نميل ، امام غزو الفن الاجنبي الذي لم يتجدد لمنفعة زينه ، الى الاسف لما حلّ بالميزات التي برزت في فن القرون الاولى من العهد الجمهوري ، باقصائها الى مرتبة دنيا ، ان لم يكن باضمحلالها اضمحلالاً كلياً . فلو حوفظ عليها بأن يوضع في خدمتها ما امتلكه الفن اليوناني ، لزم من طويل ، من تقنية وقوة منطق وأناقاة وتحريك للمواطن ، لأدّى ذلك الى نتائج ذات قيمة كبرى . واذا ما استمر انتاج الصور الواقعية ، فانها قد بيعت لغير اعضاء الطبقات الاجتماعية العليا ، وما كانت لتطلب من الفنانين المتمتعين ببعض الشهرة : قلائل النصفية والنقوش الناتئة في الانصاب المدفنية ، آنذاك ، أهميتها كاستنادات عنصرية واجتماعية ، لا كتحف فنية .

على الرغم من ذلك ، ترك لنا هذا العهد بعض النقوش الجميلة ، ويحاول الاختصاصيون اليوم تعيين تواريتها بغية تبيان تطورها . ليس من ريب في ان أهم عهد ، بهذا الصدد ، هو القرن الاول ، حين استطاعت مقاعيل الثقافة المتبادلة ان تستقر وتحدد بعض النزعات وتشرع في نشر بعض المذاهب . وتهتم المصادر القديمة اهتماماً كبيراً لحالة اغريقي من ايطاليا أصبح مواطناً هو باسيتيليس الذي بلغ قمة الشهرة منذ زمن سيلاً وتلمذ عليه كثيرون ممن بلغت الينا أسماؤهم حتى ما بعد العهد الميلادي . وتصنفه لنا عالماً بأصول الفن وممارساً للنقاش . ولكن لم يصل الينا شيء مما صنعه يده . وهكذا ، باستثناء حالات نادرة جداً لا شأن علمياً لها ، فان كل ما وقعنا عليه غفل ، وما زالت تواريخ التنفيذ التي يهتما معرفتها موضوع جدل حاد .

لنستعرض اذاً أهم هذه الآثار دون حاجة منا للتعرض لهذا الجدل . فنذكر مثلاً بعض تماثيل نصفية جافة الوجوه آذاها الهوى ، ذلك الهوى نفسه الذي سيطر على المدافعين العنيدين عن هذه الفكرة او تلك في الحروب الأهلية التي اندلعت في زمن ماريوس وسيلا . ونذكر ايضاً تمثالاً لبومبيوس وآخر لشيرون وآخر لقيصر يتجلسى فيها التجليل السيكلوجي العميق : ولم تضر امانة الصورة فيها بالتعبير الجلي والعميق . ويجدر بنا ان نشير خصوصاً الى نقشين ناتئين ، احدهما في مونيخ والثاني في اللوفر يعودان الى مذبح دوميتيوس اينيوباريوس . فقد قرّ الرأي تقريباً على انها إحياء ذكرى تأسيس نابونا على يد احد جدود ناقشها ، في السنوات الاخيرة من العهد الجمهوري على الأرجح . وهما انتاج فنانين مختلفين ، وعلى الرغم من ان المشهد الميثولوجي الممثل في النقش المونيخي على جانب كبير من المهارة والظرف ، فان النقاد يلقون مزيداً من الامة ، على ما يتصف به من جفاف وتصنع ، على نقش اللوفر الذي يمثل ذبيحة ومشهداً رسمياً اما لتسريح الجيش ، واما لتسجيل المواطنين المعدين لاستيطان المستعمرة الجديدة كما نرجح . وان

مثل هذه القطعة لدليل على استمرار النزعة الخيرة ، اقله عرضاً ، الى معالجة المواضيع التاريخية بنبل ، وهي نزعة ستلهم الكثير من روائع الفن الامبراطوري التي لا اعتراض عليها .

كان على هندسة العمارة ، شأن النقاشة ، ان تواجه تزايداً عظيماً في الطلب .  
هندسة العمارة  
وقد وجدت هندسة العمارة بواعثها ، وغاذجها الكثيرة ايضاً ، في ابتكارات التجميل وتزيين الأبنية التي حققتها الحضارة الهلينية . أضف الى ذلك انها تفوقت على النقاشة في مطابقة الميل الروماني الى التقنية المتينة والمادية التي تتسع للبشر إثبات وجودهم على هذه الارض .

بنى الرومان كثيراً ، عمداً على عين ، بغية إعلاء روما فوق العواصم الكبرى في العالم المتوسطي ، والمدن الإيطالية الصغرى اقله الى مرتبة شبيهاتها اليونانيات . ولكنهم في الظروف العادية بنوا بلا تبصر ، دونما تخطيط جامع . وكان هذا الشتات ثمناً لتعاقب القضاة وتنافسهم . وكان على مجلس الشيوخ ، تلافياً لذلك ، ان يقوم برقابة مستمرة : ولكنه شغل بأمر أخرى ولم ير الأشياء من زواياها الطبيعية ، على هذا الصعيد ، بتأثير الفطنة المحافظة ، والحقيرة طوعاً . ولذلك لا نشاهد برنامجاً حقيقياً ، لا من حيث وفرة الأبنية الجديدة فحسب بل من حيث تلاحها الداخلي ايضاً ، إلا حين عادت السلطات الادارية ، او اقله السلطة الادبية ، لفترة طويلة نسبياً ، الى انسان تتوفر لديه الاموال الضرورية ويرغب ، على غرار المستبدن او الملوك اليونانيين ، في تأمين العمل للكتل المعالمة وافتتان الجماهير الشعبية بالتباهي بسخائه وفرض ذكره على الاجيال اللاحقة . فحدث ان توفرت هذه الشروط مجتمعة في القرن الأخير من العهد الجمهوري ، حين لم يعرف ارتقاء الطامعين حدوداً . فحتى ذلك العهد اقدم هذا القاضي ، او هذا القائد خصوصاً ، على نذر معبد ، وذلك الأخير ، لا سيما بين قضاة الاحصاء الذين كانت الاشغال العامة احدى مهامهم الرئيسية ، على تشييد معبد ملكي — كان كلون اول من شيّد معبداً ملكياً أطلق عليه اسم بوركينا ( *Porcia* ) باسم عائلته ، ثم سار على خطاه كثيرون غيره — او رواق او مستودع . لكن الدكاتورين سيلاقينصر ، وبينها بومبيوس ، كانوا أرحب أفقاً فصمموا أبنية كبيرة غير مألوفة ، ومجموعات ايضاً ، وأنفقوا في سبيل تحقيقها دونما حساب بقدر الغنائم التي كدسوها .

يجب ان تضاف الى هذه الابنية المعدة للاستعمال العام المنازل الخاصة التي تزايدت حتى في الريف بفضل المقاصف : منازل بسيطة جيداً يتكسد فيها الوضعاء متألين من عدم توفر الاسباب الصحية وغلاء الأجور ، ولكنها اعظم اتساعاً وزهواً من ذي قبل بسبب نمو الثروات والسعي وراء الرفاهية ، ووراء البذخ الصاخب في اغلب الأحيان .

توجب اذن على مهندسي العمارة ان ينهضوا بعمل ضخم لا سيما في روما . وكان لعدد هذه الابنية والسرعة في إنجازها ذبول سنحدها تحديداً أفضل لدى دراسة هندسة العمارة في العهد الامبراطوري الذي اتصف بها للاسباب نفسها . لم يكن استخدام الملاط ، وسد الفراغ في

الجدران بالرضام ، والقرميد والتليس التريني اموراً مجهولة في المنطقة المستغرقة ، فاضطر المهندسون الى اللجوء اليها بصورة قياسية . وكذلك ، فاننا لن نستعرض ، الا بمناسبة درس الامبراطورية ، اهم نماذج الابنية : ظهر بعضها آنذاك ولكنها لم تعم الا فيما بعد . يكفي الآن القول بان ما يمكن رده منها الى اصول رومانية ليس كثيراً ، لابل ان اكثر من معبد قد بني آنذاك على الطراز اليوناني . وقد اتى التكيف الضروري بطيئاً جداً ، وكان حصوله وفاقاً للتقاليد القومية ، من جهة ثانية ، اقل منه وفاقاً لحاجات المجتمع الروماني والمعابد الرومانية .

فلنحاول بالتفضيل اعطاء فكرة عن العمل الذي حققه « الأباطرة » العظام في القرن الاول والذي يبشر اتساعه بالتحقيقات الضخمة في العهد الامبراطوري .

لسنا نعرف معرفة تامة ماجزه سيلاً في روما بسبب اعمال الترميم والتحوير اللاحقة . بيد اننا نلاحظ انه اعاد تنظيم حي الفوروم القديم رابطاً بينه وبين مرتفع الكابيتول المشرف عليه من الشمال الشرقي . وشيد بين قتي هذا المرتفع دار المحفوظات التي اطلت على الساحة العامة بمجبهة تبلغ ٧٠ متراً طولاً مستندة الى اساس يعلوه رواقان من القناطر . ونرى ان هذا الطابع الفخم ، تتصف به هندسة تعتمد نوعاً من التزيين المسرحي ، كما اعتمد من قبل في برغاموس عاصمة الاطالين ، ولكن بتناسق يتفق والذهنية الرومانية ، اشد بروزاً في معبد اله الحظ في برينستا الذي رسمه ووسعه : كان هنالك عشرة سطوح منضدة على منحدر الجبل ، مع ما يرافقها من اروقة وسلام ، تؤدي الى بناء مستدير ذي قبة ترتفع ١٢٠ متراً فوق قاعدة الجبهة . وليست هذه المدينة الوحيدة في ايطاليا التي استفادت من سخاء الدكتاتور .

اما بومبيوس فقد شرع في روما بتنظيم ميدان مارس وراء الكابيتول . فبعد عودته من الشرق ، شيد فيه اول مسرح مبني بالحجر في المدينة ، ومعابد عديدة ورواقاً ذا اربعة صفوف من الاعمدة تحف بالحدائق ، وبناء لجلسات مجلس الشيوخ .

اما قيصر فقد قصد ان يبرز سلفيه . ولا سبيل لعمرى لاحصاء كافة الاعمال التي قام بها في روما وايطاليا ونحتى في الولايات . فهو قد شرع بشراء الأراضي وتنفيذ الاعمال خلال حملاته على غاليا ، قبل ان يصبح دكتاتوراً ، وشيد المعبد الكبير « جوليا » الى جانب الفوروم القديم . ولم يتردد في تنظيم الفوروم الجديد بعد ان نزع الاترية والانقاض من ارضه . وقد استخدمت هذه الساحة الفسيحة - ١٦٥ م × ٧٥ - المحاطة بالاروقة ، اطباراً لمعبد نذره ، يوم انتصاره على بومبيوس ، للإله التي جعل منها جدة عائلته ، فينوس الام . وقد انتصب قبالة هذا المعبد تمثال الدكتاتور متمطياً حصاناً مفلولج الحوافر على غرار اصابع الانسان كان العرافون قد تنبأوا بان مالكة سيسيطر على العالم .

هكذا قدمت روما في تجهيزاتها وابنتها الجديدة الدليل على التغييرات في نظامها السياسي

واخذت ترتدي شكلاً خليقاً بقوتها وثورتها وخليقاً ايضاً بالرجل الذي تولى فيها السلطة . لاشك في ان التطورين، البنائي والسياسي ، سيحدثان على كل حال وان الموازنة بينهما ستظهر ايضاً : فالطبيعة البشرية ، في وضع روما آنذاك ، كانت تستدعي ذلك . ولكن ما حدث انما حدث بسرعة بتأثير من سنى الحضارة الهلينية الساحر: فقد عينت هذه الاخيرة الابنية الواجب تشييدها وقدمت اليد العاملة القادرة على النهوض بهذه المهمة بفضل تعليمها مثلاً اعلى في العظمة لا ترضى السلطة معه ، اقله للتأثير في نخبة الجماهير ، باطار عادي هو دليل الشح والجهل . واذا نحن نظرنا الى ملكية قيصر من زاوية برنابجها الفني ، لرأينا انها هلينية لا رومانية .

ولكن مدينة كبرى لا تتجدد في فترة دكتاتورية دامت سنوات معدودات . فقد توفي قيصر باكرأ جداً . غير ان المثل الذي اعطاه سيراود الاباطرة ابدأ .

## ٢ - التطور الفكري

على الرغم من ان الحياة الفكرية في روما قد تأثرت بالحضارة اليونانية ايضاً ، فانها تتصف بمزيد من التميز . فقد كانت الحضارة اليونانية لها مهبذاً وقدوة . ولكن مجرد الاستقلال اللغوي قد تنافى والنقل بلا شرط ولا استثناء الذي سهل تحقيقه بصدد النتاج الفني . كما ان الحاجة للترجمة ، بالاضافة الى ما اوجده من اتصال اوثق اتضح انه أعظم فائدة من حيث الاساليب ، قد افضت اقله الى التغيير والتبديل . وقد تفاوت عمق التبديل ومدى الاضافات الشخصية التي كان هو منطلقاً لها باختلاف المؤلف واللون الادبي والعهد . وقد تطلع بعضهم ، بعد تفكير عميق ، بخطر الذرى يدفعهم الى ذلك حنان متفطرس نحو وطنهم تجيش به قلوبهم . فصمموا على استخدام مرونة مهارة الفكر واللغة والنسق التي اعترفوا بأنهم مدينون بها الى المؤلفات الاجنبية رغبة منهم في ان يجمعوا لروما تراثاً فكرياً يتفق والنزعات القومية الخاصة التي يعود الفضل في بقائها او يقظتها اليهم . واذا لم يفهم النجاح التام في كل الحقول ، فانه قد جاء هنا وهناك نجاحاً لا جدال فيه . وعند زوال الجمهورية كان الرومان قد تجاوزوا مرحلة الوعود . ففي نطاق بعض النشاطات الفكرية ومعرفة بعض العواطف والتعبير عنها نراهم وقد قطعوا مرحلة التلمذة والشراء فيما يعود لهجة نظزم وتزيين مدنهم ومنازلهم .

## ١ - اليقظة

ان التركيب العقلي في شعب من الشعوب ابعده من ان يبدو ، بعد التحليل ، شمس فلاح رواقمي حاصل بسيطاً ، كما انه لا يتثبت كما تتثبت النظريات الهندسية . ولكن من يحاول تحديد وفهم هذا التركيب عند الرومان ، يرى ان مفهوم الشعب الفلاح حقيقة مازمة لا تقاوم . فان عامة الشعب الروماني التي تعيش من نشاطها التجاري تتميز منذ عهد مبكر

باختلاطها وتأثرها بالتيارات الكثيرة وبقلتها واندفاعها وحتى بقابلتها، ولكنها لا تحمل الناس على الانقياد لقدمها . فروما لاتينية وإيطالية قبل ان تكون رومانية بالذات بما لهذا التعبير من مفهوم ضيق ومدني . فان ما يعتد به في الدوجة الاولى هو الارستوقراطية الحاكمة والطبقة الوسطى اللتان تتألفان في أكثريتها من الملاكين الريفيين القريبين من الارض المنهمكين باستثمارها شخصياً المتفانين في الدفاع عنها الموزعين اوقاتهم بين الحقول والجيش ومناقشة الشؤون العامة .

هل من داع للدهشة ، والحالة هذه ، اذا ما ساد الحس العملي والواقعي والمموس ؟ فهو قد سيطر على اللغة نفسها التي لم تدخل عليها التعابير المجردة الا في عهد متأخر نسبياً دون ان تتمكن يوماً من تبديل التيارات الصرفية والانشائية التي فرضتها عليها سمتها الاولى . وقد قام احد علماء اللغات بمن يحسنون اكتشاف الفوارق الدقيقة بدراسة « اللاتينية لفة فلاحين » و « اللاتينية لفة المحسوس » فانتهى الى ان اكثر من كلمة ذات معنى ادبي تشتق من الحياة الريفية كـ ( *Egregius* ) مثلاً ( وهي تعني اشتقاقاً « الموصول من القطيع » ) فاصبح معناها بالتالي « السامي » ، « المجيد » .

وعلى الصعيد العقلي تميز الشعب الروماني بميل قليل نحو العلوم ، لا سيما المجردة منها كالرياضيات ، ونحو الفلسفة ، وما النطاقان اللذان شغف بها الفكر اليوناني وغالباً ما خلط بينهما . اجل لم يعوز الرومان التفكير او الميل الى التنظيم المنطقي . ولكنهم آثروا تطبيقها على الواقع القريب وعلى الابحاث ذات المنفعة المباشرة . ولن تغريهم العلوم قط إلا بتطبيقاتها العملية : الاحصاءات ، الاشغال العامة ، الشؤون المائية ، المساحة ، الزراعة ، الخ . ومن حيث ان الروماني مجدّ وصبور وكثير التدقيق ، فانه يراقب نفسه ، ويطيب له درس الاخلاق وما يفضي اليه من قذح يتفاوت عنفاً وسخرية ؛ ومن حيث هو عضو في مجموع ، يستهويه الاهتمام بالاحداث السياسية والاجتماعية التي يطيب له تقديرها ومحاولة فهمها ؛ وهو يعتز بماضي عائلته ووطنه ويريد ان يجد فيه دروساً للمستقبل . وهذا ما سيملي عليه موقفه حين يواجه نظامين فكريين : فالتاريخ سيستهويه دراكاً لا بما يعرضه من حقيقة مجردة عن الغاية بل كأمثلة في السلوك الفردي والجماعي ؛ اما الفلسفة فستستهويه بقدر ما تكون سيكولوجية اخلاقية وتحليلاً لانظمة الدول والمجتمعات لا نسجاً نظرياً فحسب . ولم يفته اكتشاف ما للكلام من قوة في النظام الجمهوري ، ولكن ما اعتبره اعظم قوة هو السلطة التي توفرها للمواطن الممتاز ، كما حدده بلوت ، « الثروة والثقة والاعتبار والمجد والحظوة » ، بحيث ان البيان المنق لم يفرضه قط . وبالمقابلة ، افضى به عنفه الشديد وحرصه على المصلحة والعمل الى ابتناء نظام فكري جديد هو نظام القانون : فلم يظهر الفكر الروماني في اي حقل آخر ، وبشكل افضل ، طاقاته العقلية واستعداده للتصميم المنظم وحتى لحدة التصور ، شرط الانطلاق من حالات حسية والخلوص في درسها الى وسائل حل سواها .

يجب ان نحذر الاوهام بصدده وضوح ومتانة مثل هذا التسلسل : فان التاريخ والعلوم التي تتناول معيقاته لا تستطيع حتى اليوم - وهل ستستطيع ذلك يوماً؟ - اثبات طابعه الكافي والضروري . من اليسير ان نعزو ما حدث الى بعض الجذور ، ولكنه من البساطة الكلية الاعتقاد بان ليس هنالك جذور اخرى او بان الجذور التي اكتشفنا ما كانت لتثبت فروغاً اخرى . فكم نوابت مجهولة اجهضت يا ترى؟ وما هي التأليف الحفية المتسعة التي اتاحت تقنح ما ازدهر من هذه النوابت؟

مهما يكن من الامر ، فليس ما ورد في بحثنا سوى امكانات فقط ، قد لا تكون الوحيدة على كل حال . وكان لا بد من تحقيقها .

ولكن تحقيقها كان ابطاً منه في كثير من الحقول الاخرى . فقد اجمع التقليد على اليقظة البطيئة والمعيرة واقع هذا البطء لا بل اعلنه اعلاناً : لم يشعر الرومان يوماً بكبرياءه لا طائل تحته في تقديم تاريخ يقظتهم الفكرية ولا في انكار فضل الأجنبي عليها اي ، فيما يعنينا ، فضل الاغريق الجلي المباشر .

قد تقضي بنا معرفة الاتروسك والشعوب الايطالية معرفة اكمل الى اطالة لائحة اقتباسات روما القديمة عنهم . ولكن هذه اللائحة حتى تاريخه موجزة جداً . فليس من ينكر اليوم بان روما مدينة بايجديتها للاتروسك الذين استمدوها من اغريق « كوم » على الارجح . اما عن الشعوب الايطالية فقد اقتبست في عهد مبكر ، لاغانيتها البطولية الشفوية التي كانت تتلى في الجنائز والمآدب ، الشعر « الساتورني » المتميز بوزن تتخلله المقاطع القصيرة والطويلة . وقد احتفلت معهم باعياد شعبية يطلق فيها العنان للتكرار الهجري وللقدح الهازل ؛ ثم اعتمدت رسمياً ، في السنة ٣٣٤ ، الألعاب المسرحية على الطريقة الاتروسكية التي اشترك فيها الراقصون والممثلون الهزليون المحترفون ، فادخل ذلك بعض التنظيم على هذه الاعياد ، ولكن المسرح اللاتيني ، حين قام واقتفى اثر المسرح اليوناني ، قد حافظ على بعض هذه الغرائب .

اما ما تبقى فيغلب ان الاغريق مصدره المباشر منذ ذلك الحين حتى اواخر القرن الرابع . ولا يتردد البعض في هذا الاعتقاد .

تضعنا الشريعة التي حفرت ، في أواسط القرن الخامس ، على « اثني عشر لوحة » من الشبه ، امام مسائل كثيرة . فهي اجلّ أثر من آثار الادب القومي ، وقد استغمد نصها زمناً طويلاً لتدريس التلامذة . ونحن لا نعرفها إلا عن طريق استشهادات مجزأة لا يتيسر جمعها وفاقاً لترتيبها الاصلي بصورة أكيدة . اصف الى ذلك عقم البحث فيها عن نظام قانوني حقيقي : فهي قد وفّرت سلسلة من القواعد المختلفة المصادر التي يعود بعضها الى ماض جافٍ وينم بعضها الآخر عن أفكار أكثر انسانية . واذا ما صدقنا التقليد ، فقد استازم تحضير تحريرها ارسال مفوضين يستفسرون في البلاد اليونانية ، حتى ائتنا ، عن شرائع صولون . بيد ان الرومان يتباهون

باطراء تفوق القانون المدني الذي حدّده على قانون أية مدينة يونانية . ولكن قيمة هذا التقليد وهذا الحكم موضوع نقاش بين المعاصرين . وتقوم أهمية هذه الشريعة التي لا نزاع فيها في انها حددت ونشرت للمرة الاولى قانوناً واحداً لكافة المواطنين . فاذا كان جلياً ان الرومان قد استوحوا في عملهم هذا المثل الذي أعطاه الاغريق منذ زمن بعيد ، فان هذا التأثير سياسي واجتماعي لا فكري .

هل يجدر بنا ان نذهب الى ابعد من ذلك بصدد ابيوس كلوديوس « الاعمى » قاضي الاحصاء العظيم في السنة ٣١٢ ؟ فهو قد تقدم الرومان النبلاء المولعين بالاسنية فطبق اليجدية على العلم اللاتيني في تركيب الاصوات . لم يكن حرف C الأصم كافياً لهذا العلم ، فأوجد من ثم ، - ولكن الرومان لم يتخلوا عن عادة كتابة « Caius » الذي يلفظ *Gaius* - الحرف G وأحله محلاً أصبح شاغراً بعد إقصاء الحرف Z النافل . وكرّس زوال الحرف S بين حرفي علة وابداله بالحرف R : ف « *Fusius* » مثلاً أصبح « *Furius* » . وقد تقدم أيضاً ، على ما نعلم ، سلسلة نبلاء الرومان الذين افتخروا بالكتابة المفيدة ، في مواضيع عملية ، فألف بحثاً قانونياً ومجموعة حكم اخلاقية منظومة . وقد رأى بعض القدماء أنفسهم ، في هذه الحكم ، أثر حكم بيناغوروس الذي ما زال مذهبه منتشرراً في اليونان الكبرى والذي تجعل منه الاسطورة معلّم الملك روما . ولكن التنف القليلة جداً التي بلغت الينا من مؤلفاته لا تسمح لنا بالفصل في ما دان به هذا المجدّد للحضارة الهلينية .

غير ان بعض الشيوخ الرومانيين ، منذ هذا العهد ، قد تكلموا اللغة بسرعة انتشار اللغتين مما اليونانية . ولكنهم كانوا عادمي الحذاقة فيها : ففي السنة ٢٨١ استقبل احد الموفدين الرومانيين بسخرية سامعه حين خاطب سكان طارنتا بلقتهم . ويدل ذلك ، فيما يدل ، على ان المجتمع الراقي ، الذي يغلب انه امتلك عبيداً يونانيين او مستغرقين واستخدمهم « مريين » ، قد شعر بحاجة الى « لغة ثقافة حين لم يجد في التراث القومي ما يرضي بعض الاذواق » . وما لبث فتح ايطاليا الجنوبية ، ثم فتح صقليا بفضل الحرب البونيقية الاولى ، ان زادا سرعة هذه الحركة .

ارتفع عدد العبيد الاجانب ارتفاعاً عظيماً . وأتى رجال أحرار وأقاموا في روما وفتحوا ، على غرار المعتقين مدارس علموا تلامذتهم فيها اللغتين اللاتينية واليونانية في آن واحد . فتمين اذ ذلك ، لغرون عديدة ، استخدام اللغتين على كافة العائلات التي فرضت على أبنائها متابعة دروس لا تقف عند حد الدروس الابتدائية . وما كان هذا المثل الأعلى ليبقى اضغاث احلام ، وليس نجاحه الشامل في حقل التربية اقل ما يدعو الى الدهشة في تاريخ روما الثقافي .

منذ اواخر القرن الثالث واول القرن الثاني أصبح باستطاعة بعض الرومان المريقين ان يضعوا باللغة اليونانية مؤلفات هامة . فان موفد مجلس الشيوخ الى دلفي بعد معركة « كانا » ،

ك . فابوس بيكتور ، قد كتب باليونانية « اعمال الرومان » ، وحذا حذوه احد معاصريه : ويبدو ان ما دفعها الى ذلك ليس حرصها على تأدية الاكرام الواجب لمهارة المؤرخين اليونانيين التي ما كانت اللغة اللاتينية لتسمح لها ببلوغها ، بقدر رغبتها في تعريف الاغريق بماضي مدينة اخذت عظمتها في الامتداد الى عالمهم . ولم ينتظر كاتون نفسه سن الشيخوخة ، على الرغم مما جاء في تقليد معين ، حتى يتعلم لغة شعب بدا له المحطاطه داءً سارياً : فقد كان في الخامسة والعشرين حين أتاحت له مصادفات الحرب البونيقية الثانية وبطاقات السكن ان يتلقى دروساً في البيثاغورية في طارتنا ، واذا هو اسم استخدم ترجماناً خلال جولته الدبلوماسية في اليونان ، فقد تظاهر بالجهل ، كما يوضح بلوتارك ، بدافع من العنصرية القومية ، وفي العقد الاول من القرن الثاني بدا بطل « سينوسيفال » ، تيتوس كوينكتيوس فلامينيوس ، للاغريق كواحد منهم يحادثهم ويداعبهم : وقد حررت ونقشت باليونانية كتابة اهداء التمثال الذي نصب له في روما . وقد نشر والد الاخوين غراكوس خطاباً ألقاه في رودوس باليونانية : وما يثير الدهشة عدد المفردات اليونانية التي يستعملها حتى الكتاب الذين يوجهون كلامهم لحشد شعبي « كبلوت » مثلاً - وهذا يكفي لاستبعاد المقارنة بينه وبين رولسار - مقتصرين على انهاؤها وفقاً للطريقة اللاتينية : ومن حيث ان عامة الشعب المدنية هي في الاصل مختلفة الاجناس وتشترك بفضل حركة المرفأ التجارية ، في حياة اعظم اتساعاً ، فانها قد احتكت باليونانية على الاقل في اختلاطها اليومي بالعبيد والمعتقين .

ولكن غزو اللغة هذا ، من حيث هو رافق في الزمان نقل روائع الفن شعراء العظمة الرومانية الأولون اليوناني بالجملة الى روما ، قد أسفر عن نتائج مختلفة جداً . فبدلاً من ان ينجم عنه استسلام قاتر ، رافقه مجهود واع لتزويد روما بشعر لاتيني . بدا الادب أبسط بوادر النشاط الفكري ، لأن اللغة واقع راهن ، ولأنه في متناول الجميع . وقد وفر الشعر ما لم يحسن توفيره النثر المخصص للحاجات التقنية التي لا شأن للفن فيها ، أي شكل التعبير ، وهو أكثر اغراء ، بفضل روابطه بالموسيقى ، وأكثر انطباقاً على حاجات الحياة الدينية والجماعية ، بفضل تسهيلاته التذكيرية . وقد نهض بهذا المجهود الاختياري المتواصل أسمى النبلاء اعتباراً بالاتفاق مع الاجهزة الرسمية . فطلب مجلس الشيوخ قصائد تناسب الطرف خلال الحرب البونيقية الثانية ؛ وشجع التمثيليات المسرحية بمضاعفة الالعب وزيادة محصاتها ؛ واجاز إنشاء هيئة من الممثلين والمؤلفين تجتمع في احد المعابد . قلما احرزت هذه المشاريع نجاحاً تاماً ، ولكن يجدر بنا حقاً ألا نستعزى بالنتائج .

لم يكن المؤلفون الاولون من اصل روماني . انتسب باعث الحركة ليفيوس اندرونيكوس ( Livius Andronicus ) الى طارتنا التي جعل منه احتلالها عبداً - في الثامنة من عمره اذا كان المقصود حادثة السنة ٢٨٢ . أصبح مريباً في عائلة من قبيلة ( ليفيا ) الكبرى وأعتق منذ السنة

٢٤٠ كما بعد حدث حين أخرج أولى مسرحياته « القانونية » أي المنطوية على مغزى متواصل . وجاء الآخرون ، وهم من الأحرار ، من إيطاليا الجنوبية حيث استساغت الحضارة اليونانية ، منذ امد بعيد ، طبقات بلدية كبيرة . اما نافيوس ، وهو مواطن اشترك في الحرب البونيقية الأولى ، فكان كيبانياً ، وان مطالبته بحرية القول التامة وجرأته في انتقاد العائلات الكبرى التي أدت به الى السجن ، وربما الى الموت في المنفى ، لا يفسرها تشاغخه بمواطنيته الرومانية فحسب : اذ اننا نلمس فيها صدى الفردية اليونانية المتأججة . اما اينيوس الكالابري اخيراً فكان جندياً « حليفاً » في اواخر حرب هنيبعل حين اختاره كاتون وأحضره الى روما حيث حماه شيوخ نافدون : ضمه احدهم الى حاشيته خلال حملة في اليونان واستحصل له ابنه على حق المواطنة . ففتح ، على غرار ليفيوس ، مدرسة يونانية - لاتينية في روما . يتضح من ثم ان الحضارة اليونانية انما اثرت في نشوء الادب اللاتيني عن طريق رجال طبعتهم الى حد بعيد بطابعها الخاص .

أبدى هؤلاء الرجال نشاطاً واسعاً جداً بغية تحقيق نتائج متميز في كل الحقول . فألف كل من الثلاثة في مواضيع شتى : المآسي والمهازل والملاحم وقصائد المناسبات ، لا بل ان اينيوس قد وضع بعض الابحاث الفلسفية . وقد توجب عليهم النسخ على منوال الاغريق الذين غالباً ما اقتصروا على تقليدهم ، لا بل على النقل عنهم كما فعل ليفيوس اندرونيكوس بصدد الاوديسة ( *Odyssée* ) . واستوحوا التمثيليات اليونانية ، فاختراروا لمآسيهم احداثاً ميثولوجية عاجلها أوريبيد من قبل ، او أي مؤلف يوناني سواء ، وجمعوا احياناً مهزتين يونانيتين في مهزلة واحدة وفاقاً للطريقة المعروفة « بالإعداد » . ولم يتردد نافيوس احياناً في إلباس بعض مهازله اسماء يونانية صرفة : اكونتيزومينوس *Akontizoménos* « الرجل المصاب بالنبله » ( أو كولاكس ( *Kolax* ) « المتملق » ) . ولم يتراجع اينيوس ، الذي أهمل الوزن « الساتورني » الملل واعتمد وزناً دونه مقاطع قلّده به وزن الشعر اليوناني ، أمام قصيدة تعليمية ، ورد فيها ان هذه او تلك من الأسماك أو من الأصداف ، لا قيمة لها إلا اذا كان مصدرها هذه او تلك من المدن اليونانية .

مهما يكن من علاقة هؤلاء الشعراء بالحضارة اليونانية ، فإنهم على الرغم من ذلك اعطوا الشعر اللاتيني استقلاله . واينيوس هو الوحيد بينهم الذي وصل الينا منه أكثر من تتف حقيرة : ٦٠٠ بيت شعر من ملحمة بلغت أبياتها ٣٠٠٠ . وهو لا يزال فيها متنصعاً ومتلبكاً على الرغم من تقدمه الملموس بالنسبة لسابقه . فقد كتب : « لم يهتم أحد من قبلي لفن اتقان الكلام » . ولكنه ، على ما يبدو ، افرط في هذا الاهتمام ، بينما هو ما كان ليستطيع الاعتماد على لغة مرنة وذوق سليم . لذلك فقد برهنوا كلهم عن تردد وخشونة وصبوة . ولكنهم كلهم كانوا عند حسن ظن الارستوقراطية الحاكمة التي ما كانت لترضى بأن يبقى وطنها خالياً من الاناقة الضرورية . فعرفوا كيف ينشئون مسرحاً رومانياً ، حافظ ، على الرغم من اقتباساته عن المسرح اليوناني ،

على بعض التقاليد الإيطالية التي كانت من جهة ثانية قد اثرت في المسرح في اليونان الكبرى وصقليا . وحاولوا بنوع خاص معالجة المواضيع القومية . ويبدو ان الأوديسة نفسها التي نقلها ليفيوس اندرونيكوس - منملا الألياذة - قد اختيرت عن قصد لأنها تأتي بأوليس ( Ulysse ) الى إيطاليا ، وتوحي بأنها ملحمة ادرياتيكية لا إيحيية . وازداد بروز الناحية القومية في مؤلفات نافيوس . فقد دعيت إحدى مآسيه « رومولوس » ؛ وكان موضوع ' مأساة أخرى اسمها كلاستيديوم ، النصر الذي أحرزه الجيش الروماني ؛ في جوار هذه المدينة ، على الغالين ، حين أقدم القنصل م . كلوديوس مرستوس ، في السنة ٢٢٢ ، على قتل الملك ( فيردومار ) بنفسه . أما ملحمة ففيه « الحرب البونيقية » التي تنطلق من « اينه » و« ديدون » ، قبل ان تصل الى قصة الحرب الأولى ضد قرطاجة بما فيها المعاهدة النهائية التي وضع نصها شعراً . أما اينيوس فقد عالج مؤلفه العظيم « الحوليات » ( Annules ) بمجمل تاريخ روما بنفس ملحمة حقيقي أحياناً ، أقله في القسم الأول الذي ينتهي بهزيمة هنيبعل ، بينما يتناول القسم الثاني ، على مر السنين ، الاحداث التي عاصرتها .

وهكذا ، خلال ثلاثة ارباع القرن تقريباً ، اي من السنة ٢٤٠ حين اخرج ليفيوس اندرونيكوس مأساته الأولى ، الى السنة ١٦٩ حين توفي اينيوس ، كان مجهود المسؤولين المتأثرين بجمال الادب اليوناني آخذاً باعطاء ثماره : أفرغ الفكر الروماني الفخور بماضيه وبتميزه في قوالب لا يمكن ان تقتبس الا عن اليونان لانه لا يمكن تصور قوالب اعظم كالأ .

بلوت خلال العهد نفسه برز شعراء آخرون ، ولكن شاعراً واحداً هو في نظرنا اكثر من *Plaute* مجرد اسم : بلوت ، الذي ولد ومات قبل اينيوس بخمسة عشر سنة تقريباً والذي يجب ان ندرسه على حدة لانه يختلف كل الاختلاف عن السابقين .

نحن هنا امام ايطالي من شمالي روما ينحدر من اصل شعبي على الأرجح ويمارس اكثر من مهنة قبل ان يتعاطى المسرح ويتعلم اليونانية اتفاقاً ، كما سمحت له حياته المضطربة بذلك في الأرجح : الآخرون احرار في التفكير بارضاء وثقيف جمهور راق . اما هو فلا اعتبار عنده الا للجماهير التي يعرف لغتها وآراءها السائدة وجهلها للدقة العاطفية وغبطها الفطرية الزاخرة في ايام الاعياد . فهي الجماهير التي اخذ على نفسه اضحاكها معترفاً دون خجل بان المال الذي يدفعه له ملتزم المشاهد يؤمن بحياته المادية . ولكنه ، بفعل قربه اليها ، يسر باطلاق العنان لقرينته الشخصية . ولذلك فالواعظ ليست قسمته ، واذا برز وطنياً يحترق الاغريق راضياً ، فبدون غطرسة وادعاء وجفاء وتذمر ، بل اقتناعاً منه بواقع تفوق جلي تثبتته الانتصارات المتكررة : لا تشغله قط ايهات ماضي روما ولا هموم المستقبل ايضاً . وليس في مؤلفاته ملحمة او مأساة . ولا يريد ان يكون سوى شاعر هزلي ، مع انه طرق المأساة - المهزلة مرة واحدة في موضوع مقتبس عن الاسطورة ، امفيتريون *Amphitruon* .

قبل ذلك بقرن، طرق سيراكوزي الموضوع نفسه بالطريقة نفسها : لذلك فبلوت لم يكن مجدداً. وهذه هي حاله في تمثيلاته الأخرى ، التي بلغت النسا باتفاق هو أشبه بالمعجزة : فمن أصل الاحدى والعشرين تمثيلية التي اعتبرها فارون أصلية في عهد قيصر ، وصلنا عشرون تمثيلية كاملة وتنت من الحادية والعشرين . لا ريب في انه لم يضع النماذج الجديدة ؛ ولكن يجب الا نأسف لذلك حتى تتمكن من الحكم على بلوت : فهو يتباهى بالانتحال رغبة منه في ارضاء مشاهدين شغيفين بالتمثيلات التي لا يعرفونها الا بما ذاع عن مرحها ، ونحن نعم من جهة ثانية انه لا يحجم عن التركيب والتشويه كما يطيب له ذلك . وتسيطر الركافة أيضاً على عقدة مهزله التي هي في نظره مجرد لحمه ينسج عليها المشاهد التي تعجبه . واذا كانت افضل « مهزلة جديدة » هلينية قد نوعت درس الامثلة البشرية والسجايا والمواطنف ، فان بلوت لا يحفل لهذا الدرس ايضاً . وليس ابطال تمثيلاته سوى دمي متحركة او ادوار مكروسة : شيخ قاس او حليم ، شاب مبذر ، فتاة ذات جاذب ، عبد محتال ، تاجر عبيد وقع وطفيلي ، جندي مجيد ، الخ . الحياة مفقودة فيها ، والناحية الهزلية صناعية مبتدلة . ولكن الضحك الجديد ينفجر من المواقف التي تبتكرها وتنوعها مخيلة لا تعرف الملل يجموح طليق من كل رادع لا يخشى التحكم ويثق بتوفير التسلية بالتسلي، فيكثر من المفاجآت والالتباسات والحركات والسورات في المهزلة . وينفجر كذلك من الكلمات وتصادم الاجوبة البديهية السريمة والدعايات والشراسات الكلامية التي تستخدم مفردات لا ينضب لها معين بفضل الاقتباسات المختلفة والمشتقات المضحكة المستنبطة . ويوفر التحريف اخيراً قسماً هاماً - بينما يسحر القسم الآخر بلعمان شعره - من القطع الغنائية المنشدة ، الغزيرة جداً اذ انها تشغل ثلثي التمثيلية احياناً ، التي تمثل تراث المسرح الايطالي .

وهكذا فان بلوت ، على غرار شعراء عصره ، يفرغ في قوالب يونانية مادة رومانية ، ولكنها مادة من طينة أخرى : لا العظمة الارستوقراطية التي تريد ان تسمو بالنفوس حتى تتفوق على نفسها ، بل المرح الشعبي الذي يحميه نسغ التربة القادر . ومن المؤسف ان ينتهي الاتحاد المادي والاخلاقي في عامة الشعب المدنية والاهتمام لكرامة رسمية الى وضع حد ، بعد ذلك ، لهذا الانفجار الطليق المستعذب .

## ٢ - مقاومة الحضارة اليونانية وانتصارها

ان كاتون نفسه لا يجسد مثل هذه الحركة إلا بصورة جزئية ، زائلة ،  
 كاتون والصراع  
 ضد الحضارة اليونانية  
 وغير حاسمة على كل حال . اجل يجب ان يحسب حساب لبلاغته حيث لا  
 يعوز حجة المعنى ، في المبنى ، لا الافتتان ولا الجرأة : عشرون سنة فقط  
 تفصل ولادته عن ولادة بلوت ، واننا لنجد في بعض نبرات قريحته الساخرة « الرجل الجديد »  
 المنعدر من طبقة الفلاحين ، ان لم يكن من طبقة الكادحين . ولكن التبدل الحاصل تبدل في

الفكر المتصلب تصلباً يائساً في صراعه دفاعاً عن مفهوم قديم - لا بل ضيق - للحضارة الرومانية والحضارة الإيطالية في الوقت الذي برز امامها المزيد من الامكانيات لكي تطلا على بشرية ارحب .

ان هذا الانسان يفضل الدور الذي يريد ان يلعبه : ولا تتوصل خشونته المصطنعة الى اخفاء ثقافته . ووراء دوره الاجتماعي وقيمه كمثل اجتماعي الذين اضطررنا للامحاط اليها اكثر من مرة ، يجدر بنا ان لا نصغره لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد الأدبي . وليس كونه اقدم ناثراً لاتيبي وصلت اليها بعض آثاره ما يسترعي الاهتمام فيه ، ولا يمكن من جهة ثانية ان يكون الاهتمام له من هذه الزاوية الا نتيجة مقارنته بمن سبقوه ، وهذا امر مستحيل . ولكن غرابته عظيمة ومؤلفاته اعظم . حرص على الديمومة بشهرته وعمله وعرف ان المناقشات السياسية لا تؤمنها ، فصمم على الكتابة وكتب ونشر دون كلل . ليس من لون ذي شأن الا وطرقه : خطب وادب وتاريخ وحكم وقانون وفن عسكري واقتصاد ريفي . وقد جدد معالم هذه الالوان احياناً ، كما فعل في التاريخ الذي طارد فيه غطرسة الاشراف حتى انه لم يذكر في « الاصول » اسماً علماً غير اسم احد قبيلة بيروس ، والذي وسع آفاق دراسته فتخطى روما الى ماضي المدن الإيطالية . والشعر في نظره تبدل ؛ ولكنه اكتشف اينيوس ، ولم ينتقد الا في عهد متأخر جداً ، الحماية ، النفعية في نظره ، التي احاطت بها نبلاء يكرههم . وقد استسلم عند الحاجة الى الصنعة الفنية ولكنه حاول اخفاءها جهد المستطاع . وهو قد آثر في كل ذلك الظاهر الحش على الواقع .

ولكن انى لنا ان ننسى انه يوجه الى الفكر الاجنبي ، اي اليوناني ، تهما واحقاداً تعميه « فهو لم يرض سوى مرة واحدة بالتمييز بين الاطلاع المفيد على ادب الاغريق الذي قد ينطوي على اشياء ممتازة وبين درسه المتعمق المضر . امطر بلواذعه الشنيعة كافة امجادهم : سقراطهم ، الفصيح الثرثار الفاسد ؛ وايزقراطم ، التافه ؛ واطباؤهم السفاحون المهلفون لتقتيل جميع « البرابرة » ، الذين لم تعوزهم الحيلة لايجاد الثقة في حمل المرضى على دفع اجورهم . ان في مثل هذه المبالغات مثاراً للقلق في كل نفس .

كان النجاح حليف الحركة التي جسدها ، في فترات قصيرة ، ضد الفلاسفة وعلماء البيان الذين يلغون دروساً غمومية ، ولا سيما ضد الابيقوريين ، الذين تمنى احدهم ، فابريكيوس - فابريكيوس روسو - منذ اوائل القرن الثالث ، لو ان مذهب « اللذة » يستهوي اعداء روما دون غيرهم : في السنة ١٧٣ اقصي اثنان من ممثلي هذه الطائفة . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اتخذ تدبير مماثل بحق جميع الباقيين بتهمة تعليم مبادئ نظرية وعملية تسيء الى المبادئ الاخلاقية التي يرتكز اليها بناء الدولة . ولكن جاء غيرهم ، حتى من برغاموس واثنينا احياناً ، بصفة موفدين : فاستفادوا من الانتظار الذي يفرض عليهم والقوا المحاضرات . ويعود اشهر حادث

من هذا النوع الى السنة ١٥٥ حين اوفد الاثينيون ، على جناح السرعة ، الى مجلس الشيوخ ، رؤساء المدارس الفلسفية الثلاث الرئيسية ، الرواق والكلية والأكاديمية . فكان ان يمثل هذه الاخيرة بنوع خاص ، وهو كرنياذ ، قد سحر مستمعيه بالرشاقة الجريئة التي اتصف بها جدله غير الحافل بالأراء السائدة والقادر على الدفاع ، على التوالي ، عن نظريات متناقضة . حينذاك استصرخ كثون الناس على الفضيحة وحث مجلس الشيوخ على الفصل سريعاً في القضية الدبلوماسية ، « حتى يعود الموفدون الى مدارسهم ويناقشوا ابناء الاغريق ، وحتى يخضع ابناء الرومان ، كما في الماضي ، للشرائع والقضاة » . يتضح من ذلك وجه الخلاف : ترويض الفكر الفردي ويقيظة الروح النقدية هنا وقبول الانظمة التقليدية ككل وكعقيدة هنالك . وهو لا يختلف في الحقيقة عن المسألة التي أثارها في وجه الاغريق ، في القرن الخامس ، تعليم السفستيين . وهي مسألة حاضرة ابدأً يجب عليها كل منا على طريقته الخاصة . ولكن هل يحق لأولئك الذين ترفعهم هذه الأنظمة الى السلطة وتثبتهم فيها ان يفصلوا في هذه المسألة باسم المواطنين ؟ ومن يجرؤ على الجزم بان رومان ذلك العهد قد بلغوا التقدم الذي يتيح لهم طرح هذه المسألة على انفسهم ؟

ندوات الثقافة اليونانية  
في القرن الثاني

غير ان النظام المجلسي اعجز من ان يقدم على تنظيم حياة المواطنين الخاصة ، اذ ان من توفرت لديهم الوسائل المادية كانوا مطلقي الحرية في السعي وراء كل اناقة فكرية . فقد راجت رواجاً لم يسبقه نظير سوق « المهذبين » اليونانيين ، واخذ اوسع النبلاء نفوذاً ، من تفرض عليهم وظائفهم الاسفار المتكررة الى الشرق والاقامة فيه ، يستميلون رجال الفكر من الاغريق ويستقبلونهم في منازلهم الرومانية استقبالاً ودياً ضنوا به على الفنانين الذين لم يميزوا بينهم وبين الصناعيين تمييزاً واضحاً .

تألفت من ثم عدة ندوات للثقافة اليونانية في الارجح . فكان هنالك ندوة في كنف الاخوين غراكوس ، وليس اقل ما يميزها الدور الذي لعبته فيها امرأة ، هي والدتها كورنيليا ، الراغبة في ان تؤمن لابنيها ، بعد ان اصبحت مسؤولة عنهما بفعل إرماها المبكر ، خير تربية وتفتح صفات الرجولة فيها . فبرزت ردة فعل محافظة عنيفة ضد بعض الاغريق ممن نسب لهم اعداؤهم تأثيراً مشؤوماً : فاعدم احد علماء البيان وطيباريوس وابعد فيلسوف رواقى .

وتلبننا المصادر القديمة ، لا سيما بوليب وشيشرون ، بوجود ما اتفق على تسميته بـ « ندوة شيبون اميليانوس » . احاط والد هذا الاخير ، بولس - اميلوس ، طفولته وقتوته بعملين يونانيين وكتب يونانية ، ولم يحتفظ لنفسه من المغانم التي اسقطها في يديه القضاء على الملكية المقدونية ، سوى بكتابة الملك « برسيه » بغية اهدائها لابنائه . وبعد مرور سنوات عدة ، صادق الشاب بوليب الذي كان قد نفى الى ايطاليا وابقى فيها سبعة عشر سنة مع غيره من الآخين . وعاش معه حياة حيمة كانت جزيلة النفع لكليهما ؛ فدان بوليب له بسهولة الانتقال وسهولة

الاستطلاع اللتين اتاحتها له تصميم وتحرير «تواريخه» ، بينما استفاد شيبون من خبرة صديقه العسكرية ومن ثقافته الفلسفية . وبعد ذلك بزمن استقبل الفيلسوف باناييتيوس الرودسي ، مجدد الرواقية ، بدوره ، في بطانة ذلك الذي سينتصر على قرطاجة ونومانس . وقد اشترك في احاديثها رومانيون عديدون ، اقارب واصدقاء ينتسبون الى العائلات الكبرى ، ممن يتدرجون في « سلم الاجماد » . وكي لا نحصيهم كلهم نقصر على ذكر كابوس لاليوس وسبوروس موميوس - سبق لنا وتكلمنا عن اخيه - الذي يكفي وجوده في هذه الجمعية لالقاء الشبهة على سمعة الفظاظ التي الصقت بهادم كورنثوس . هؤلاء الرومان هم الذين يطيب لشيبون نسبة الحوار اليهم في مؤلفاته الفلسفية ، واذا هو لم يهتم ، في ما يعيننا ، للأمانة في التاريخ ، فانه يعيد امام اعيننا جواً واقعياً لثقافة رفيعة ورقيقة . اصف الى ذلك ان هذه الندوة قد نادت الى حد بعيد بمبدأ الاختيارية الاجتماعية وبسطت حمايتها على احد المعتقين ، هو الشاعر تيرنس ، فانتشرت شائعات - لتتذكر هنا النظريات العصرية الماثلة في موضوع شكسبير - عزت الى شيبون ولاليوس ابوة مهالزه : ترهات لا قيمة لها لعمرى ، ولكنها قد تكون مستوحاة من بعض النصائح المعطاة في اطار ضيق .

ينتشر حتى اليوم سحر اخاذ من مثل هذه الندوات التي يجتمع فيها عظماء هذا العالم تسهلاً لاحتكاك الآراء وبجئاً عن بهجات الفكر . ولكن يجب ان لا نتجاهل خطرها الذي تعرضت له الارستوقراطية الرومانية في القرن الثاني لاسيا وان الثقافة التي تهلل لها ثقافة اجنبية . فخطرها كامن في التنكر لميزة الخلق القومي والانقطاع عن القوى التي تنمش الشعب وتفجر فيه حياة خالصة طبيعية دائمة الجدة . اضر التصدع بالشعب لانه حرمه من عضد فكري كان على النخبة ان تؤمنه له . وقد اضر بالنخبة ايضاً لانه قاده الى البرودة والكلفة .

ان هذه الندوات لم تبلغ هذه المرحلة بعد ، أو ان المصادر لا تقدم الدلائل أدب الثقافة اليونانية الواضحة على ذلك . ولكن الادب اللاتيني ، على أي حال ، لم يفِ آنذاك بالعود التي قطعها في اوائل القرن الثاني .

كان من بعض نبلاء الرومان ، كبولس كورنيليوس شيبون ، ابن الافريقي . ووالد اميليانوس بالتبني ، ان ذهبوا بالمغالطة ، الى الكتابة باليونانية . فوضعوا بنوع خاص كتباً تاريخية و « حوليات » ، وكان فابيوس بيكتور أول من أعطى المثل . ولكن السبب الذي دفعه الى ذلك قد زال منذ زمن بعيد ، وكان الظرف مؤاتياً لقرينة كاتون التي لا ترحم ، فتار على واحد منهم لم يكتف بمثل هذا المقصد الغريب ، بل شعر بحاجة لطلب المعذرة عن خرقه ؛ فقد بلغ من هؤلاء الرومان انهم اعتقدوا بأن التاريخ الذي ابتكره الاغريق وأشهره لا يمكن ان يكتب إلا بلغتهم : لم يعتبروا ان النثر اللاتيني قد بلغ النضج اللازم ، ولم يتقوا ، في سرد الاحداث الرومانية ، إلا بمرونة الأداة التي استخدمها معلمون أثاروا اعجابهم .

بيد ان بعض مؤرخي الحوليات ، قد كتبوا ، منذ هذا العهد ، باللاتينية ، وبديهي ان هذه اللغة كانت لغة الخطباء . فقد جمعت ونشرت خطب عديدة سعياً وراء الشهرة الأدبية والدعاوة ، لا سيما منذ الأخوين غراكوس اللذين وسع عملهما حقل المنازعات السياسية وزاد في حدتها . لم يصل إلينا أي نص كامل ، ولا نستطيع ابداء رأينا في هذه البلاغة إلا بما نقل عنها فقط أو ببعض مقتطعات ، أهمها ما بلغ إلينا من كلاوس غراكوس . تبدو فيها البلاغة ، على الطريقة اليونانية ، على شيء من تحريك النفس المصطنع والغليظ . ولكن طيباريوس غراكوس ، على الرغم من الحرارة التي تجيش فيه ، قد أدرك قيمة صحة اللغة والاعتدال كما أدرك أخوه ، المتفوق عليه تأثيراً ، قيمة الإيقاع . وهكذا نشأت الفصاحة اللاتينية كعلم وفن ، بفقدان بعض بدايتها ونضارتها .

لم يقضِ تقدم النثر على تفوق الشعر . حاد هذا الأخير عن الملحمة وانكسب على المسرح بنوع خاص . وما فتئ ازدياد الألعاب يحمل على طلبٍ عظيمٍ جداً على الرغم من إعادة التمثيلات مراراً ، فكانت النتيجة تناجاً وافرأ في المآسي والمهازل . وهنا خصوصاً ، يبرز تبار الثقافة اليونانية بقوة .

أعار النقاد القدماء ، شعراء المآسي اهتماماً كبيراً آنذاك . أما نحن فلا نعرفهم إلا بالمقتطعات التي وصلت إلينا منهم ، ونرى خصوصاً انهم ولعوا بسعة الاطلاع وبالكلاسيكية الصافية ، فتوجهوا آنذاك الى سوفوكليس واسشيل مفضلينها على أوريبيد . وعلى نقيض ذلك ، فقد بلغت إلينا المهازل الست الوحيدة التي ألّفها تيرنس العبد الافريقي المعتق — من أصل قرطاجي لا نوميدي على الأرجح — الذي أدركته المنية قبل سن الثلاثين : فهي تنطوي على صفات وسيئات الالهام المراقب وتمّ عن اتصال حصري بالأدب الأجنبي .

ولد تيرنس حين توفي بلوت . وبين هذا وذاك عالم حضارة منظمة وموسّعة ومصعّدة . فعلى غرار بلوت ، اقتبس تيرنس عن المهزلة الجديدة الهلينية ، لا سيما عن ميناندر وسالترين على خطاه ، مواضيع تمثلياته التي احتفظ بأسمائها . ولكنه ، شأن الذين نقل عنهم ، يتفوق الى تصور عقدة محكمة متماسكة . يعرض عن المشاهد التحكيمية والفواصل الموسيقية . فينتقل من المداعبة الى المهزلة التي تسيطر الوحده على مختلف مشاهدتها . واذا ما حافظ على أمثلة الأبطال التقليديين ، فانه يعرف كيف ينوعها ، وقد ينجح في طبعها بطابع يميز أحياناً اذا أحسن فحص الطبع . ويتفق التحليل السيكولوجي ، الدقيق والمؤثر ، عند الشعراء اليونانيين ، ونزعاته الخاصة : فهو يعتمده ويتوسع فيه ويدخل عليه مفارقات قد تكون شخصية . فهل يعني ذلك انه يتسامى فوق ما تسامى اليه بلوت من حقيقة ؟ نعم ، اذا كان المقصود حقيقة عامة أو مجردة ، اذا صح التعبير . اما اذا كان المقصود حقيقة رومانبة فيختلف الأمر . يعوزه فتنة المشاهدة بأم العين : وهو لا يدعي ذلك على كل حال ، اذ ان روايته تدور فصولها في البلدان

اليونانية التي رآها للمرة الاولى حين توفي فيها . أما بصدد مراقبة الاخلاق ، فان اتجاه تفكيره يحمله على ان يرى التفاهة بدلاً من حمله على الاستشاطاة غيظاً . ان فهمه اوسع من ان لا يعذر ويفضي . وأفضل ما يصفه جملة يضيّق النص صداها ولكن طاب للقدماء ان يوردوها مفصولة عن النص ويجعلوها بمثابة مجاهرة بعقيدة ايمانية : « أنا انسان ولا شيء في نظري ، مما هو بشري ، بغريب عني » .

كثير من الاناقة اذن : وربما مزيد من الاناقة المفرطة في الارستوقراطية ، مع مزيد من الدقة والفكر الواعين . ولا تلاحظ هذه الرقة إلا عند القراءة ، اذ ان وحدة المنوال ، على المسرح ، تخفيها . فلا عجب من ثم اذا تذوقت الجماهير الرومانية هذه الميزة ، بينما هي طالبة ضحك ، دونما اهتمام للنوع . فان « الحماة » ( *L' Hécyre* ) قد أدخلت المسرح مرتين قبل ان تحظى بالصفاء حتى النهاية : في المرة الاولى اعلن عن مصارعة ورقص على الجبال ، وفي المرة الثانية عن معركة بين مسافين . هذه اما ليح ، حقاً ، ولكنها ستؤدي الى نتيجة لأن لها مغزاها . فالمسرح الروماني سيزول منذ اواخر القرن الثاني وستخلفه كل المشاهد الاخرى : أفليس مرّد ذلك الى انه لم يعرف كيف يسمو بولئك الذين اسندت اليه مهمة التوجه اليهم دون ان ينزل هو نفسه الى مستواهم ؟ فالمسرح الاثيني لم يقطع الأشواط بسرعة قبل ان يتوقف مشاهديه .

نشوء الهجاء :  
لم يكتب لوسيليوس للمسرح ؛ ولكنه ، لو فعل ، ربما خدمت صفاته المهزلة . واذا ما انتمى هو ايضاً الى ندوة شيبون اميليانوس ، فانه قد عاش قرابة ثلاثين سنة بعد انقراط عقدها ، ولعل استقلاله البارز ، مع انه يوفق بينه وبين احترامه الفائق لصديقه الشهير ، قد ازداد عزة بفعل هذا الفاصل الزمني . ومهما يكن من الامر ، فبدون قدوات يونانية هذه المرة ، اقله من حيث المبنى ، قد اوجد لوناً جديداً هو الهجاء . وسيقول كوينتيليانوس : « انه روماني بكلية » . وفي الواقع ، اذا لم تكن السخرية وفقاً على شعب واحد ، فان تخصيص القصائد لها امر مميز ويتجلى الخلق القومي في الواقعية الطبيعية والأدبية التي كانت منذ البدء دستور هذه القصائد .

ان تيار الثقافة اليونانية ، الذي يهزأ بعاداته الغريبة المستهجنة ، لا يظهر الا في لغة لوسيليوس . اما ما تبقى فليسيطر عليه قريحة سليمة صادقة ، لا تتردد في ذكر اسماء الاعلام وتبرهن عن قوة عظيمة في وصف الطبائع التي تحيا حياة حسية ، عاكسة عهدها وبيئتها وكيانها الباطن . وهي تمند في إقارة الضحك ، وغالباً ما تزح عن قصد ، وتداعب احياناً . وتتحلى بالاساطير والامثال والنوادر والحوار . ويفوت مؤرخ المجتمع شيء كثير اذا هو لم يتمكن من قراءة كل ما ألفه لوسيليوس ؛ ومؤرخ الادب ايضاً ، اذ ان الادب فنين له ، على الرغم من النقد الذي وجهه اليه هوراتيوس ، بسلسلة طويلة وجميلة من الهجاء الروماني .

### ٣ - تفتح الأدب اللاتيني

انطلاقة القرن الثاني  
يكفي مثل لوسيلوس للدلالة على ان اخذ النخبة بالثقافة اليونانية لم يستنزف  
ينابيع العبقريّة الرومانية . واذا استمر القرن الثاني على جانب من الجذب  
بوجه عام فانه قد حضر ازهرار القرن الاوّل الذي يوافق ، قبل اوغسطس ، اوائل  
الكلاسيكية بأكثر من نصف قرن . فقد ساعد هذا الاستغراق على خلق لغة متينة ومرنة معاً  
لا يشوبها سوى انفصالها عن اللغة الشعبيّة الذي يحول دون التجديدات والزيادات التلقائية .  
ووفر للناسر جملةً جديدةً بان تفرغ في قالب فكره وان تقيس التأثير الذي يريد احداثه . وعلم  
الشاعر بعض اسرار وزن الشعر العلمي . وادخل الشعور على النفوس بان سلخ عنها قسوتها الاوّل  
وبان حثها على تحليل احساساتها ان لم يكن بعد قد حثها على العطف على احساسات النفوس  
الاخرى . وفتح الازهان يجعلها تلج معرفة كدستها حضارة عرفت كيف تعمل  
للانسانية جماء . انتهت قرون التمرين : فالادوات والمواد والطرائق ، كل شيء اصبح  
جاهزاً او كاد يصبح جاهزاً .

فليست ساحات القتال ، من ثم ، الحقل الوحيد الذي تستطيع روما فيه ان تدعي بانها  
ورثة الحضارة اليونانية : فان عدد الرومان الذين يطعمون في متابعة عمل هذه الحضارة يزداد  
باطراد . اما عامة الشعب المدنيّة ، المتروكة وشؤونها ، فقد احتفظت بلامبالاتها ، وبعاداتها  
احياناً . ولكن الاثراء يفضي ، في وطن يتسع يوماً فيوماً ، الى انتشار بورجوازية رافق رقيها  
الثقافي رقيها المادي وايده تأييداً . واذا ما استمر تأليف الندوات ، فهي لم تعد  
تحتكر الشرف الفكري الذي يتسرب الى طبقات اخرى غير ارسوقراطية ويحد فيها  
اتباعاً جدداً متحمسين .

لا شأن للمنازعات التي مزقت روما حينذاك: فهي اقل حدة من تلك التي مزقت العالم  
اليوناني فيما مضى دون شل انطلاقة حضارته . اجل ليس من روماني خليق بهذا الاسم يستطيع  
اهمال الشؤون العامة : فلن يبرز الميل الى الابراج العاجية الا في عهد لاحق . ولكن النشاط  
المفيد للمدينة ( *Negotium* ) لا يتنافى ونشاط الفكر الذي يشرف وقت الفراغ ويبرره . ولد  
الرجال الذين اعطوا روما ، للمرة الاوّل ، الزينة الفكرية التي اعتبرها الجميع ضرورة لمجدها ،  
بعد ان انفجرت الاضطرابات - البكر ، فارون ، في السنة ١١٦ ، واخوانه التوأمان ، سالوستوس  
وكاتولوس ، في السنة ٨٧ - وعاشوا في جو اضطرابات اشد حدة لعب فيها قيصر وشيرون  
اعظم الادوار نشاطاً .

وليس من قبيل المصادفة ، عندما انتهت السلطة الى ايدي حاكم فرد ، ان يندو هذا الاخير ،  
وهو قيصر ، سيد الفكر والادب في عهده وادهى سياسيه وانبع قواده . وليس من قبيل  
المصادفة كذلك ان يستخدم دكتاتوريته لمحاولة نشر ثقافة يبدو له الانسان بدونها وكأنه يخون

الرسالة التي تحددها له مواهبه . فيكفيه ان ينقطع الشخص ، ببعض الجدارة ، الى « الفنون الحرة » في روما لتبرير حصوله على حق المواطنة : انها لمكافأة عادلة للخدمات المؤداة ، وطعم ممتاز لاستمالة الذين قد يكونون قادرين على تأدية مثلها . وكذلك فإنه قد انشأ في ملحقات الفوروم الجديد المكتبة العمومية الاولى في المدينة . فشق بذلك طريقاً لن يتوانى احد من الاباطرة عن السير فيها على خطاه ؛ اجل لقد كان اكثر قناعة من الملوك الهلنيين في عواصمهم واكثر قناعة ايضاً منه في حقل التجميل والفن ، ولكنه نقل الى روما مفهوماً تجهله هو المفهوم الهليني لواجبات الجماعة وواجبات من يجسدها حيال شؤون الفكر .

بقي تفتح روما الفكري متفاوتاً على الرغم من اتساعه . واذا ما ظهرت بعض الجلود العلمي التعويض عنها ، لا بل لم يحاول ذلك في يوم من الأيام .

ان هذا الجلود يلفت الانظار في الحقل العلمي بنوع خاص . فليس في روما من علماء طبيعة ورياضيين . وناقدون جداً اولئك الذين اعاروا علم الفلك اهتمامهم : وليس من الجسارة الافتراض بان الباحثين ، او الابحاث الثلاثة التي روي عن نشرها تقتصر على نقل المؤلفات اليونانية . وقد لجأت روما الى الاقتباسات حتى في التطبيقات العملية . ففي السنة ٢٦٣ وضعت في الفوروم ساعة شمسية ؛ ولكنهم لم يضعوا ساعة اخرى ضبط عليها خطأً الطول والعرض لروما الا في السنة ١٦٤ . واذا سارت روزنمات اخرى كثيرة على الاشهر القمرية ، اسوة بالروزنامة الرومانية ، فقد اتاحت بعض الانظمة القانونية اصلاح اخطائها عن طريق اضافة يوم الى السنة . اما في روما ، فان اقرار الاشهر الاضائية كان منوطاً بهيئة الاحبار الذين ادى جهلهم ووساوسهم الدينية وحتى تحزبهم السياسي احياناً — اذ ان القرار المتخذ يطيل او يقصر السنة ، وبالتالي مدة سلطات القضاة — الى اضطرابات خطيرة : فقد بلغ التقدم على الشمس اربعة اشهر في السنة ١٩٠ ، وستة واربعين يوماً حتى في السنة ٤٦ ، وقد تخللت هذين الاصلاحين تغييرات اخرى تثير صعوبات مؤلمة في وجه المؤرخين المعاصرين .

حينئذ ، واخيراً ، جاء قيصر ، أو بالأحرى ، جاء من مصر ، حيث أتاحت له اقامته بالقرب من كليوباترا الوقوف على النجاحات التي حققها العلم اليوناني ، بفضل ملاحظات الشرقيين الألفية ، علماء اسكندريون كان اوسعهم شهرة سوسيفينيس ( *Sösigenès* ) . فطرد الدكاتور الوسوس التقوية وفرض منذ السنة ٥٠ الروزنامة « الجولية » الشمسية التي كانت تحدد السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم . وهنالك تفصيل اضافي يلقي نوراً فاضحاً على جهل الرسميين في روما آنذاك : لما كان قيصر قد مات منذ السنة ٤٤ دون ان يتمكن من اجراء رقابة شخصية على القرار القاضي بتعيين السنة « الكبيس » الاولى ، أساء الاحبار تفسير نص قراره فعينوا في البداية اليوم الثلاثائة والسادس والستين كل ثلاث سنوات ؛ ولم يُصلح خطأهم إلا بعد مرور اثنتين وخمسين سنة .

على الرغم من النقص الذي انطوى عليه اصلاح قيصر حينذاك ، اذ أن البابا غريغوريوس الثالث عشر قد اضطر لاعادة النظر فيه ، فانه قد اثبت ابعث نتائج علم ذاك العهد تقدماً . ولكن هذا العلم كان اسكندرياً . فقد اقتصر فضل روما ، في ما يعنيننا ، على اعتماد احدي هذه النتائج العملية اولا وعلى تعميم استخدامها ، بفضل شمول امبراطوريتها . وجدير بنا ان نقدر هذا الدور حق قدره ، لا بل جدير بنا ان لا نخشى من اعطائه قيمة الرمز : اذا كانت روما قد نقلت الى البشرية جمعاء ما توصل الـ اغريق الى اكتشافه ، فان الطريق المختصرة تنطوي على حقيقة مؤثرة ايضاً . وما يزيد في ملائمة المثل ان حضارة شرقية قديمة قد اسهمت في العمل المشترك بتقديمها المواد الاولى . ولكن الحقيقة ، على الصعيد الفكري ، هي ان اسهام الاغريق قد استظهر على كل اسهام آخر .

أما الطب ، وهو التعليم الآخر الذي تلقى الاغريق من الشرق مبادئه الأولى التي حاولوا تنظيمها كعلم ، فلم يقف الرومان منه موقفاً مختلفاً . فما قام بينهم حينذاك عالم بأصول هذا العلم ، واذا وجد مارسون بلديون - يكفي ان يعلن كاتون عن الحذر الذي يوحيه اليه اطباء الاغريق حتى يحكم على استدعاء كل طبيب - فلا يمكن ان يكونوا إلا جهالاً . وباستطاعتنا التكهن بمستوى خرافات الجماهير ، عندما نرى كاتون ، في بحثه عن الاقتصاد الريفي ، يسدي النصائح ويصف الصيغ السحرية ويتوسع في فضائل الملقوف الذي يقي من كل الأمراض ويشفي من كل الجروح والدمامل ، الخ . فكيف يعرض الناس عن اطباء الاغريق الذين أموا روما بعدد كبير بقية ممارسة فنهم فيها ؟ ثم برز جراح قبيل الحرب البونيقية الثانية ، فعرف في البداية نجاحاً كبيراً : حصل على حق المواطنة ، وابتاعت له الخزانة العامة بيتاً كي يقيم فيه . وزالت بعد ذلك شهرته ، لأن قسوته في « القطع » و « الاحراق » قد اعتبرت مفرطة . فاقترض ، هنا ايضاً ، انتظار قيصر حتى تدرك الدولة واجبها : انعم الدكتور بصفة المواطن على كافة الاطباء الممارسين في روما وكل من يجتهدهم مثل هؤلاء الاطباء اليها .

استسهل الرومان المهام التي وافقت واقعاتهم القريبة ، بفعل طابع النزعة الى العلم الواسع والمعارف المتنوعة والقانون

أقل خطراً ارتدته طرائقهم ، والنتائج المرتقبة منها . ويمكن استخدام التعبير « علم واسع » لجمع هذه المهام : فهو يقابل ، في مفهومه العريض ، أقله ميلاً فكرياً ، أعني به ذلك الميل الى الابحاث الدقيقة حيث يتوفق الجدل احياناً الى بلوغ نتيجة ثابتة . واذا ما اقترن هذا الميل بميل مواز يتناول المعارف المتنوعة والتربية معاً ، بغية عرض المعلومات المكتسبة عرضاً واضحاً ومنظماً - ان مسائل التربية و « المتاع المفيد » التي سبق وتسلطت على عقل كاتون ، ستجد أبدأ رومانين حريصين على درسها ، مما ينسجم كل الانسجام ودور روما التاريخي في التكييف والتعليم - فانه لا يبقى دون فعالية منذ العهد الجمهوري . بيد انه يجدر بنا ، بعد الاشارة الى هذه المقدرات القومية نوعاً ما ، ان لا نقلل من شأن العنصر الذي استطاع الباحثون الرومان اكتشافه في العمل الذي اجزءه قبلهم ، في المعنى نفسه ، العلماء الواسو الاطلاع والمتنوعو المعارف في العالم الهليني . وان

هذا العمل الذي أفضى الى نتائج عظيمة ، لم ينقطع في المراكز الشرقية الكبرى ، حيث اعطى بمحاوون لا يعرفون الكلل ، من امثال أمين مكتبة برغاموس ، كراتيس ، الذي اوفده الملك أطال الثاني سفيراً الى روما حيث طرأ عليه طارىء أطال اقامته فاستفاد منها لالقاء المحاضرات ، ومن امثال الاسكندري ديديموس « ChulKentere » ايضاً ، امثلة حية أسرع الرومان الى الاقتداء بها . وكان فضل هؤلاء الاكبر في توجيه مجهودهم شطر الشؤون الرومانية .

أدى لهم خدمة جلّتى أمرٌ أصدره الخبر الاعظم بوبليوس موسيوس سكيڤولا في أواخر القرن الثاني بنشر « الحوليات العظيمة » حيث دوّن الاحبار حتى ذاك العهد ، سنة فسنة ، الاحداث الرئيسية ، في نظره ، في الحياة الرومانية . ولكن ماهي نسبة ضبط اعادة جمع هذه الحوليات التي أدركتها النيران في السنة ١٤٨ ؟ مهيا يكن من الامر ، فان مجموعة احداث ، دينية في الدرجة الاولى ، وسياسية وحتى اقتصادية ايضاً - اسعار الخنطة مثلاً - وضعت ، على هذه الصورة ، تحت تصرف البحاين . وكان باستطاعة هؤلاء ايضاً اللجوء الى لوائح القضاة وتقاليده العائلات الشريفة التي يشتهر بها على كل حال .

نهض بعمل البحث هذا رجال كثيرون ، وقد حفظت لنا المصادر القديمة أكثر من اسم . ومن الثمن وعدم الجدوى احصاؤهم لا سيما وان شيئاً لم يبلغ النينا من نتاجهم تقريباً . فأجدر بنا بالتالي ان نقتصر على اقلهم تعقيداً وأعظمهم شأناً ، أعني به فارون . فقد عمّر طويلاً ، مناهازاً التسعين وبلغ من ذبوع شهرته ان مبادئه الجمهورية المحافظة لم تمنع قيصر من اختياره لادارة المكتبة العامة التي أسسها . وفي الواقع ان اتساع وتنوّع اعماله وشغفه شبه الشامل وانتلجه الحصب النادر - ٧٤ مؤلفاً في ٦٢٠ كتاباً - قد بررا هذه الشهرة . انكب على الادب الصافي ، ربما في شبابه خصوصاً ، فكتب ١٥٠ كتاباً في الاهاجي المينيية<sup>(١)</sup> حيث مزج النثر والشعر ، ومزج كذلك السخرية والتحريف الهزئي والتفكير الرصين والادب الشعبي والنقد الادبي . واهتم للغة والادب اللاتينيين فكان نحويًا ولغويًا ومؤرخًا للشعر المسرحي . وكان مؤرخًا لماضي روما في مؤلفات عديدة لا سيما الواحد وأربعين كتاباً في « الآثار البشرية والدينية » ، ذلك المرجع الزاخر الذي انتهلت منه دونما انقطاع الأجيال اللاحقة . وألّف موجزاً تربوياً تضمن كل ما يجب ان يدخل في التربية الجيدة . وجعل من نفسه اخيراً ، في سن متقدمة ، عالماً في أصول الزراعة والاقتصاد الريفي في كتابه « شؤون الريف » الذي جاء نشره موافقاً لفرجيل مؤلف « الجيورجيات » حول اعمال الزراعة وتربية المواشي . لم يبق اليوم من هذا الانتاج الضخم سوى الحطام . « فالشؤون الريفية » وحده وصل النينا كاملاً ؛ ولا يمكن ، بالاضافة اليه ، الحكم على فارون إلا بواسطة بعض الفصول المأى بالنواقص من بحثه في « اللغة اللاتينية » وبواسطة بعض النثف التي ينتسب اوفرها

(١) نسبة الى الفيلسوف اليوناني مينيب *Ménipe* ، وهو من اتباع المذهب الكلي ، الذي اعتمد في لواذعه اشعاراً مختلفة الارزان في القصيدة الواحدة .

الى « الآثار » . اجل نحن لا نلمس عنده مزيداً من التوقد . ولا يعني ذلك انه افتقر الى الذكاء النقدي والعقل الرشيد وحتى النزاهة الفكرية . ولكن أنى له ، حتى بمساعدة كتبة يرجح انه لم يستغن عنهم ، الوقت الضروري لأن يراقب ابدأ التقاليد التي جمعها ويُغذي فكراً متميزاً حقاً ؟ ومهما يكن من الأمر ، فان الرجل الذي استطاع المجاز مثل هذا العمل ، غير زاهد في تقلبات زمانه ، يفرض الاحترام .

يمكننا دون تحمك ان نضع ، في جوار الحركة التي نهض بها فارون ، الابحاث العديدة التي كرس في القرنين الثاني والاول للحق الخاص والحق العام : دروس وتعليقات مرتكزة الى تفسير النصوص ، لا سيما نص شريعة الاثني عشرة لوحة ، والى التاريخ . وقد اعتبر رجالات روما الاول وضع مثل هذه الابحاث . عملاً مجيداً . ونذكر على سبيل المثال حبرين اعظمين ، « ب. موسيوس سكاپولا » الذي نشر الحوليات الحبرية ، وابنه كوينتوس ، واضع مؤلف ضخمة اعتبر اساساً لمدة طويلة لانه المؤلف الاول الذي عني بتوزيع مادة الحق المدني وفقاً لتبويب منطقي . بفضل هذه الجهود المتواصلة ، وفي الوقت نفسه الذي زال فيه تدريجياً من التشريع كل اثر للماضي القديم ، اعد ما سيشرف العهد الامبراطوري ، اعني به تفتح العلم القانوني الروماني تفتحاً كلياً .

كان مادة ونتائج هذه الابحاث اهمية تاريخية : فقد تجمعت مصادر اكيدة وواضحة . التاريخ وفي الوقت نفسه اقدم بعض ذوي المراكز العليا ، على الطريقة الهلينية وبدافع أدبي مزعوم ، على تدوين مذكراتهم : ونكتفي على سبيل المثال ان نذكر سيلابعد استقالته . كان من المفروض في هذه المذكرات تبيان السيئات التي هي دستور هذا اللون ، ولكنها اوضحت السيكولوجيات وفاقته ، من حيث القيمة ، الذكريات التي يشوهها الكبرياء العائلي . كان الرومان فخورين جداً باماضي وطنهم ومنساقين بدافع السياسة في منازعات الاحزاب والافراد ، لذلك فان عقليتهم النقدية كانت بحاجة قصوى الى ان تستيقظ : فاستيقظت عند النخبة . وقد لعب تأثير بعض الاغريق الشخصي دوره في الاتجاه نفسه . فالمؤرخون الهلينيون لم يبالوا كلهم بأمر الوسوس : فقد قام بينهم خطباء خطرون يهونون التأثير المدقوق في النفوس ، ويفلب انهم اوقعوا بعض الضحايا في روما . ولكن اقامة بوليب الطويلة فيها والعلائق التي ربطته ببعض رجالاتها ، لا سيما وانه ينتمي الى غير هذه الطبقة ، كان لها صداها . اما الاثر الاقوى ، خلال القرن الاول ، فهو أثر بوزيدونوس ، ذلك العقل الشامل والرواقى الذي جمع الى التاريخ علم الاجتماع وحتى الجغرافيا العلمية : فمن تحقيقاته الطويلة والرصينة في الغرب وصلت البناء ، عن طريق غير مباشرة ، اكثرية معلوماتنا عن الغالين قبل قيصر . بيد ان المؤرخين الرومانيين كانوا اقل اهتماماً لمسألة الملل من هؤلاء الاساتذة اليونانيين المتأثرين بالفلسفة الى حد بعيد . ولكنهم تعلبوا منهم اولوية الوقائع والحاجة الى تبريرها الفردي او الجماعي وقيمة انشأهم الواضح . وهكذا تسمى التاريخ

الى مرتبة لون ادبي لاتيني كبير واقتبس في الوقت نفسه اقله بعض الفضائل العقلية التي كونت عظمة مبدعيه اليونانيين .

ولن نذكر ، هنا ايضاً ، بين اسماء كثيرة ، سوى بعض الاسماء الجديرة بالذكر . اصف الى ذلك ان اسماً واحداً ، بين الاسماء المهمة ، قد عرف ببعض مؤلفاته ، هو كورنيليوس نيبوس . ولكن جامع النوادر الموجزة هذا لا فضل له سوى انه ادخل الى روما لون الترجمة باهتمامه حتى للأجانب .

هل قيصر مؤرخ يا ترى؟ اعوزه لذلك الوقت والميل : فهو رجل تشرب ثقافة رفيعة جداً، ولكن ثقافته لم تلاش تصميمه المتأجج على العمل بل خدمته وزادته تأججاً ؛ وهو عقل يستهويه كل ظرف يمارس فيه نشاطه ولكنه لا يجيد ابدأ عن هدفه الأوحد : السلطة ، وهو ذو ذوق رقيق يقدر بهجات الفكر وغيرها ويسعى وراءها ولكنه لا يخضع لسيطرة واحدة منها . فقد نظم اشعاراً والى مسرحية - على غرار الاسكندر - ووضع درساً في النحو ، وذاعت شهرة خطبه بين المتطلبين . ولكن لم يصل النساء منه سوى « تعليقاته » على حرب الغالين وعلى الحرب الأهلية التي انجزت على يد غيره . وهي لعمرى مؤلفات دعاوة قام بتحريرها على عجل في فترات راحته ونشرها نتفاً متعاقبة بغية تثقيف الرأي العام تحت ستار إعلامه . ولا وجود مطلقاً للاهتمام التاريخي الصافي ، على الرغم من تجرد ظاهر ليس في الواقع سوى ارب متناه وفن خالص واسلوب ماهر احسن استخدامه بغية ارغام القراء ، ارغاماً افضل ، على ان ينظروا الى الاحداث ويفسروها بحسن التفات وقبول . وليست « تعليقاته » بالاختصار سوى مذكرات فورية وتقارير موجهة .

ولكنها تصدر عن خير شاهد يمكن ان نحلم به لانه لعب الدور الاول؛ وعن اكثر الناس شففاً بكل شيء ايضاً ، على الرغم من انه اعظم ذكاء ورغبة في العمل من ان لا يقبس مجوده بالفائدة التي يستطيع جنيتها منه ؛ وعن ابعد الناس سيطرة على نفسه اخيراً واشدهم حرصاً على ان لا يبدو عليه اقل شعور قد يؤثر من قريب او بعيد في وضوح رأيه . فالاديب والرجل قد ارادا عملاً خالياً من العصبية ، فكان ما اراداه؛ وقد جاء مطبوعاً باعتدال لا يضاهيه اعتدال في تركه الوقائع تصدر حكماً بالمديح او باللوم . وقد اسهم خلوه من العصبية في وضوحه الذي بلغ من كبره اننا لا نشبهه بصنعيته ، بل علينا التفكير ملياً كي نكتشف ان كل شيء لم يُقل مما يجب ان يقال ، وان كل شيء لم يحدث بمثل هذه السهولة . فحتى نعرف ونفهم حقيقة فتح غالبا ، يموزنا « تعليقات » قائد غالي كبير . كان باستطاعة قيصر ، بفضل مواهبه الكثيرة ، ان يصبح مؤرخاً لا يجارى لو انه طمح الى ذلك ، ولكنه ، لو فعل ، لما كان قيصر .

على نقيض ذلك ، تغلب المؤرخ على رجل العمل في سالوستوس أحد اصدقاء قيصر وأحد اولئك الانصار المتحمسين ، الجموحين ، والمبتكين احياناً ، الذين يستميلهم كل رئيس حزب .

أضف الى ذلك ، أن رجل العمل لم يجد عملاً بعد اغتيال الدكتاتور ، فتوارى أمام المؤرخ في المنزل الفخم الذي أتاحت له اغتصاباته الحصول عليه في قلب روما . لذلك ، فان التطور جليّ بين « مؤامرة كاتيلينا » و « حرب جوغورتا - دونما حاجة الى ذكر كتاب « التواريخ » المكرس لفترة ما بين السنتين ٧٩ و ٦٦ ، اذ لم يبق منه سوى نتف فحسب . منذ البدء ، اقتفى سالوستوس آثار توسيديد ، واستوحى انشاءه الموجز ، والجامع حتى الحشونة . ولكنه قد اقتدى به احياناً ايضاً في حرصه على استنزاف المصادر بالاستفادة من اقامته في افريقيا للاستعلام حتى عن البلدين وبالجد الذي بذله في الفراسة السيكولوجية والتحليل الاجتماعي . وغني عن البيان ان المشايخ لا يمكن ان يتوارى في هذه الفترات من ماض قريب لا يزال حياً . وهو لا يهتم ، كما توفق قيصر الى ذلك ، لاختفاء اهواء تعبّر عنها دفاعاته ومهاجماته . بيد ان تمرّده يزداد يوماً فيوماً ، فيقدم هذا الديموقراطي أخيراً لقارئه عناصر اكرام لمثلي الحزب المناوء : وهذا ما يزيد في قيمة الداعي الى الاخلاق الذي تتمنى كثيراً لو يكون دون مأخذ في حياته الشخصية .

البلاغة على غرار المؤرخين اليونانيين ايضاً ، أكثر قيصر وسالوستوس من الخطب بأسلوبها المباشر او غير المباشر . ولكن الجملة الصافية عند الاول ، والغامضة عن قصد عند الثاني ، والموجزة على غير تنميق عند كليهما ، تنحدر من علم البلاغة اللاتيني الذي تمثل هي احدي نزعاته . فنذ ذاك العهد كانت البلاغة اللاتينية ، وهي ابنة البلاغة اليونانية ، مسيطرة على اساليبها ، أي على النثر الذي ابتدعته ، سيطرة كافية لكي تتناقش في استخدامها . ان هذه المنازعات ، المستوردة من العالم اليوناني الذي انهمك بها منذ القرن الرابع على الرغم من فقدانه حرياته في تلك الاثناء ، ازدهرت في روما حيث لعب الكلام في الجمعيات والمحاكم دوراً مماثلاً لذلك الذي لعبه من قبل في اثينا الديموقراطية . فكان على الروماني الحقيقي منذ امد بعيد ان يكون حقوقياً وخطيباً . واذا ما تحلى ببعض الذوق ، فلا يستطيع ان يكون خطيباً دون فن ودون تأمل في فنه . وعبثاً اراد المتمسكون بالتقليد مقاومة أثر البلاغة العلمية التي أتاحت حيلها تأمين الغلبة لقضية باطلة . فقد درست وفاقاً لتربية مستوحاة من المدارس اليونانية بقواعد نظرية دقيقة جداً وتمارين على مواضيع خيالية . في السنة ٩٢ اقلقت مدارس البلاغة اللاتينية ولكنها لم تلبث ان فتحت ابوابها . ولعل التدبير املته ظلامية معادية للديموقراطية ، لأن الخطباء اليونانيين قد تركوا وشأنهم منذ اواسط القرن الثاني ولأن النخبة اخذت ترسل اولادها في القرن الاول الى رودوس واثينا كي يتابعوا علومهم . فانتقلت من ثم الى روما الطرائق المختلفة المعتمدة في العالم اليوناني والمجادلات التي زعزعت .

اعتمد بعضهم اللون المعروف بـ « الأسيوي » لانه نشأ في آسيا ودرس في برغاموس بنوع خاص . ومن حيث انه كان منمقاً جداً أي مثقلاً بالصور والمفردات المؤثرة ، فقد سمي ايضاً وراه الايقاع الذي هو أشبه بالغناء عند الالقاء . وخير ممثل لهذا اللون في اوائل القرن الاول

هو هورتنسيوس وانتسب البعض الآخر الى الذوق « الأتيكي » بطموحهم الى النقاء الدقيق ، والموجز على بعض الجفاف ، والمتين . وكان هذا بالضبط مثل قيصر الاعلى ؛ وهذا المثل هو الذي احرز الغلبة ، في اواخر العهد ، في اوساط الشباب .

وقال غيرهم اخيراً انهم اكتشفوا في رودوس درساً ومثلاً في التسوية : فلا افراط في العري ولا إفراط في التنميق الصناعي ، بل غزارة انيقة في خدمة معنى رصين ومتين . وهذا كانت برنامج شيشرون .

انه مدين للفصاحة بارتقائه الاجتماعي . وقد بدأ ارتقاؤه هذا بالافراء اذ ان شيشرون خدماته قد قابلتها الاعطيات والهبات عن طريق الوصيات والنصائح بالتوظيف المثمر . وبدا خصوصاً بسنى الحياة السياسية ، اقله في مرحلتها الاولى ، فأتاحت نجاحاته الخطابية « للانسان الجديد » ، المنحدر من عائلة فرسان في بلاد « الفولسك » ، ان يتوصل الى القنصلية منذ السنة ٦٣ ، « سنته » ، في السن الدنيا المفروضة لذلك . فمارس ، طيلة السنة التي تولى فيها الحكم ، دكتاتورية كلامية حقيقية ، منتزعاً من مجلس الشيوخ سلطات خاصة لسحق محاولة كاتيلينا الثورية ، واستطاع التباهي بعد ذلك ، ربما « بفعل سبب » ، ولكن دون غاية ، ، بأنه خلّص الدولة والمجتمع . ثم أتى دور الكسوف . ولكن موت قيصر جعله يستعيد دوراً اولياً نهض به بسداجة وهوى وشجاعة معاً . واذا ما هو مات ضحية طامعين عند هو في ملاحقة احدهما واعتبره الآخر شخصاً احق ، فقد مات دون ضعف ، على الاقل ، وماتت معه الحرية الرومانية . وهكذا فانه دان بارتقائه الى حدّة فصاحته العلمية ، ودان لها ايضاً بنهاية ديومستينس . وانما هو مدين لها حتى اليوم بجوهر شهرته التي لا يضاهاها حقاً سوى شهرة ديومستينس : فالمعاصر الذي يطلب اليه تأليف « تراجم متوازية » لن يتردد في الوقوف موقف بلوطارك ويرى فيه الشريك الضروري للخطيب الاثيني .

لدينا اليوم حوالي الستين من خطبه ، أي ما يعادل نصف الخطب التي عرفها التاريخ القديم . وهو قد اعاد النظر فيها قبل نشرها ، وبلغ منه انه نشر خطباً لم يلقها قط : كأكثرية الخطب « الفرينية » مثلاً . ولكنها ، حتى في مبناها الشفهي قد تضمنت مقاطع أعدت كتابة ، وكانت ، على كل حال ، نتيجة تحضير متقن . واذا ما انسجم فن شيشرون مع مزاجه الشخصي ، فانه قد خضع مع ذلك الى تقنية بالغة المهارة والتفكير كما يتضح من الابحاث النظرية العديدة حيث اطال التكلم عنها بغية تبرير اسلوبه . فقد رفع هذا الاسلوب الى مستوى النظرية في ما يعود للصوت والاشارات ، والتركيب العام ، وإنماء الافكار بالثقافة العامة ، والبحث عن الحجج وعرضها ، والوقت المناسب للجوء الى السخرية والحفظة ، وتنضيد الجمل واختيار المفردات . فاليقين والاقناع والتأثر والاعزاء ، من حيث ان كل ذلك يسهم في بلوغ هدف واحد ، يمكن تحقيقها في نظره باعتماد صفات فطرية تزيد في قوتها التربوية والمهنة .

ان ما يلفت النظر اليوم هو صنمية هذه الاساليب الماهرة . ونحن نستسلم حتى الى الملل امام هذه الجمل الطويلة وتوازن اقسامها المرتقب مسبقاً . ويستهوينا غالباً ان نتصل اتصالاً مباشراً بالرجل وبهواه الصادق الضائعين في عموميات تافهة وتمحكات حقيرة . ونكون سعداء جداً حين يحدث له ان يكون سيء النية ، لا بدافع بصيرة المحامي في شدة الضيقة ، بل بدافع الحدّة والحميّة ؛ فنحن حينذاك امام حملات لا ترحم تشن بسخرية متفوقة في المرافعات وبيغضاء جنونية في اعنف الخطب السياسية ، كالخطب الكاتيلينية والفيليبية ، مثلاً . ولكن الحقيقة – وليس ذلك هو الالم بالنسبة لمحارب خطيب ؟ – هي انه توقف في بعض الظروف الى اثاره حماس مستمعين معادين مبدئياً . والحقيقة ايضاً هي ان اجيالاً متعاقبة كثيرة لم تر ، طالما آمن الناس بفعالية البلاغة ، افضل من ان ينحنوا على كماله حتى ينتزعوا منه الاسرار .

بيد ان الخطيب لم يحدد الرجل كله الذي كان اشد كبار المفكرين الرومان ايماناً بامور الروح ، ان لم يكن اعظمهم كمالاً واثاقه – يجب الا ننسى قيصر – في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

الف قصائد رصينة جداً وتلميمية – نقل كتاب « الظواهر » السهاوية لاراتوس السولي –  
وسياسية تاريخية : بيد ان فقدانها لم يحرمننا من الروائع في الارجح .

راسل صديقه اتيكوس بصورة متواصلة . ولم يخضع نشر رسائله ، بعد وفاته بتسع سنوات ، لاعتبارات الصداقة والادب فحسب ، ولكنه قد اخطأ هدفه بدون شك اذا كان ما املاه تصميماً على الثلب والتعير . ولم تكن مجموعات الرسائل امرأً جديداً ! فقد نشر الاغريق اكثر من واحدة منها دون تدقيق في صحة النصوص التي تألفت منها . ولكن الشيء الأكيد ، على الرغم من ان مجموعة سابقة واحدة لم تصل الينا ، هو ان المجموعات السابقة لم ترد طابع الغزارة والاهمية الذي ارتدته هذه المجموعة . ومهما يكن من الامر فان هذه المجموعة لا توفر لنا ، بالحياة التي تجيش فيها ، شهادة مشوقة حول عهد شيشرون وبطانته فحسب ، بل خير شهادة تولد فينا الميل الى البدهاة الانسانية والحدة البديعة او العطوفة في ردات فعله .

بحث اخيراً ، في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حياته ، عما يحوله عن شق خيبات آماله وآلامه – عن كسوفه السياسي وعن انفلات محزن تستسلم له قوى تفوقت عليه ومزقت منافساتها وطنه ، وعن الدكتاتورية القيصرية التي كمت حرية الكلام ، وعن وفاة ابنة احبها – في وضع الدروس الفلسفية . وقد غذى بعمله هذا طموحاً الى إثناء تراث روما . وبديهي ان المقصود هنا هو التراث الادبي ، كما جرى له في دروس البلاغة المعاصرة لهذه الدروس : وقد توصل الى ذلك بفضل طريقتها الحوارية ، المقتبسة عن افلاطون ، وبفضل اللهجة المازحة او الحصيفة ، وبفضل اتقان النثر الذي جعلت منه هذه الدروس ، بعد الخطب ، وسيلة تعبير واضحة وقوية ومرنة اعتمدها جميع الكتبة اللاتين اللاحقين . كما ان المقصود هو التراث الفكري ايضاً الذي كان يشكو ، اذا

ما قورن بالتراث اليوناني ، من نقص يحز في وطنيته . ولكنه كان بعيد الهمة في ذلك . وفر له الفكر اليوناني نقطة الانطلاق : فعرض يجلاء ، حيال المسائل المختلفة التي تناو لها ، المذاهب التي بدت له جديرة بالاهتمام ، اي مذهب ارسطو ومذهب الرواقية ، راجعاً الى الاصول بغية تفسير ما صارت اليه آنذاك ، فقابلها وانتقدها بغية التوصل الى « اختيارية » وسيطة معقولة . ولكن الجهد العظيم الذي بذله قد تأثر بالسرعة التي بذل فيها ، على الرغم من صفات استساعة وذكاء حاد قل نظيرها . اصف الى ذلك ان شيشرون قد حول برضاه صوب علم الاخلاق والسيكولوجيا والحق ، ولا سيما الحق العام ، نظريات لم يتح له فهمها على الأرجح . فمن السخرية ، والحالة هذه ، ان نضيف الى مجده صفة الفيلسوف التي طمح هو اليها . ولكن هذه الناحية من نتاج ادبي مدهش باتساعه وتنوعه وثروته قد اسهمت ، بوضوحها ، والشغف الفكري ، ونوع المسائل المطروقة ، والثقة الموضوعية في العقل وفي تفاعل الأفكار ، والعناد في معرفة الانسان وخدمته ، والشعور الأدبي ، في جملة اعظم الادباء الذين دانته بهم روما اخيراً لمخالطة الحضارة اليونانية .

موت المسرح الادبي  
وهكذا فان النثر اللاتيني الذي بقي قاصراً لمدة طويلة ، قد حصل على براءة النبل . لا بل انه تغلب مؤقتاً على الشعر .

وتعود دونية الشعر جزئياً الى انه فقد حقلاً كاملاً صممت النداءات التي كانت تأتيه منه والتي كانت له طيلة قرنين حوافز فعالة . فالمسرح الادبي يعاني في الواقع سكرات الموت على الرغم من المساعي المبذولة لاعلاء شأنه لدى الجماهير عن طريق البندخ في الاخراج : استعراض ٦٠٠ بغل في السنة ٥٥ لتمثيلية كليتمنسترا ( *Clytemnestre* ) و ٣٠٠٠ دن لتمثيلية « حصان طروادة » . وتخلت المأساة والمهزلة عن مركزهما لالوان قبلت اصلاً في آخر التمثيليات وحاول بعضهم عبثاً المحافظة على بعض ما اتسمت به من اعتبار وحشمة : فهناك ضرب من المهازل المضحكة ينحدر بسرعة الى الابتذال ، كما ان نصيب الكلمات المستعذبة يتلاشى تدريجياً في « التمثيلية الايمائية » التي يتوجب على ابطالها ان يكونوا ماهرين في الرقص والمزاح .

ولكن الشعر ، في الوقت نفسه ، يسلك طرقاً جديدة : ومنها الفلسفة  
على الرغم من قصيدتين قصيرتين قد فيها اينوس مؤلفات يونانية .  
لوكريس ( *Lucrece* )

غدت بعض المذاهب الفلسفية اليونانية منذئذ مذاهب معترفاً بها في روما . فلنهمل البيثاغورية التي سمحت لها ارتباطاتها الايطالية بالدخول قبل غيرها : فبعد ان برزت بعض وجوها الاولى ، نراها آنذاك في روما حيث أسس نيغيدوس فيغولوس *Nigidius Figulus* جمعية دينية حقيقية في عهد قيصر ، هي اقرب الى الديانة منها الى الفلسفة . وقد سبق لنا ورأينا ان المعتقدات الاخرى قد صادفت لدى « كاتون » واصدقائه مزيداً من المقاومة في النصف الأول من القرن الثاني . ولكنها تغلبت على هذه المقاومة : اذ كيف يمكن العزوف عن افكار اعتبرها الاغريق أئمن زينة عقلية للانسان ؟ . وكان لتعليم الفلسفة في رودوس واثينا الشهرة نفسها

التي كانت لتعليم البلاغة ، وقد استهوى ، على غرار ، الشيبية الرومانية . وألقيت محاضرات عديدة في روما نفسها . وتجدر الإشارة هنا الى افتقار روما الى مدارس فلسفة يوزع التعليم فيها باللاتينية على غرار مدارس البيان: فليس من موجب عملي يرغم على ذلك ، وليس ايضاً - وهذا ما يفسر طموح شيشرون - من مذهب متميز نشأ في الغرب يفرض مفرداته الخاصة وتقدمه العقلي .

ان الرواقية ، بين المذاهب المنتشرة في العالم اليوناني قد احرزت في روما أعلى درجة من النجاح . وقد خدمها في ذلك اقامة امم ممثليها في روما الذين كان لهم من قوة الفكر ما جعلهم يطبعون آراء اسلافهم بطابعهم الشخصي : باناييتيوس ، صديق شيبون اميليانوس في القرن الثاني ؛ وبوزاينديونيوس الذي برع في أكثر من حقل من الحقول الفكرية ، في القرن الاول . ومنذ البداية ايضاً ، اقله في ما يعود للزعات الادبية ، تجمعت ظروف عديدة وقدرت « للرواق » الانتشار : فهو يوصي بالعمل الذي يتوجب على الروماني الا يجحد عنه ؛ ويدعو باسم العقل الى التحلي بالفضائل العابسة ، العدل والشجاعة والقناعة ، التي تطابق المثل القومي التقليدي ؛ لا بل ان الخضوع نفسه للنظام الإلهي في العالم قد انطوى على بعض ما يأخذ بمجامع القلب في مدينة تنهض بواجب تنظيم الامبراطورية التي سيطها عليها القدر . اجل لن يتم الفوز العظيم إلا في عهد لاحق ، أي في العهد الامبراطوري ، ولا يمكننا الاستشهاد إلا باسم كاتون الأوتيسكي حتى نحاول آنذاك ، ولو ببعض التكلف العقائدي وبعض الخور الذي تحموه عظمة موته ، التوفيق بين سلوكه والمعتقد الذي اعتر بالمناداة به . ولكن وجود الرواقية امر راهن منذ الآن ، وهي على اتم استعداد للتسرب بعيداً الى النفوس التي سيثيرها الاستعباد .

على نقيض ذلك ، وقبل اعصار الحروب الأهلية الطويلة ، يبدو ان الأبيقورية ، في ظاهر أنانيتها اللامبالية ، وفي حقيقة نبل تجردها على السواء ، لم تستمل سوى عدد قليل من المشايخين في روما : فهي أبعد من ان تثير اعجاب نخبة متعطشة الى العمل . ولكن فخرها ، الفريد من نوعه آنذاك بين كافة المذاهب ، انها قد ألهمت شاعراً كبيراً هو لوكريس .

ان لهذه الملازمة وزنها ، ولكن ليس ، لسوء الطالع ، ما يوضحها : فالرجل غير معروف إلا بقصيدته التي لا تتضمن أية دلالة على حياته . لا ريب في انه تأم أقله من المشهد الذي وفره له معاصروه . ولكنه تباهى بأنه اكتشف تهدة لآلامه في حكمة ابيقور ، فأخذ على نفسه تعليمها . فتميزه من ثم ليس في المعنى ، بل هو ، فكرياً ، وفي الدرجة الأولى ، في شغف علمي متأجج يحمسه ، بعد عرض نظرية ديموكريت المادية والذرية التي سبق لايبيقور وتبناها ، على درس عدد كبير من الظواهر بغية تقديم الدليل على انها كلها قد تقبل تفسيراً ، او تفسيرات احياناً ، لا تمت الى ما فوق الطبيعة بصلة . فلم يتراجع في هذا الصدد امام أية جسارة وحذا حدو أكثر من اغريقي . واذا نحن لم نستطع اليوم تقدير أهمية إسهامه الشخصي حق

قدرها ، فالاحترام الذي يوجبه مدى ونشاط هذه المحاولات لا يقبل أي تحفظ . ان تميزه ،  
 - وهو يبدو بذلك ذا طابع روماني اعظم - يقوم ايضاً في تصميمه على الانشاء التعليمي وفي  
 طابع البرهان العقلي الذي يطبع به اسلوبه . فهو يريد اقناع القارئ بأن العالم ليس سوى مادة ،  
 وان كل شيء فيه ، حتى النفوس ، مركب من ذرات يتنوع جمعها وفقاً لمصادفة التقاءً ويجررها  
 الموت حتى 'تجمع بعده جمعاً اتفاقياً جديداً . ان هذا اليقين وحده سيخلص الانسان من رعبه  
 حيال الموت ، الذي لا تعقبه أية مكافأة او اية عقوبة ، وحيال الآلهة الذين لا اثر لهم في العالم  
 والذين « يقضون في هدوء دائم اياماً دون اضطراب وحياء دون غمام » . وان تميزه اخيراً  
 وخصوصاً تميز ادبيّ قوامه الجمع العجيب بين قوّة هذا المنطق وانفعال الشاعر الحاد . فمن حيث  
 انه يفيض شفقة على البشر بسبب ألمهم المادي وآلامهم الادبية الناجمة عن مخاوفهم ، يشعر برغبة  
 جنونية في اشراكهم في حقيقته وفي احلامهم معه في « المناطق الصافية » : غير ان هذه  
 اللهجة الحادة في كافة اجزاء قصيدته تناقض ، بهذا الصدد ، الهدوء الذي يدعي تلقين سره .  
 اصف الى ذلك انه يهتز اعجاباً ببهاء الطبيعة العظيم ويعبر عن اعجابه بنبرات يغذي حرارتها  
 شعور زاخر . فهل ينمّ مؤلفه « طبيعة الاشياء » عن « فن كثير » كما كتب شيشرون الذي  
 يعتقد بأرجحية نشره بعد وفاة لوكريس ؟ اجل قد ينمّ قدم اللغة والنظم عن تقليد مقصود  
 للملاحم القديمة . ولكن لا يمكننا والحالة هذه ان نتصور اتفاقاً أكمل بين المقاصد الجمالية وقوّة  
 مزاج الفنان .

في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه شعر لوكريس الفلسفي ، ظهر في

الشعر الغنائي

روما الشعر الغنائي الذي سيتمثل فيها بسلسلة اطول من الشعراء .

كاتولوس ( Catulle )

نشأ في الأندية المحتمية التي لم ينقصها سوى شخص « الفاسيلفس » حتى

تشبه ، حتى بالتأثيرات النسائية ، بلاطات الملكيات الهلينية ، لا سيما بلاط الاسكندرية ،  
 اعظمها رقة وذوقاً سليماً . ويصبح من ينتمي اليها « احدث سناً » ، باعطاء هذا التعبير معناه  
 المزدوج ، الحقيقي والمجازي ، والجددة الجمالية والسن على السواء . وعلى من ينتمي اليها ان يتحلى  
 بثقافة رفيعة اقتناعاً بان نظم القصيدة جدير بالعناية نفسها التي يتطلبها العمل السياسي ، الذي لم  
 ينصرف بعضهم عنه بعد ، او بالعقدة الظرفية التي غالباً ما تدخل كلا من القصيدة والعمل  
 السياسي : فاذا لم يزل هناك قسوة في الحملات ، حتى المنظومة منها ، فهناك ظرف في الغزل ،  
 وكثير من التصنع المقصود ، وعلم ميثولوجي واسع ، ووزن في النتاج الادبي ، وقد وفرت  
 المدرسة الاسكندرية امثلة كثيرة على ذلك .

كاتولوس هو الوحيد بين هؤلاء الكتاب الذين وصل اليها منهم مجموعة قصائد غير كاملة على  
 كل حال : حوالي مائة قصيدة بعضها لا يتجاوز البيتين ويبلغ اطولها ٤٠٨ أبيات -- وقد  
 أدركته المنية قبل الخامسة والثلاثين من سنه - ؛ وهي قصائد مختلفة الازان والالوان ، طرق  
 فيها الهجاء والمجون والنشيد الديني ، والرواية الاسطورية . وينمّ كل ذلك عن ادراك لكمال

المبنى ومهارة في اللغة ، وجوح مرن وسهل ، تمثل ، على ما نعلم ، ما يقابلها من تقدم حديث العهد وجليل الفائدة . ولكن صدق الشعور المتواتر لأئمن قيمة أيضاً . أحب كاتولوس تلك التي يطلق عليها اسم « لسبيا » ( *Lésbie* ) التي ليست سوى شقيقة الميترج كلوديوس . كان باستطاعته ان يختار افضل منها ، ولكن كان من شأن اختياره ، لو فعل ، ان يدعو الى الاسف ، لأنه تألم من خيانات عشيقته ، فوفرت له هذه الألام نفسها ، بانماء وإعماق شعوره ، ظروفاً جديدة للتعبير عنه . اجل لقد وجدت « صافو » من قبل ، وعرف كاتولوس مؤلفاتها ومؤلفات الاسكندريين الذين نقل عنهم الى اللاتينية عدّة تمثيلات ، « كشعر بيرينيس » مثلاً ( *La Chevelure de Bérénice* ) لكليتياخوس . ولكن التعبير عن الهوى الذي يعمي البصيرة ، تلك السريرة الهائلة والام الصارخ ، نادر في ادب العصور القديمة اليونانية والرومانية . فقد وجب ، للاقدام على ذلك بمثل هذه القساوة ، قوّة نضرة يتمتع بها شعر في شرح الشباب ، لم تصل اليها الكلفة بعد . غير ان خلفاء كاتولوس ، الذين سيدينون له بالكثير من مهارتهم التقنية ، لن يسيروا وراءه في هذه الطريق .

### الخلاصة

تأيّد اذن ، حتى قبل نهاية العهد الجمهوري ، نجاح روما ونضجها الادبيان على نقيض ارتباطها الفني وجودها العلمي . فما اعظم الشوط الكبير المقطوع منذ ترددات الادب الاولي في النصف الثاني من القرن الثالث ! فان هليئة روما قد انبثت فيها ادباً يتمتع بكيان مستقل وينتج روائع لا تتأخر أبهى الحضارات عن الاعتراف بها . ولم يحدث شيء من ذلك تلقائياً : اذ ان اختيار القدوات قد وفر تسهيلات نادرة جداً . اصف الى ذلك ان النجاحات كانت بطيئة ، وشاقة في أكثر الاحيان ، يتخللها التسكع والاجهاض . كان للعقل اليوناني الفضل في انه خلق ، وخلق بسرعة ، في قرنين او ثلاثة قرون ، ما قد صرفت روما أربعة قرون في ادراكه وتقليده وتطبيقه على مواردها وعلى نزعات عبقريتها الخاصة . ولكن الانطلاقة قد حدثت ، واستطاعتها ان تسيّر طريقها حتى ولو قطعت جسور الاتصال بينها .

ثم ان مثل كاتولوس يتيح لنا ان لحدّد ببعض الوضوح المرحلة التي بلغتها آنذاك النخبة الادبية الرومانية . فهي ، من حيث احساسها المرفه بالجمال وتعودها لذّة الابحاث الفنية ، تستسيغ في جوهر كيانها كل الحضارة اليونانية منذ العهد القديم حتى المدرسة الاسكندرانية ؛ وهي لا تزال تهمل منها وتنقلها الى اللغة اللاتينية ولكن غايتها الوحيدة هي التمرّن والممارسة . فهي في الوقت نفسه قد استعادت بعض الميزات الاصلية او حافظت عليها ؛ فلم تذهب بالاناقة حتى التصنع ؛ وبرهنت على قدرتها على نظم « اشعار قديمة » في موضوع « الافكار الجديدة » ، وعلى

التعبير ، في صيغ لا يغرب عنها أي سر من اسرارها ، عن آراء ومشاعر طبعتها هي بفارقاتها الخاصة .

وباستطاعة كاتولوس ان يرمز الى شيء آخر ايضاً ، فهو قد أتى الى فيرونا ( *Vérone* ) في ايطاليا الشمالية ، البلاد الغالية ، الى روما التي سبق لها واستقبلت في القرن السابق تيرنس من افريقيا . وهكذا فان روما التي دانت بيقظة ادبها لاطالين جنوبيين مستغرقين قد أمنت تمبئة حاجتها منهم في الغرب ، فنقلت الى هذا الاخير الثقافة التي تلقتها من الغير وكيفتها . ولكنها اجتذبت اليها وضممت الى مجدها القوي الحية التي برزت فيه . وان هذا الدور ينبيء ، من زاوية هذه المظاهر المختلفة بالدور الذي ستلعبه طيلة العهد الامبراطوري الاول .

فهي قد عقدت منذ الآن ، على طريقتهما ، ولمصلحتها ايضاً كما هو بديهي ، خيوط شبكة العلائق المختلفة التي أمسكتها بيديها . واحتلت منذ الآن ايضاً ، بفعل تقبلها واعطائها وتحويلها ما تتقبله ومحاولة رقابة تحويل ما تعطيه ، مركز حضارة ناشئة ستشمل الإطار الاقليمي والبشري الذي اوجدته فتوحاتها - تلك الحضارة التي هي المصدر الأهم والمباشر للحضارة « الغربية » الراهنة .